الأقـــانيـــم الثـــلاثـــة

﴿ روايـــة ﴾

تأليف: وسام الرفيدي

اصدار: مركز الزهراء للدراسات والأبحاث
القدس ١٩٩٨
الطبعة الأولى
تصميم الغلاف (اهداء من) : إكرام علام

الإهـــداء ...

إلى أمي الصديقـة الأقـرب للقـلب ...

في زمن القسوة والتحدي

إلى الرفـاق الروافـع الحقيقيـة ...

في زمن القسوة والتحدي

شـكر وتقديـر ***

لا بد لي أن أتقدم بشكري إلى الصديق الكاتب "حسن عبد الله" لاهتمامه الذي فاق مجرد التشجيع، والى الرفيق والصديق "أحمد قطامش" ليس فقط على تشجيعه بل على اهتمامه حتى بتفاصيل مملة لا بد من تحمل وزرها.

أخيرا وليس آخرا انني مدين بشكري للرفاق الثلاثة الرائعين (عمر تايه، يوسف العاطي و يوسف عبد العال) في سجن نفحة اللذين تجشموا عناء المهمة المملة - نسخ الرواية هذه على ٥٤ كبسولة وتنظيم تهريبها عبر ٦ سجون حتى وصلتني سالمة.

وسام الرفيدي

مقدمـــــة

إن اطلاعي ومطالعتي لمسودة رواية الرفيق وسام رفيدي وصياغتها النهائية لتجربة منعشة حقاً وقعت تحت تأثير سحرها، فأثارت في نفسي انفعالات وفي عقلي تداعيات أيقظت ما كان هاجعاً في ذاكرتي، بل وفي مواقف معينة تخضّبت عيناي بالدمع أيضاً، فهي رواية من طراز خاص، ذلك أنها تضم فيما تضم جوانب عديدة من سنوات الاستخفاء التي عاشها وتلظى في موقدها ورقد في أتونها، تلكم التجربة التي احتوت في جوهرها على معايير عامة للاستخفاء في ظروف بلادنا، فضلاً عن حملها لسمات خاصة حيث يمكن تلمس اتساع رقعة عناصر وبهتان عناصر أخرى كما افتقادها لعناصر ثالثة تبعاً لمسار التجربة الملحمة ذاتها من جهة وخصال المتخفي ارتباطاً بعمره وخبرته وسجاياه ونضجه النفسي. والرفيق في نهاية التحليل تجشأ نبض الخصوصية في إطار احتضانه وحضور القوانين العامة. ولا يجوز بحال من الأحوال ومهما بلغ الجهد الإبداعي أن يخامر أحد الشك أن ما سطره المؤلف هو صورة فوتوغرافية للتجربة. فالرواية هي درجة من درجات التجربة ذات الأبعاد الأغنى والمكابدات الأعظم والتضحيات الجسام بما لا يقاس. ولئن كان فن الرواية هو الأوسع فضاء وتشعبات غير انه يقف ذليلاً كطفل مخطئ أمام مفردات استثنائية كمفردة التخفي أو الحرب أو الحب أو الأمومة... الخ إذ ثمة مقاطع نوعية في الحياة تفوق في دراميتها ومركباتها أية تركيبات وفنون درامية رغم الاعتراف بمزايا الرواية على سواها من الفنون.

ورسالة الرواية واضحة ومحورها ناتئ ومبناها جلي ومتسق، وهي في المحصلة تتعدى الأدب التسجيلي إلى عمل أدبي ذي نكهة خاصة لم يكن صعباً نحت مضامينها إلا من ناحية الشكل اللغوي والربط الداخلي وانتقاء الألفاظ الجميلة والمحكمة وفي كثير من الأحيان الشاعرية، ذلك أن المضامين أحداثاً توالت على كنعان، التي أملت فرادة مسيرته إبحاراً في خلجان الذات وتقليصات للحوار مع الغير الأمر الذي انعكس في معمار الرواية، بيد أن الفقر في العلاقات الاجتماعية تغلب المؤلف عليه من خلال تدفق شلال مونولوجه الداخلي، وان نمو الشخصية الرئيسية وما صاحبها من تشويق في استرجاع مشاهد ومجريات نبذ أية احتمالية لنشوء التثاؤب والملل في نفس القارئ.

والرواية بتتبعها لمحطات هامة في مسيرة كنعان الملاحق من قبل قوات الاحتلال إنما سلطت كشافاتها على أحد مقوماتها الأساسية، الصراع الذي تمظهر اكثر ما تمظهر في العلاقة التناحرية بين كنعان والمحتل الغاشم، فضلا عن التناقض الحاد بين الاحتياجات الطبيعة والإنسانية لكنعان وظروف المكان الذي تدثر فيه، كل ذلك في سياق زمني بدأ منذ لحظة مداهمة الاحتلال لبيت عائلته وامتد

للحظة مداهمة بيته السري واعتقاله. واستطراداً لذلك وكجزء بنيوي أيضا أضيف للرواية أبعاد نفسية غزيرة تخطت أية إشارات سردية وظفت بطريقة خدمت جمالية الرواية ورسالتها وبداهة أن الرواية ليست معادلة فيزيائية ولا وثيقة تاريخية، وإنما يختلط فيها الخيال بالواقع، المعقول باللامعقول، التقدم للأمام والعودة للوراء، الوقوف على السطح وسبر أغوار العمق، وهذا كله طبيعي في الأدب. وان تكون لحظة المداهمة نقطة مفتاحيه للرواية، هي بلا ريب عامل جذب هائل يشحن القارئ منذ أن يطأ بصره الفقرة الأولى، ويتجدد هذا الجذب المشحون كلما همد اندفاعه أو حاول التقاط أنفاسه كي يحتسي كوب شاي أو يرتشف فنجال قهوة، وهذا الاختيار الموفق حد الامتياز لم يكن صدفة قياسا بما انطوت عليه تلك اللحظة من غنى واستيلاد لمشاعر متناقضة فائقة السرعة وقطع سياق وولوج سياق جديد. أنها بؤرة مكثفة لأحاسيس وأفكار لا تحصى، مألوفة وغير مألوفة، عادية واستثنائية يحميها إرادة تفولذت في سنوات المجد والفراده والإنتاج والتحدي، تنحى فيها الجزع والانكسار الروحي والولولة على الخسارة التي حلت، حتى أن السؤال عن السبب، عن الخلل الذي أفضى للاعتقال لم يستغرق سوى برهة قصيرة هيمن عليها وحل محلها موجبات الامتحان الجديد.

الرواية التي ارتبط نسيجها بالمعطيات والوقائع التي عاشها شعبنا في الوطن المحتل وإبرازها لروح المقاومة كنزعة تقدمية تسعى لتغيير وتبديل الواقع القهري باتجاه عتق شعبنا وبلوغه الحرية والاستقلال، إنما تنتمي للمدرسة الواقعية الثورية التي لا تكتفي بالتشخيص وإنما تسعى للتحريض والتغيير أيضا. والثوريون في بلدان القمع السياسي عمدوا على تكتيك التخفي في المدن سيما تلكم البلدان الصغيرة التي يصعب إطلاق عملية نضالية في ريفها. وحركتي التوباماروس في البراغواي والدرب المضيء في البيرو هما الأكثر شهرة على هذا الصعيد. أما الخبرة الفلسطينية فطابعها فردي واقل نجاعة في هذا المضمار بالنظر إلى المحدودية الجغرافية والديمغرافية للأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ ناهيكم عن غياب الطبوغرافيا الملائمة، كعامل موضوعي مقرر لا يمكن تجاهله مهما برع أداء وذكاء الحالات النخبوية التي تجشمت أو يمكن أن تتجشم هذا الخيار. أما في زمن الجيشان الانتفاضي فقد تصيرت الحالات الفردية لما يشبه ظاهرة جماعية متمردة على الامتثال لقرار الاعتقال وغدت كل مدينة وقرية ومخيم تعج بظاهرة المطاردين الذي هم شكل مبسط وقصير المدى لما مثله وخاض فيه كنعان.

الموقف اليساري عادة لا يحصر نفسه في المنطلق الثوري فقط، بل ويرمي للوقوف على ناصية العلم أيضا. وعليه، لا يفيد في شيء اختزال شخصية الإنسان، وبالتالي الشخصية الثورية وقولبتها كما لو كانت مجرد كتلة من لحم السياسية والنضال فقط، مثلما لا يفيد في شيء، كتحصيل حاصل، تصويرها على هذا النحو في الرواية أيضا. فالثوري في الحياة كما هو في الرواية إنسان أولا وقبل أي شيء

آخر، إنسان مكون من جسم وعقل ونفس، له احتياجات تجمع بين رغيف الخبز والحرية والحب، وبدون الرغيف يموت وبدون الحب تكف البشرية عن التناسل والوجود وتفقد أهم مصدر للذتها، فيما الحرية بقدر ما هي مطلب حضاري غير أن أجنته مزروعة في أطوار الحياة البدائية أيضا.

الغريزتان الأساسيتان في الإنسان هما الدفاع عن النفس وغريزة البقاء بما توجبه من تكاثر، وسوى ذلك هي غرائز فرعية تنبثق عن هذين الجذعين الضخمين، وبالتالي فحاجة المرأة للرجل وحاجة الرجل للمرأة هي حاجة أصيلة دون توافرها يندثر العنصر البشري، بل ووصل الأمر بالبابليين القدامى منذ ما يناهز أربعة آلاف عام في أسطورة (جلجامش) أن جعلوا صديقه (انكيدو) إنساني الشكل حيواني السلوك والمعاشرة، لم يتسق ويغدو إنسانا كاملا إلا بعد أن نال لذة العلاقة بالأنثى، فيما يذهب الفلاسفة المعاصرين إلى حد القول بان الشيء لا يكتشف نفسه إلا بكشف نقيضه الملازم له: الخير والشر، الاشتراكية والرأسمالية، التحرر والاستعمار، العلم والجهل ... وبالتالي يكتشف الرجل مدى إنسانيته والمرأة مدى إنسانيتها من خلال علاقة أحدهما بالآخر. هذا ناهيكم عن ما يمكن أن تمثله المرأة للرجل الثوري، والرجل للمرأة الثورية من عون متبادل وأحلام مشتركة وراحة نفسية وتعاضد في أزمان التقهقر والشدائد، فحين ذاك يضفر أحدهما الآخر ويقاتلان بقوة اثنين لا واحد، فالحب قيمة تقدمية سيما إذا كان متبادلا وعميقا، الانفصال فيه يعني بلية كبرى لكليهما، ومنزها عن أية حسابات مالية ووجاهية. وباختصار اختيار حر يتعمد في معمعان المعاشرة والعمل المشترك.

والمرأة للرجل الثوري تتعدى كونها مصدرا للجمال والرقة والطراوة، بل أنها الجمال والرقة والطراوة أصلا وفرعا وما عداها يرتبط بها ويتفرع عنها، وتتعدى الصدر الدافئ ومفجر مشاعر الحب والاشتياق والافتتان والاشتهاء والشهوة، وتتعدى الموئل المرغوب ومطهر الروح من شوائب الزمن وثقال الحياة، أنها كل ذلك واكثر من ذلك وترتقي إلى مرتبة الشريك الكامل في مسيرته التي يتعذر تصور نجاحه ونجاح أي عمل ثوري بدونها.

ومن الجلي ان الاقنوم الثالث كما سماه كنعان، أي المراة، قد كان الغائب الحاضر دوما على امتداد سنواته التسع. وطالما تجمر كنعان اشتياقا له فمن الطبيعي أن يحتل حيزا بارزا في اهتماماته وهمومه، ولكن هذا بداهة لا يمت بصلة للتحليل الفرويدي الذي يعتبر (اللبيدو)، أي الطاقة الجنسية الكامنة في الإنسان هي محرك سلوكياته. فالإنسان ابن بيئته وعصره أولا. وهذا ما دفع كنعان للثورة على الاحتلال، بل وكنعان ذاته نتاج ظروف محددة ما ترسم طريقه ضمن شكل معين الا تمردا على تلكم الظروف. بيد ان مقولة إذا كانت الظروف هي التي تصنع الإنسان

فعلينا ان نصنع ظروفا إنسانية، إنما تنطوي فيما تنطوي على اعتراف مبدئي بالإنسان كموضوع وذات في آن.

ومثلما تسعى الإنسانية قاطبة لتسخير إمكانات الطبيعة الصماء لتلبية احتياجاتها، فالإنسانية أيضا تسعى لدحر الطغيان والمظالم والقمع وعوامل الاغتراب التي تصادر إنسانية الإنسان وتستغله وتشيئه، جنبا إلى جنب مع إزالة العقبات التي تعوق التجاذب الفطري بين الرجل والمرأة.

وكنعان كان يفتش عن اقنومه الثالث محرضا نفسه عليه كحق طبيعي له، كما يتجلى في فصول الرواية وهذا لئن كان باعثه أصيلا بل ومتماشيا مع قوله (بدون حب مجنون لا مهرب من قلق دائم) غير انه اجبر اضطراريا لتهدئة هذا الباعث على غرار الأسير الذي يمضي سنوات طويلة في الأسر أو الرهبان أو المرأة العانس في مجتمع محافظ. والنفس يمكن توطينها على هذا النحو فيخمد المتطلب دون ان يموت شأنه شأن التأقلم مع ظروف مجافية، يساعد في ذلك تطويع العقل لكي يتقبل الاستسلام لحقيقة الحرمان والانشغال ساعات اكثر يوميا، فالعمل مشفاة النفس، بما يمهد للجم احتياجات طبيعية ونشوء استجابات جديدة تلائم وضعية التخفي والسجن ووو ..... بما يفضي إلى مصالحة مع الذات وارجاء نوازعها الاصلية.

ولكن هبوا ان شخصية كنعان قد روضت مطلبها لاقنومها الثالث، هذا ان جاز افتراض ذلك، حينذاك يمكن تخيل شخصية أخرى لكنعان تشرح ما كانت عليه وما آلت اليه وما توسلت تشذيبه، وهذا يفضي بها على الأرجح إلى وضعية اقل معاناة وتوتر عصبي واكثر تجذرا بمقاييس الاختفاء، فيخوض تجربة مميزة مع نفسه تنعكس لا محالة في الرواية بما يزيدها، ربما، جمالية ورونقا وتقشفا إنسانيا على غرار الراهب البوذي. وهبوا أيضا إن كنعان عثر على اقنومه الثالث فخرج من وحدته وشحذ رهافته واكتملت إنسانيته وعاش تجربة التخفي كاثنين، وقتذاك يختلف السياق ويثرى النص الأدبي، بل ويتجسد نموذج المرأة بإيجابية اكثر في الرواية وتنمحي المرارة التي يمكن تذوق طعمها في عبارات كنعان والمنثورة كنفانف الثلج على شاربين غليظين عن (تآمر الجنس النسوي) وتعدد النماذج السلبية التي صادفها (منى خطيبته السابقة، ام عيسى، سكينه، هند التي ظهرت وانطفأت كومضة). ويمكن الشعور أن هذه الذاكرة السلبية هي الاستثناء لا القاعدة. أما القاعدة فهي حقائق، الواقع التي تقطع بالقول إن المرأة في الحياة هي الإيجاب الخصب، بل لا خصوبة إيجابية في الحياة اكثر من خصوبة المرأة.

ومن بساطة الظن أن منى مجرد امرأة فسخت خطبتها، فهي تتعدى ذلك إلى حبيبه وذكريات، بل أنها تذهب ابعد إلى درجة تساوي كل النساء، وبنأيها إنما نأت كل النسوة، اتصالا بوضع كنعان الخاص الذي لا يتيح له فرصة الاحتكاك

بسواها. وكيما نكون منصفين، فعلى الأرجح أنها لم تعرض عن كنعان الإنسان، بل أنها فتنت ومفتونة به، ولكنها أعرضت عن كنعان الخيار الصعب المكثف التي لم ترتق لمستواه وما كان بوسعها ان ترتقي ضمن مواصفاتها العادية. أما هند فهي الأمل الذي تحقق بعد تسعة أعوام من الصبر والاصطبار ولكن ما ان أصابها لهب السعير حتى فرت إلى غير رجعة، فمن يصمد في نار السعير؟

والرواية لئن عرضت كنعان كثوري يمتشق صليب الوطن والشعب على ظهره في جلال النهار ووحشة الليل غير انه يصعب حصر معاني لفظة (جنون) المقترنة بالتخفي والاحتراف. وكنعان زان التخفي والاحتراف الثوري كجنون، فيما يمكن قراءته كأرقى مراتب العمل الثوري الذي لا يضاهيه سعادة على الإطلاق – فالغالي يتطلب الغالي – سعادة منتجه، فعالة، فريدة، ولكنها ممزوجة ايضا بالم المعاناه كما ألام في لحظة ولادتها أو سهرها الليالي الطوال على طفلها السقيم، أو كدها سنوات متصلة تهرق فيها استواء الشباب في سبيل دزينة أو نحو ذلك من أبنائها وبناتها، ولكنها سعيدة وجذلة في كل الأحوال، وعلى الأقل السعادة والجذل هما المظهر الرئيسي في بنيتها الروحية، فيما يتنحى إلى درجة ثانية أو عاشرة التعب والمكابدة والعذابات أو تستحيل هذه في صهريج روحها إلى سعادة. أنها الوحدة الجدلية المتناقضة.

ان الخيار الجدي والجدي جدا يعطيك بقدر ما تعطيه، يطهر النفس وينبذ درناتها ويصلب التكوين الداخلي ويصيره صقيلا متفولذا، ويعيد صياغة صاحبه على نحو افضل وارقى ويفتح له البوابات على مصاريعها للاضطلاع بدور بناء مضاعف، بل مضاعف مرات، ويكاد يشطب الفراغات في ذرة الثوري مستبقيا على نويتها الصلبة. وهذا لاحظناه في الرواية حيث تنمو شخصية كنعان القلقة المترددة والمسحوقة تحت ضغط العاديات من المقتضيات في بدايات التخفي وصولا إلى لحظة الحسم والانحياز حتى نخاع العظم، ولتأتي الهجمة الاعتقالية سنة ٨٥ كمنعطف وصقالة يبني عليها قفزته وتحولاته الجدية. وما كان ممكنا ان يكون كنعان على نحو آخر وهو المغادر للتو مقعد الدراسة الجامعية بما يرتبط به من حيوية وعلائق وأنشطة وفرح الشباب، وخطيبة بطعم الشهد، إلى مقعد الجندي المجهول الذي يمثل استدارة كاملة وانغماس من الرأس إلى الكعب في دائرة مغايرة لكل ما سبق بل ولقاعدة الإنسان اجتماعي بالطبع. ولا ينبغي زجر كنعان حينما يعرض نفسه عام ٨٦ خلافا لما كان عليه عام ٨٢ إذ انه كان في امس الحاجة لسنوات أربع لمراكمة عوامل الطفرة كنتيجة حتمية في مساره التطوري. فالصفات الثورية كائن حي ينمو، تبدأ متعثرة، متلعثمة، لجوجة، يغلب عليها (الأنا) والتردد واللجلجه والتبرم، غير ان نار الممارسة وخبرة الزمن وفعل الفكر الثوري والأجواء الجماعية بما تكتنفه من قوة مثال متكررة تنهض بها إلى مستويات متقدمة من الوعي والتصميم والثبات على المبدأ والاندماج في (النحن) واكتساب مهارات

العمل والطباع الصلبة وكل ما يلزم مؤونة للمسيرة الثورية، وهذا هو الجوهري العام الذي يبلغه الخلص كل بطريقته الخاصة. والاحتراف الثوري حينما يكرس المرء نفسه بجماع شخصيته وكامل جوارحه في سبيل قناعاته ومبادئه، إنما يتبوأ درجة سامقة وحينما يكون مشفوعا بمهارات ومواهب حقيقية إنما يرتقي لخانة طليعية وأمامية حقا يتقدم فيها على سواه وبجدارة يجوز خلع لقب طليعي وحارس أمين عليه.

بيد ان الاحتراف في الساحة الفلسطينية غالبا ما تعرض للمسخ والتجويف حتى بات كل متفرع وموظف محترفا! بل وعانت الثورة المعاصرة من أورام وصديد جيش المتفرغين بما شكل عبئا ثقيلا على الشعب وأهدافه واستولد طعونات لا تحصى، ناهيكم انه من بين أوساطهم انبثقت الشرائح البيروقراطية المكتبية التي نشرت فيما نشرت الفساد والإفساد وأجهضت في التحليل النهائي القرار السياسي والروح الكفاحية للجمهرة المناضلة ويجيء كنعان كطراز بديل، وثاب، متوقد ومتحرر من غبار وعطن الذاتية والشكلانية.

وتجربة كنعان التي صمدت نحو عقد من الزمن، هذه الفترة الطويلة نسبيا، لم تكن شجرة زيتون أثمرت نضالات وإنجازات فقط، وعجن طحينها بخميرة المعاناة المحضة فقط، بل وتميزت بذكاء وفراسة وتحوطات وتفكير استباقي مكنته من تفادي فخاخ المخابرات وافشال سعيها المحموم لاعتقاله مدة تزيد عن تسعة أعوام.
لكن خليق الاعتراف ان المتغيرات السياسية والتسوية ما بعد مدريد قد أشهرت سيفها البتار وذبحت هذا الطراز – النموذج الذي شخب دمه بدون رحمة. فهل ما فتئ هذا النموذج مطلوبا؟

ان هذا النموذج قد استدعاه التاريخ في مرحلة سابقة كأعلى شكل من أشكال الاستجابة لاستعصاء التناقضات وتحدي القانون الاستبدادي، أما في ظل التسوية فثمة سلطة تفاوض وحركة سياسية تدعو للديمقراطية والمجتمع المدني، كل الالتزامات تضغط بما يكفل تطور متدرج هادئ للمجتمع في إطار من التبعية والإلحاق، وعليه، لم يعد هذا النموذج باهرا أو مطلب موضوعي، أما في حالة ان تخفق العولمة الاقتصادية – السياسية – الثقافية في تجميد الصراع ولو في المستقبل المتوسط والبعيد، فوقتذاك يمكن التخمين بإمكانية تفاقم التناقض الوطني والتناقض الاجتماعي بما يشترطه ذلك بداهة من تطورات على صعيد اقليمي، وبالتالي يغدو هذا النموذج محطا للدرس والالهام والاقتداء. وعموما لقد ولد هذا النموذج في رحم ظروف موضوعية محددة وكان الأنبل من بين النبلاء.

وكما تشي به سطور وفصول الرواية وما وراء السطور والفصول كان من المتعذر إستيلاد هذا الطراز دون الاستئناس بالعقل الجماعي، المرشد الجماعي، المربي الجماعي، الخط الجماعي، ضمير الشعب، أي الحزب الذي يطل برأسه من مسامات الرواية كيد مساعدة، يحضر كلما دعاه كنعان، يضبط انفعالاته، يستأصل تشوشاته ويعضده حينما يقعده المرض ويؤمن له متطلباته الحياتية والفكرية والذوقية، سواء على شكل رسالة أو تعميم أو زيارة أو توجيه أو رفقة أو لوازم. ومثل هذا الحزب، بداهة، لا يؤدي مثل هذا الدور إلا إذا اتسم بقدرة عالية من الإلهام والإقناع وبعث الآمال.

وكنعان لا يأخذه الاغترار والدلال فيعتقد انه نسيج وحدة، بل يعترف برفقاء المهنة وينفذ تعليمات الحزب ويتسلح بها كراية له (اغسل ذاتك بالماء والصابون وتجلد)، (يصعب تبلور حياة سرية دون عناية الحزب). وهذا مبرر تماما ، على اعتبار ان الانتماء للجماعة بما تمثله من قيم وأحلام وأهداف ونظم هي الركن الركين في عنفوان المناضل وان اهتز، اهتز كل شئ، وان ارتبك، ارتبك وتبدلت أولوياته ومقاييسه وزاوية النظر للأشياء .

ويمكن تلمس قسوة ولؤم سنوات التخفي بالنسبة لكنعان من خلال تنقلاته الدائمة، فهو لا يستقر في مكان قط، وحينما نستذكر صغر المدينة التي أقام فيها، الأمر الذي اضطره على التيقظ الدائم واستنفار قرون استشعاره الأمنية، كيلا يصادف من يهتك سره. وثمة أمثلة حية أيضا كالبيت الذي أمضى فيه ثلاثة شهور دون إنارة ليلية، والفرشة المحشوة حجارة والجدار الذي اعتاد محادثته على طريقة الشاعر قباني (اهرب من الجدار إلى الجدار) لكن ليس كرمز بل حقيقة دامت سنوات، محادثة بكماء صماء، مجدوعة الأنف، مصلومة الأذن بما يطفح ظماً وجوعا للناس، ومثل هذه المحادثة الشوهاء، إنما هي ضرورة وموقف دفاعي للتخفيف من ديناميات الذاكرة الضبابية المائعة التي تنشأ في رحم الوحدة والعزلة. وفضلا عن ذلك فكنعان يختتم مسيرته " المجنونة " بابتلاع الأوراق المستنقعة في الكاز واعتداء الجنود عليه كوجبة سبقت الاعتقال والتحقيق.

وحينما التقيت كنعان – وسام في السجن بعد عام ونصف لاحظت هزول جسمه وانخساف وجهه، وجنتاه غائرتان وعيناه ذابلتان، إلا من بريق جريء يومض بقوة إرادته وطهرانية ثوريته، وحالما عانقته لمست أصابعي أضلاعه واحدا واحدا، فأصبت بالوجوم للحظة بعد ان تسلل وقع هذا اللقاء بعد عشرين عاما من الانقطاع إلى خلجات فؤادي، ولم يزايلني أثر هذا اللقاء المفرح – المفجع الذي جعلني اعرف فرط ما ناءت به سنوات من أثقال ومكابدات، وما بعث المواساة في نفسي هو اقتناعه بخياره وضحكته المجلجلة كما لو ان قلبه خال من الهموم وكما لو ان مزاجه لم يعرف الاعتكار.

ولا تفوتني الإشارة إلى انه من بين طيات مسيرة "الجنون" كان يطلع يوميا وجه الأم ودعاوى الأم. فروح كنعان تشظت توقا لأمه ولم تكن لتهنأ وتستطيب إلا حينما يحتضن أحدهما الآخر، وأمه الطيبة المتماسكة الجلود لم تتردد في إضرام العزيمة والنشاط في ابنها، وقد حملت همه أينما ذهبت وحمل همها أينما ذهب كتوأم روح، بل وفي مائها الرقراق القراح طهر جروح أيامه واستظل بظلالها من لهيب أحلامه الثورية التي حرقت جلده واستوقدت نارا في صدره لا تنطفئ .

أحمد قطامش شباط/ ١٩٩٥
معتقل أنصار ٣ / النقب

الفصل الأول

الفصل الأول

بـاب البيت السري يتلقى الضربات. الطرقات التي يسمعها الآن في ليلة صيفية، جميلة، وادعه، تنبئ بما قد يكون تغييراً جذريا في حياته. بالقبضات، بالأحذية العسكرية الثقيلة، بأعقاب البنادق قد يحتفل بعيد ميلاده الجديد. أية حياه ستكون عندما تعلن عن نفسها عنوه، بصخب وعنفوان الجزمة العسكرية الثقيلة؟ حياه كهذه أعلنت عن نفسها على هذه الشاكله قد تكون حياه دامية تبدأ لتنقضي. أيكون ميلاد حياته هو ذاته موتها؟؟

كانوا بطريقة طرقهم على الباب كمن يمارسون طقسا وثنيا، جماعيا، بدائيا. كانوا أشبه بقبيلة من أكله لحوم البشر يرقص أفرادها رقصة جنونية شهوانية يصاحبها صياح وزعيق أحمق يهتك سكون الغابة، ممزوجا بقرع الطبول التي تشي بشهية جائعة متعطشة للنهش والافتراس. كذلك تخيلهم كنعان القابع في وكره السري مع هشام في تلك الليلة من آب، بعد منتصفها بنصف ساعة عندما بدأ الجنود بمحاولة اقتحام بيته.

طرقات سريعة، متلاحقة، عنيفة ووحشية تحطم ليس فقط سكون البيت ذي الغرف الواسعة قليلة الأثاث بل أيضا سكون الحي الصناعي الهادئ ليلا إلا من نباح كلاب مطحنة الشعير المجاورة. لقد توقفت الكلاب عن النباح عندما شرعوا بممارسة طقسهم، مذعورة من تلك الأشباح الليلية التي هزمتها بعلو صوتها وضجيجها. لقد هتكت طرقاتهم وداعة الليلة الصيفية الجميلة، انسياب حياته السرية، الرتيبة بساعاتها. كانوا بمحاولاتهم لاقتحام عرينه الذي استعصى على مخابراتهم سنين طويلة كمن يصارع عذراء، ناهد يانعة ليمزق بكارتها بوحشية، وبيته السري-عرينه، تلك العذراء التي تقاوم دفاعا عن عذريتها. الطرقات الوحشية تحطم ومنذ اللحظات الأولى نسق حياته التي اعتاد. من أين يتأتى نسق حياة غريبة- استثنائية؟ من تقاليد حياة خاصة به يحياها سنين وسنين، من ساعات يومه يقضيها بطريقة خاصة ليس كغيره من الناس. لهم عاداتهم وله عاداته! لهم دينهم وله دينه! سنين وسنين يحيا خارج قبضاتهم، يقرر تفاصيل يومه، يمتلكها، يخضعها لمتطلبات العمل الثوري الذي احترفه، حتى تحولت حياته السرية لرحم فولدت تجربته ونار القسوة والعمل الثوري اليومي كانت الحبل السري الذي يغذي تجربه تلك. كان صدى الطرقات عاليا جدا، رددته الجدران، الأبواب، الكراسي والكتب، رددته أوراقه وأقلامه، رغيف خبزه وجرعة مائه، سبحته الحمراء وسجائره!! رددته سنوات حياته التسع التي حملت تجربته وأنجبتها، رددته المدينة التي احتضنته

وضمته لصدرها، شوارعها وأحياءها، في بيوتها وأزقتها، مدينه رام الله التي اختفى فيها عن عيون محتليها ليحتمي بها منهم. كان الصدى كأنياب وحش يستعد ليفترسه، أحسه كمطرقة تهوي على رأسه، تهز كل خلية من خلايا دماغه للاستنفار والعمل، تصيح به أن عليه أن: **تصرف بسرعة يا كنعان، قد يكون المحظور وقع. طرقات هذه المرة ليست كالتي كانت قبل سنين عندما تعبوا طرقا ورحلوا. إنها مرحلة جديدة يا كنعان. مواجهة تتطلب تحديا من نمط آخر غير الذي تعيشه منذ سنين، مواجهة-معركة يجب أن تنتصر فيها، لا مجال إلا الانتصار، ليس اقل من الانتصار.**

مرحلة جديدة ومواجهة جديدة، تنطوي صفحات المرحلة السابقة إلا ذاكرته تحفظ اسطرها سطرا سطرا، كشريط سينمائي، يسجل يوميات ماضية.

لحظات الانعطاف في حياة الإنسان لا تنسى بداياتها مهما مر الزمن عليها. فهي تنحفر عميقا في الذاكرة، ترفض مغادرتها، يستعيدها العقل متى شاء. الحب الأول لحظة انعطاف، فهل ينسى الحبيب تلك البدايات مع حبيبته، كلماته الأولى المتلعثمة، رعشة يده عندما لمست يدها، حيرته أين يضع انفه عندما قبلها القبلة الأولى؟ الانخراط في حزب سري لحظة انعطاف ، فهل ينسى أحد الكلمات الأولى لمن عرفه طريق السرية والنضال؟ أين كانا يتمشيان أو يجلسان عندما تحادثا. أول اجتماع سري عقده، أول بيان سري وزعه، أو أول مهمة كلف القيام بها؟ ولادة الطفل الأول عند الأم لحظة انعطاف، فهل تنسى الأم مخاض وآلام الولادة الأولى؟ وعيني وليدها الباكيتين لأول مرة، فمه الكرزي الصغير يمتص حلمة ثديها وقد ألقمته إياها عند رضاعته الأولى؟

كان كانون الأول عام ١٩٨٢ لحظة الانعطاف الكبرى في حياة كنعان. في ليلة باردة موحشة بعتمتها ، عند الساعة العاشرة مساءا جاءه التبليغ:

- رجلك معتقل وقد يعترف، لا تنم في البيت، تدبر أمرك حتى نرى إلى أين ستتجه الأمور.

الحزن يلف البيت بعباءته السوداء، فالموت زار العائلة قبل أسبوع فقط واختطف والده ورحل مخلفا وراءه ليس الحزن فقط بل أعباء عائلية جديدة ألقاها على عاتق كنعان وآمالا لدى والدته بأن يحل محل الراحل!!

- يبدو أن المصائب قررت أن تتكالب سويا، فأي مصادفة تلك؟.

علق كنعان على التبليغ، مستشعرا أياما قاسية في الأفق.

أياما قاسية؟ بل سنين وسنين. بعد تلك الليلة الكانونية الباردة، الموحشة لن يعد بيت عائلتك ينفتح لك، سيحرم عليك أن تتجاوز عتبته! تخرج منه ولا تعد إليه. فالأمور ستتجه لكن للأسوأ! اسمك الذي كان مخفيا عليهم، غدا على الطاولة، ليس الاسم فقط بل والموقع الحزبي والمهام والاتصالات ، لقد اتجهت الأمور للأسوأ وفي الأفق ما لا يمكنك تصوره مهما تسلحت بالقدرة العلمية على استشفاف ملامح مستقبلك.

حالما تلقى التبليغ خرج من البيت عاقدا العزم على أن لا يتردد عليه نهائيا كي لا يقع بين أيديهم. بيوت الطلبة من معارفه كثيرة سواء حول الجامعة أو في المدينتين. كان يقضي عند هذا ليلة وعند ذاك أخرى متنقلا يحمل على كتفه حقيبته الجلدية وفيها كتبه، منامته وعلب احتياطية من سجائره، وخشية أن يكون المحظور وقع ولا يدري كان يتجنب حواجز التفتيش العسكرية بأن يلتف حولها، ينحرف عن الطريق، إن واجه دورية لجيش الاحتلال، واستمر يذهب إلى الجامعة رغم ذلك.

في كانون الأول من كل عام كانت الجامعة تعج بالحركة والتوترات والأنشطة، ففيه الانتخابات السنوية لمجلس طلبتها وفيه ذكرى تأسيس الجبهة الشعبية والتحضير لذكرى الثورة وانطلاقه فتح. لذلك عادة ما تبدو قاعات المحاضرات في كانون الأول شبه خالية، فالكل منهمك إما كنشيط نقابي- سياسي أو كمشارك في جدالات لا تصل إلى نتيجة، جدالات يزداد ضجيجها يوما بعد يوم أو كمستمع أو مراقب لما يجري.

لم يكن كنعان ليشارك ظاهريا في التحضير لأنشطة كانون الأول، فتوجيهات الحزب كانت تلزمه بأن يبقى رأسه خفيضا وانتماءه غير معلن لقطاع واسع. إنما في الواقع فهو ينهمك كل عام مع رفاقه بإقرار ما يجب إقراره ومتابعة ما تقرر إن كان بشأن التحضير للاحتفال بذكرى تأسيس الحزب أو المشاركة بذكرى انطلاقة الثورة وحركة فتح.

لذلك قليلا ما كان يجالس منى في "كوانين" الجامعة. هي دقائق يقضيانها عند تناول الغذاء أو لقاء سريع حول كوب الشاي في مقصف الجامعة الذي كان يعج بأضعاف ما يتسع به من الطلبة وتسمع فيه صخب المتجادلين فيتحول لما يشبه سوق خضار أو خلية نحل. ترى حلقات المتناقشين وقد تحولت لأهرامات : تبدأ الحلقة باثنين لتتسع اكثر فاكثر وعندما يغدو سماع المتجادلين ورؤيتهم متعذرا يبدأ المتجادلون والمستمعون بالزعيق فيصعب التمييز بينهما. عند تلك المرحلة من النقاش يبدأون بالصعود فوق الطاولات والمقاعد، يطل كل واحد من فوق رأس

الآخر حتى يتشكل هرم المتجادلين. ومنى تتبرم كلما رأته وهموم ومشاغل كانون ظاهرة عليه، هندامه مهلهل وعيناه حمراوتان من السهر، زغب ذقنه غير الحليق ظاهر وسيره يدل على إرهاقه.

- ما هذه الهيئة التي تظهر بها؟ ألم ترَ إلى نفسك في المرآة ؟ ملابسك، ذقنك، عيناك كأنك خارج من القبر. رح نم بضع ساعات، غير لباسك واحلق ذقنك.
- أنت تعرفين، انتخابات وانطلاقة وفوق كل ذلك هجمة على المنظمة الحزبية، ورفيق في التحقيق لا ادري هل سيفعلها أم لا !!.
- لا اعتقد انه سيفعلها ويعترف عليك. قالت جازمة بدون أساس! نظر إليها برقة وابتسامة ساخرة تعبه ترتسم على شفتيه، كانت حبيبته تنطق برغبتها وبما تريده وتتمناه.

بعد أسبوع على تركه لبيته دهم المحتلون بيتا ملاصقا لبيت كان يقيم فيه مع بعض الطلبة. حالما سمع صوت جلبتهم عبر الشارع توقع أن يكون مراقبا وكشفوا مكانه ويبحثون في بيوت الحي عنه، لم يتردد، فتح الباب سريعا، وتسلق السور المحيط للبيت، قفز وانطلق يركض بين البيوت المتلاصقة عند أطراف مخيم قدورة باتجاه بيته، كان يريد التأكد إن كانوا دهموا بيت العائلة أم لا. كمن على مبعدة من البيت يراقبه وهو يتستر بالأشجار. عند الساعة الثانية عشر ليلا، نقر على زجاج غرفة نوم أمه:

- أنا كنعان، هل حدث شيء؟

نهضت أمه من سريرها مجزوعة ومتلهفة ولم تكن غفت بعد. أنى لها النوم وقد عرفت من كنعان احتمال مداهمة البيت بحثا عنه! منذ عرفت قدمه طريق السياسة كما قالت له مرارا ومنذ بدأت بساطيرهم تطأ ارض البيت، أضحت أذناها تلتقط أصوات الشاحنات العسكرية فتضطرب لسماعها وما اكثر ما تسمع والبيت يقع على طريق الشاحنات ذاتها!!

- لم يأتوا. ادخل ادخل الدنيا برد. سأضع إبريق الشاي على النار. أين تدور في الليل؟ لن يأتوا، ادخل.

كانت هي الأخرى تتحدث برغبتها بما تريد وتتمناه.

- على أية حال لو كانوا سيأتون لفعلوها قبل الساعة الثانية عشره. لأدخل.

قرر بينه وبين نفسه ودلف باب المطبخ. كان حنينه للنوم وكأس الشاي يقودانه. الذات دائما تستمرئ السكينة والثوري الذي يتركها تقوده وفق رغباتها تقوده أحيانا لحتفه.

نصف ساعة بعد منتصف الليل وبينما يجلس مع أمه وشقيقه يشربون الشاي وعيناه تلتفتان جهة الشارع مضطربة ومتوجسة، وإذ بالجنود يظهرون

نازلين الشارع تجاه البيت. ميز سريعاً ضابطا في المخابرات يسير أمام الجنود. قفز كالملدوغ تجاه باب المطبخ وهو يقول لامه بلهجة سريعة آمرة لكن خافته:
- لا تتركي الكأس الثالثة على حافة النافذة.

حالما دلف من الباب وركض تجاه السور المحيط بالبيت تسلقه والتفت فإذا بالجنود يطوقون البيت قبل اقتحامه، قفز واخذ يركض في حاكورة الجيران صعدا باتجاه التلة المشجرة والمطلة على بيته. صعد فوق شجرة وكمن يرقب البيت. بعد ساعتين من جلسته القرديه فوق الشجرة، تأكد من تركهم البيت فترجل ونزل عائدا. نقر زجاج النافذة من جديد:
- افتحي افتحي.

لم يكن يبغي من عودته إلى البيت سوى توديع أمه ومعرفة كيفيه تصرفهم. هل أساءوا لامه، لشقيقه ولعائلته؟. هل فتشوا البيت، ماذا قالوا؟ أي كافة التفاصيل التي يمكن أن يصوغ منها استنتاجات تنفعه. كانت أمه مضطربة. سينتزعون قطعة من جسدها. ولم ينطل عليها حديثهم المخادع "نريده لخمس دقائق لا اكثر. بضعة أسئلة ويعود إلى البيت". بادرها بالسؤال حالما دخل البيت المعتم عمدا:
- ها ماذا قالوا وكيف تصرفوا؟
- لم يمكثوا طويلا ولم يفتشوا. سألوا عنك وقالوا نريده خمس دقائق نسأله بضعة أسئلة ويعود.

ابتسم كنعان ابتسامه من يقول "إنني افهم" وهزت أمه رأسها دلالة بأنها هي الأخرى تفهم وتابعت تسأل حول الأهم:
- والآن ماذا ستفعل؟ طالما قلت لك طريق السياسة وعر يا كنعان ولم تسمع، تفضل الآن ماذا ستفعل ؟
- أنا لن اسلم نفسي حاليا، وينبغي أن اخرج حالا. رمى جملته الصاعقة كقنبلة في وجه أمه ودون مقدمات أو شروح لا يتسع لها الوقت الحرج.
- بلا هبل أنا قلت لهم انه يدرس ليلا في مكتبة الجامعة فيتأخر وينام هناك. صباحا سلم نفسك والله يسترها. قالت كأنها لم تسمع بجملته القنبلة أولا تريد أن تسمع!
- لا وقت لدي لشروح كثيرة. سأشرح لاحقا، وعندما تهدأ الأحوال سأبعث لك. إنما الآن لن اسلم نفسي.

عبثا ستقتنع، حاجت بلهجة متوترة وأحيانا زاجرة وأخرى مستعطفه وهو يتألم لحالها وحاله في آن! لحظات متوترة وجمل يتقاذفانها سريعا لا تقنع أحدا بشيء. كلمات تتساقط ولا يعيرها الآخر أهمية، كأنها غير موجهه له!

- دعيني اخرج من هنا وأنا مرتاح. لا تغضبي إذ سيتعبني أن ارحل وأنت غاضبة، يجب أن اخرج.

وحسم الأمر بان سارع يعانقها ويقبلها. كان بصعوبة يغالب دمعة مترغرغة في عينيه، قبلته مرتعشة، حنانا وخوفا عليه. ألحت عليه بأن يأخذ نقودا، رفض حسمت هي الأمر على طريقتها بأن دست المال في جيب معطفه الشتوي. أدار ظهره وسار نحو الباب الخلفي. فتح الباب فجاءه صوتها من الخلف:

- رح يا بني. الله يرضى عليك!

خرج يحمل دعاءها الأمومي ليستقبل به حياته الجديدة.

بعد أسبوع تسلم رسالة من الحزب وقرأها بعناية فائقة سطرا سطرا .وكلمه كلمه، فهي لم تكن عادية بكل المقاييس. منظمة الحزب في المنطقة في وسط الاشتباك مع المحتلين وهذا ما غير مجرى حياته. الرسالة تفوح برائحة الاشتباك والمواجهة وتضمنت تقييما لمجريات الهجمة المخابراتية على المنظمة فيما أتبع التقييم بإشارات مسهبة وطويلة حول "أهمية بقاء الرفيق أي رفيق" كما قالت على رأس مهامه وعدم سماحه للاحتلال بأن يحجز طاقاته وصولا إلى تأكيد الحاجة الماسة إلى محترفين يهبون الحزب حياتهم لا سويعات يومهم فقط. في نهايتها جاءت الرسالة على التبليغ الرسمي التالي: **تقرر أن لا تسلم نفسك وان تنتقل للتخفي، للحياة السرية بما تتطلبه تلك الحياة من إجراءات، تحوطات، متطلبات وقواعد ينبغي مراعاتها حرفيا وأولها أن لا تستقبل أحدا وان لا تزر أحدا.**

"أهمية بقاء الرفيق أي رفيق على رأس مهامه" كنعان يدرك أهمية هذا الاستنتاج الحزبي-الأمني المستقى من تجربة الحزب العملية في الوطن، فهجمات المحتلين على منظمات الحزب كانت تعيده للوراء نتيجة انقطاع التجربة وتركيم الخبرات بفعل حشر قادتها داخل السجون والزنازين "إن الحفاظ على تراكم التجربة والخبرة، بالحفاظ على كوادر ومفاصل أساسية، يغدو المدخل لضمان بناء بنية حزبية متنامية الفعالية وراسخة اكثر". قالت الرسالة. مستوى التراكم كان يتطلب بإلحاح أن يبقى الرفيق على رأس مهامه. ففي عام ٨٠-٨١ جرى صياغة وتبرير شعار "حل المسألة التنظيمية" كان قرارا عمليا موجها لأعضاء الحزب بضرورة التركيز أساسا على بناء منظمات حزبية لتغدو بعد بضع سنوات بعد ترسخها، قاعدة ينهض فوقها العمل الحزبي بكافة تفرعاته وأهمها الجماهيري والسياسي والإعلامي والنضالي. وما تحقق في بداية الثمانينات كان ضئيلا إلا انه واعد، فتلك الأنوية الحزبية الحلقية المتفرقة هنا وهناك والمكونة أساسا من طلبة جامعيين ومثقفين وبعض العمال بدأ ينظم عملها قرارا موحدا إلى هذا الحد أو ذاك وان لم تنتظم بعد في شبكه تنظيميه حزبية موحدة. كان الحزب في الوطن يحبو

على أربع كالوليد، ولكنه شرع يتعلم كيف ينتصب. جريدة الحزب تصدر بين فترة وأخرى وان بصورة غير منتظمة ، توجه وتحث وتناقش السياسة التنظيمية بالأساس. تشكلت أنوية لمنظمات نقابية للطلبة والنساء في الجامعات والمعاهد والمدن، فيما عمل الحزب بين عمال الأرياف- ذلك القطاع الواسع- لم يتململ بعد. كانت أنوية المنظمات النقابية قد بدأت تحل محل لجان العمل التطوعي- الأداة الوحيدة تقريبا لتعبئة النشطاء وتوجيههم وتسييس وعيهم في عمل الحزب منذ أواسط السبعينيات، وقد جرى التعامل مع المنظمة النقابية كأداة للتوسع بين الجماهير دون تركيز جدي على برنامجها ومهامها النقابية.

إن متابعة كل ذلك بأفق بناء منظمة حزبية موحدة في الوطن ذات اذرع جماهيرية وسياسية وإعلامية وأنشطة كفاحية بات يتطلب ليس فقط عدم انقطاع التجربة والتراكم بفعل الاعتقال، بل وتربية فريق من القادة والكادرات المحترفة التي تأخذ على عاتقها هموم الحزب والنضال فقط دون شيء آخر، إذ لا حزب ثوري دون فريق المحترفين. فالقناعة كانت راسخة بأن الحزب لا يبنيه الهواة بل المحترفين، وهؤلاء يحملون هموم الثورة منذ البداية إلى النهاية بجموع شخوصهم، فالثورة والحال هذه كالزوجة ترفض الضرة.

وتطورات الصراع مع الاحتلال سنة ٨٢ كانت تدفع بذات الاتجاه، فالثورة وبعد صمود أسطوري بكل المقاييس ونزعة إستشهادية وقتالية بارزة، وجه لها المحتلون ضربة عسكرية قوية أجبرتها لا على ترحيل الآلاف من مقاتليها من لبنان، قاعدة الثورة الأهم إلى أصقاع المنطقة العربية، بل وأيضا الانكفاء في فعلها العسكري من لبنان، كل ذلك دفع للصدارة موضوعة "ثقل الأرض المحتلة" والتي غدت "موضة" بفعل السياسة الخاطئة لفصائل الثورة بإهمال الوطن وبناء ركائز النضال فيه. كانت الثورة في سياستها مستسلمة لحقيقة نشأتها الموضوعية خارج الوطن الأمر الذي قادها لمعاملة الأرض المحتلة لا كساحة النضال الرئيسة بل كموقع هام لا اكثر من الناحية الفعلية. كل التركيز كان على بناء مجموعات صغيرة من الفدائيين التي سرعان ما يتم تصفيتها سواء قبل أن تنشط أو بعد أن تنشط بفترة وجيزة. لم تكن تلك السياسية تستهدف بناء بنية تنظيمية-جماهيرية وسياسية للنضال الوطني وكسياج للعمل العسكري، وهذا ناتج أصلا من كون الثورة اندلعت في الخارج وأجبرت على خوض معارك متواصلة لحماية وجودها الذي أفضى إلى تقصيرها حيال الداخل علاوة على مستوى تطور الفكر السياسي الفلسطيني ومدى نضج تعامله مع التنظيم وأشكال النضال. لذلك توجب أن يدخل النضال مطلع الثمانينيات حتى تبدأ التنظيمات السياسية سباقها وتنافسها لبناء تلك البنية . كان يجب أن تكون الهزيمة العسكرية سنة ٨٢ كجرس يقرع طارحا موضوعة "ثقل الأرض

المحتلة" كموضوع لبناء بنية النضال باعتبار الوطن ليس موقعا هاما بل ساحة النضال الأساسية.

وحزب كنعان الذي كان شرع في هذا البناء سنة ٧٥ سرعان ما محقت المخابرات تجربته الغضة سنة ٧٦ في هجمة شاملة على بنية تشكلت بطريقة إدارية مفتقدة لمنهجية حزبية-علمية في بنائها. اعتقل العشرات وتفككت المنظمات الغضة الضعيفة التي لم تقدر أن تدافع عن نفسها. واستشهد محمد يوسف الخواجا وهو يحمي بدمه منظمته في ٧٦/٦/١ في زنازين التحقيق في سجن رام الله على أيدي رجال المخابرات الإسرائيلية.

شرع بالمحاولة من جديد نهاية السبعينيات ومطلع الثمانينيات ولكن هذه المرة بمنهاجية جديدة تعتبر بناء حزب مسألة سياسية تنظيمية لا موضوعة إدارية. وضمن تلك المنهجية طرحت ضرورة بناء فريق المحترفين من جهة وضرورة الحفاظ على الذات والمفاصل الأساسية خارج قيد الاعتقال وتكريس التقاليد الحزبية كمناخ تربوي للشخصية الحزبية المتسقة.

تسلم كنعان رسالة الحزب وقراره وهو في بيت قريب من الجامعة ينتظر مني لتنهي محاضرتها. سيندس بين الجدران مخلفا وراء ظهره كل تلك النقاشات الصاخبة في الساحة الطلابية داخل الجامعة منذ الاجتياح الإسرائيلي للبنان حتى مناسبات وأنشطة كانون الأول.

منذ الرابع من حزيران ما عادت الجامعة كما كانت. جدرانها تمتلئ بمختلف أنواع الملصقات ابتداء من ملصق الشعار التحريضي مرورا بالبلاغات حول نتائج المعارك وصولا لإعلانات مكتوبة حول الأنشطة التضامنية مع المقاتلين. ما وجدت تلك الجملة الإسرائيلية "أيها المخرب قف وفكر" أثرا لها على مزاج الطلبة السياسي-المعنوي شأنها شأن التصريحات العنترية الفارغة لبيغن وشارون والقادة العسكريين حول تصفية المخربين في ٤٨ ساعة!!

بدأ كل تنظيم في الجامعة يعلق ويعمل كيفما يرى مناسبا، ولكن سرعان ما اصبح النشاط الدعاوي- التضامني موحدا بإشراف مجلس الطلبة. أما الطلبة تلك الكتلة البشرية التي تدوخ رأسها النقاشات التي لا تنتهي ولا تدوخ هي، فقد تحولوا في عشية وضحاها إلى خبراء في الشؤون العسكرية! هذا يفتي في القدرة العسكرية الإسرائيلية وتشكيلاتها القتالية، وذاك يشرح حرب العصابات التي تستخدمها المقاومة، وثالث يملك الجرأة لكي يدلي بدلوه في توزيع وحدات المقاتلين على

المحاور لكونه ملما بجغرافية بيروت وضواحيها!! ففي الحرب يتحول كل المتفرجين لمحللين عسكريين، مثلما كل نزلاء المستشفى أطباء، وكل مساعدي المحامين رجال قانون وكل المعتقلين ضالعين بشؤون المحاكم وسياسات أجهزة التحقيق والقضاء!!.

وما بين الدعاية العسكرية الإسرائيلية الهادفة للتأثير المعنوي السلبي، والدعاية الفلسطينية الفصائلية المتفائلة اكثر من اللازم، كانت جموع الطلبة تسبح، تلتحم بالثانية وتضيف لتفاؤلها تفاؤلا جديدا فتغدو المقاومة الفلسطينية قوة لا تقهر والآلة العسكرية الإسرائيلية نمر من ورق!. ولكن بعد ٣ شهور كان المقاتلون البواسل الذين دافعوا عن شرف الأمة العربية مجبرين على الخروج من بيروت يحملون أسلحتهم الخفيفة فيما ياسر عرفات والقيادة الفلسطينية واثقة من ضمانات المبعوث الأمريكي والذي رتب الانسحاب!!. النتيجة مزدوجة، إنقاذا لمادة الثورة الأساسية ومقاتليها من جهة ومجزرة إسرائيلية-كتائبية بشعة ضد اللاجئين في صبرا وشاتيلا حين قطعت أطراف ورؤوس النساء والشيوخ والأطفال وألقيت في وحل أزقة المخيمين من جهة ثانية!!.

ما اهتز الطلبة ولا الشعب من رؤية الانسحاب-الهزيمة العسكرية. كان لسان حال الجميع طلبة وشعب يقول أينما سألته رأيه:

- الله يعطيهم العافية. عملوا ما عليهم واكثر. ٨٤ يوم محاصرين يقاتلون سادس قوة عسكرية في العالم والعرب يتفرجون. من قاتل مثلهم؟
- أنظمة تزعم الوطنية وتكدس أسلحتها لتقول ساعة المعركة: نحن الذين نختار زمان ومكان المعركة ولا نسمح للإسرائيليين بفرضها علينا. يتناسون أن الجندي لا يختار دائما زمان ومكان معركته وإلا لما حدثت حروب أصلا.
- الإسرائيليون كذابون. وبالتأكيد خسروا الآف الجنود.
- أن ينسحب ١١ الف مقاتل لا يعني الشيء الكثير، في لبنان الطفل يحمل الآر-بي-جي، الثورة لا زالت هناك.
- الآن ستبدأ المقاومة السرية المسلحة. الجبهتان الشعبية والديموقراطية والحزب الشيوعي اللبناني ومنظمة العمل الشيوعي أعلنوا تشكيل "جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية" وبدأوا القتال سيحولون لبنان لفيتنام جديدة.

ما كان الشعب والطلبة منه يدرك النتائج السياسية الخطيرة التي ستترتب على ضرب البنية التحتية العسكرية لـ م.ت.ف، نتائج سرعان ما عبرت عن نفسها:

ريغن أعلن مشروعه غداة الانسحاب الفلسطيني مباشرة. أدار الشعب وقواه ظهره للمشروع إذ رأى فيه محقا حضادا سياسيا للنتائج العسكرية مع أن القيادة الرسمية في م.ت.ف حددت موقفها منه وفق منطق "العم" الوسطي المغازل.

الحزب أصدر بعد حوالي ٥ شهور على الانسحاب تعميما صادرا عن اجتماع اللجنة المركزية تناول من جملة ما تناوله الأرض المحتلة في إشارات سريعة لدورها المستقبلي المناط بها بعد تدمير البنية التحتية لـ م.ت.ف بما يتوافق مع التوجهات في الوطن لبناء بنية تنظيمية موحدة وراسخة.

كان ينتظر ظهور منى على أحر من الجمر. أحس أن المحاضرة استغرقت دهرا بأكمله. كيف ستتصرف؟ منذ أن جاءه التبليغ الحزبي بالتحوط على نفسه والسؤال يلح عليه: كيف ستتصرف؟. يفكر فيها فيتذكر سنيهم الثلاثة معا. ففي عام ٧٩ التقاها.

١

في ذلك العام وقعت عيناه عليها وهو يحاضر حول زيارة كارتر للمنطقة. ما تمكن أن يشيح ببصره عنها فأخذت كلماته تتدلق من فمه بتلعثم اربكه فوق ارتباكه!. كانت تنظر إليه وهي مندسة بين صفوف المستمعين. نظراتها تنغرس فيه وعقلها لا يتابع ما يقول.

- ما اسمها؟
- منى. أجاب صديقه.
- هل لديها رقم تلفون في البيت؟
- لا ادري سأفحص سجلات عضوية النادي.
- في نفس اليوم اتصل بها ودعاها للقائه.
- كيف يخطر ببالك أن تتصل وتخترع ما اخترعت من ألاعيب لتحدثني؟ ألم تتوقع أن أقول لا.

سألته والخجل والارتباك يلفها من رأسها حتى أخمص قدميها! حاله ليس أفضل من حالها، إنما هو منطق الطبيعة وندائها يزيح من أمامه كل ما يعيق جانبا. كانا يجلسان على حافة حوض نافورة الماء في حديقة النادي. بنطال الجينز وقميصها الأبيض أظهرا قوامها الممشوق بكامل هيئته.

- أردت أن أراك وأحادثك. منذ رأيتك أفكر فيك. أنت أيضا عيناك قالت لي الكثير، أليس كذلك؟

لفها الخجل وما ردت. انتقلا لحديث لا معنى له، من هنا قضية ومن هناك إشارة، كل يحاول أن يتكلم كيفما اتفق ليقتل صمت الخجل الذي ران على أجوائهما. كان

الاثنان يحبوان كل باتجاه الآخر. ما تعلما بعد أن يتقدمان بل يحبوان فحسب. وفي نهاية اللقاء اتفقا على لقاء آخر.

٣

ينهي الحصة الأخيرة يوم الثلاثاء في المدرسة الثانوية ويسرع للبيت. يستحم ويستعد سريعا، يحلق ذقنه وينطلق للجامعة للقائها عند الثانية. يوم الثلاثاء من كل أسبوع كان يومهما لسنة كاملة. عادة ما يجدها تجلس عند باب المقصف مع الطلبة، تكون في انتظاره ولا تظهر ذلك!!. تشارك في الحديث مع المحيطين لماما فيما نظراتها تجاه الممر المؤدي للمقصف. يصل ويقعد فتستمر بالتظاهر بان لا أحدا قدم لتوه. خجلها من عاطفتها، خوفها من الجديد الآتي، رهبتها من أنوثتها المتململة داخلها، كل ذلك استوطن فيها.

- منذ شهور ونحن نلتقي، الثلاثاء يومي المقدس، وأنت؟ أين أنت؟.
- أنت تأتي وأنا هنا. قالت مرتبكة.
- هذا هو؟.

٣

كلما التقاها تعلق بها اكثر. خجلها رآه رقة تأسره. خوفها نتاج عزلتها وتجربة الحياة ودوره يتكفلان به. رغبتها ستكسر عنق الزجاجة فالأنوثة لا تحتبس للأبد.

- جلبت لك كتبا لتقرئين. سأشرح لك ما تجدين صعوبة في فهمه.
- الشباب هنا يشرحون لي كثيرا ومن أجلك أقرأ وأهتم بما يجري.

كانت الجامعة حينها تتشكل كبؤرة للعمل الوطني في الأرض المحتلة. كل شيء فيها يتم تسييسه، العمل النقابي، العلاقات الاجتماعية وحتى تجمع بضعة طلبة للدراسة معا!!!. الطلبة يتكتلون حول التنظيمات التي بدأت منافسة شديدة على عقول وميول الطلبة في أجواء من الصراع الفكري الديمقراطي بين البرامج والأراء. وما ساعد على تسريع ذلك التشكل أن سياسة الدعم الواسعة للطلبة غيرت من الخلفيات الاجتماعية للطلبة فتحولت من جامعة لأبناء الفئات البرجوازية إلى جامعة يتدفق عليها المئات سنويا من أبناء المخيمات والأرياف، أبناء الفئات الشعبية والاجتماعية الفقيرة. استثمرت التنظيمات السياسية لحركة المقاومة ذلك المتغير سريعا فأوفدت العشرات من المحررين من السجون لتبدأ الخلايا التنظيمية السرية بالانتشار وسط الطلبة كانتشار النار في الهشيم، فبدأت بالظهور الكتل النقابية كواجهات للتنظيمات لتتحول لاحقا إلى منظمات ديموقراطية للطلبة. لم تكن جامعة بير زيت بؤرة للنضال والتنظيم السياسي فحسب، بل نموذج لمجتمع منفتح، عصري، لا يعرف الانغلاق بل ينفتح على الجديد ويتقبل الرأي فيه الرأي الآخر،

مجتمع ينشط فيه الصراع بين كافة التلاوين-القومية-البرجوازية واليسارية والدينية والشيوعية حتى التروتسكية كان هناك من يرفع رايتها وان لم يتحلق حولها أحد، والعبثيون المأخوذون بالحياة على الطريقة الأوروبية الفوضوية التفوا حول بعضهم كحلقة لا تثير سوى التكدر.

في موسم الانتخابات السنوية في أجواء التطورات السياسية العاصفة، عند توزيع كتاب ممنوع، قراءة تصريح لقائد، سرعان ما يبدأ الصراع والجدل. إن الجامعة وان كان يظهر في ممارسات حركتها الطلابية الكثير من النزق إلا أن هذه السمة الملازمة للطلبة ما هتكت الطابع العام للمؤسسة كمعقل للنضال الوطني وكساحة للصراع والجدال الفكري-الديموقراطي. كل ذلك شكل التربة لبداية تشكل شريحة من الطلبة السياسيين والمناضلين يعول عليهم أن يلعبوا دورا على مستوى وطني عام في قادم السنين في مجمل التركيبة الحزبية والسياسية لشعب الوطن.

من عاش أجواء الجامعة في بداية الثمانينيات ووهبها نفسه فقد كان محظوظا، إذ كان عاش المتمردون بين جدرانها، تمرد على الاحتلال، على العرف السائد فيختلط في حياته الانتماء التنظيمي السري مع الحب مع أغاني الشيخ إمام ومارسيل خليفة مع كتب لينين ونوال السعداوي وهشام شرابي وجيفارا، مع كل السلوك الطلابي المتناقض مع ما هو تقليدي ولو لمجرد أن يناقض فحسب.

كان يسعى رويدا رويدا لجذب مني لتلك الأجواء بديلا لمدرستها وتربية راهباتها اللواتي نذرن أنفسهن لكسب الآخرة لا الدنيا، وبديلا لعائلتها التي كأغلب عائلات فلسطين لا توفر سوى ظروف سحق الشخصية وتهميشها! وهي كانت تتزحزح ببطء شديد وبخوف يكبلها.

٤

جلسا على أحد المقاعد الحجرية تحت شجرة سرو في ساحة عمارة التدريس. كأنها قد خصصت للمحبين، هكذا تم الاتفاق عليها إذ نادرا ما تجد من يتطاول على هذا التصنيف فيتعدى على حقوق الملكية على المقاعد! كان يسمى المقاعد تلك "مقاعد التمرد على العرف".

- أنت غير كل مرة. قال وهو يتأمل عينيها الناعستين.
- كيف يعني؟ ابتسمت مندهشة.
- متألقة وكل ما فيك يضحك.
- سعيدة. اشتقت لك. كنت انتظر يوم الثلاثاء.

- لو تمكنت لجئت كل يوم. أنت تعلمين المدرسة حتى الظهر، وبعدها لي مشاغلي.
- أنت حزبي أليس كذلك؟

قالتها بسرعة دون أية مقدمات وكأنها تتحدث فيما هو بديهي وعادي لا بما هو سري، انكشافه يقود إلى سنوات سجن!

- ما أدراك؟ لم أعلن أمامك عن انتماء. أنت تعرفين قناعات فحسب.
- أنا افهم ما يجري حولي. لست بحاجة لان تكشف لي!.

حدثها عن الحزب كثيرا دون أن يصرح انه عضو فيه. كانت تؤيد الحزب وتدعمه في أنشطته ومواقفه. عضوات الحزب يهتممن بها، يجالسنها ويناقشنها كما طلب كنعان منهن.

- عندما أفكر فيك أخاف من المستقبل. أهلي لن يوافقوا على ارتباطي بواحد مثلك. أنت معروف لهم. منذ زرت أخي مرة تغير حاله، أخذ يسمع الشيخ إمام ويشتري الكتب وأبي يقول "كنعان مثل الجرثومة، دخل لينين لبيتي".

أخذت تضحك وهي تقلد صوت أبيها ثم أردفت:

- منذ متى وأنت تسمع الشيخ إمام.
- منذ أن أصبحت من جماعة "يا عمال العالم اتحدوا" سنة ٧٥. على أية حال من المبكر أن تفكري بالأهل. أمامنا سنين دراسة وبعدها نرى. لا تقدري البلاء قبل حدوثه، أنا معك فلا تخافي شيئا.

تطلعت إليه بلهفة وقالت مغيرة مجرى الحديث:

- كثيرون من الطلبة الجدد يؤيدونكم. أحاول أن استميل بعضهم.
- يؤيدونكم؟ حسبتك واحدة منا؟ لماذا تستميلينهم إن لم تكوني منا؟

رد باستهجان وأسف وسكتت وهي خجلة.

٥

- تعرفين إنني احبك وقلتها اكثر من مرة. سنه ونحن نلتقي ونتجالس وما بيننا أراه كثيرا ولكنك ما صرحت مرة بمشاعرك.
- أخاف ، لا تتضايق مني. لا تتوتر. أرجوك ها نحن معا في الجامعة، دائما مع بعضنا فماذا بعد؟
- ماذا بعد؟ لم يضبط انفعاله كليا. وتابع: من حقي أن اعرف مشاعرك، موقفك. هل نحن مرتبطان بما هو خاص بيننا أم ماذا؟
- مرتبطان. نطقت بها أخيرا.
- على أي أساس؟. كان كأنه يستجديها، ينتزع اعترافا بحبها له.
- على الأساس الذي تريد.

قالت بصوت خفيض متلعثم، اعترفت فعلا وما فعلت لفظا. ابتسم وتحركت يده لتلتقط يدها من تحت الطاولة في المطعم. سرت في أوصالهما قشعريرة الرغبة الدفينه.

٦

- هاك الجريدة السرية، حالما تنهى منها أتلفيها بالحرق. لا تدعي أحدا يراها.

دستها في حقيبة كتبها وسارا ناحية مقعدهما تحت شجرة السرو.

- ما رأيك هل تنجحون في الحوارات لتشكيل كتلة وطنية موحدة؟

تطلع إليها بغضب لم تفهم سببه.

- سأتجاوز لفظة "تنجحون" بدلا من "تنجح" وكأنك من عالم آخر غير عالمنا. سننجح بالنهاية. لا مجال إلا أن ننجح إذ من العار أن لا تسيطر م.ت.ف على المجلس الطلابي. فوز الكتلة الإسلامية يعني شل المجلس ومنعه من مصادمة الاحتلال حيث الاتجاه السياسي الإسلامي لم ينخرط في النضال بعد. المناطحة كالعادة بيننا وبين فتح. الشيوعيون نفوذهم تراجع فيما الديموقراطية قليلة العدد. حتى لو أحيل الموضوع إلى جورج حبش وياسر عرفات، فلا يمكن أن نسمح لغير م.ت.ف بأن تصل إلى المجلس.

- من أين "نبزت" لنا الكتلة الإسلامية؟ سألت باستنكار

- لهم وجود شعبي كتيار من بين التيارات الموجودة ولكنه يدعم كثيرا من أموال السعودية ورابطة العالم الإسلامي. الأموال تأتيهم عبر الأردن وبمعرفة الحكومة الأردنية، وتسير حتى تصل للمجمع الإسلامي في غزة وبمعرفة الإسرائيليين. هذا ثمن وقوفهم ضد المقاومة و م.ت.ف واليسار. هل قرأت كتابهم الذي وزعوه أخيرا "الوطنية ومفهومها"؟

- لا. لقد حرق الشباب النسخ في الساحة ولم يعودوا لتوزيعه.

- من الطبيعي أن لا يعودوا لتوزيعه فهو يشكل فضيحة لهم وكان من الغباء أن يوزعوه. يعتبرون الوطنية "غريزة حيوانية" جلبناها من الغرب الصليبي، أما فلسطين فهي كما يقول الكتاب نقطة لا ترى على الخريطة، يهبها الله لمن يشاء! طبعا هناك اثر ثورة إيران وقصوراتنا نحن وسياسات أبو عمار، كل ذلك شكل تربة خصبة لوجودهم، طالما لا يناضلون ضد الاحتلال فسيظلون معزولين وموضع اتهام. ويصبحون خطرا إن تفتتت الوحدة وهذا نأخذه بعين الإعتبار فالجامعة صرح تعليمي وديمقراطي وعصري لا يحتمل أن يتسلم مجلسها من يتبنى أطروحات من نمط "الإدارة الصليبية، فصل الطلاب عن الطالبات في المقصف وقاعات محاضرات والمختبرات، إلغاء برامج الدراسات الثقافية..." إلى باقي المعزوفة التي لا تنتمي للعصر.

٧

- سنجد طريقة. سندقق في قانون الجامعة ونراجع التسجيل ونجد طريقة.

قال يهدئ من روعها إذ تسلمت إشعارا ينذرها بالفصل من الجامعة. بكت وهي تلقي برأسها على صدره وهما جالسان في بيته. كانت اهتماماتها السياسية ونشاطها النقابي المحدودين على أية حال قد الحقا الضرر بدراستها شأن العديدين الذين لا ينجحون بحمل اكثر من بطيخة في يد. من تخصص دراسي تدحرجت إلى آخر وها هي الآن مهددة بالفصل وقد تتدحرج إلى تخصص ثالث. لم تتحمل ذلك وهي الحاصلة على ٨٦% في امتحان شهادة الدراسة الثانوية.

- نشاطي في الجامعة أضر بدراستي.
- كثيرون غيرك ينشطون اكثر منك ويتحملون مسئوليات عديدة ويحصلون على معدلات امتياز أيضا.
- أنا انقلبت أموري رأسا على عقب. قالت تندب حظها.
- سنجد حلا. إهدأي. غدا اطلبي قانون الجامعة وابحثي فيه جيدا، المهم رتبي أمورك كي نذهب لاحتفالنا بعيد العمال في المدرسة العمرية في القدس.
- أخشى أن نتأخر.
- لاقي طريقة لإقناع اهلك. قولي لهم ستدرسين في المكتبة.

ذهبت للاحتفال وتأخرت. وبعد أسبوع تدحرجت لتخصص ثالث وأنقذت دراستها.

٨

ما وجدت السياسة طريقها لتمتلك عليها تفكيرها أما النضال فبقي قشرة خارجية لإضفاء جمالية ما، أشبه بأحمر الشفاه! بقيت ترتبط بالسياسة والنضال لارتباطها بكنعان وبحكم الموضة الدارجة آنذاك. إذ يجب أن تصنف تصنيفا ما، إما هؤلاء وإما أولئك، لا منطقة وسطى عائمة. هي صديقة كنعان وهو معروف لها ولمعارفها مع من، إذن هي من جماعته. كانت ملتزمة من الناحية الموضوعية بالتبعية النسائية للرجال كنهج اجتماعي سائد، فالنساء على دين رجالهن بغض النظر عن دين الاخيرين! أما المرأة التي تخرق هذه القاعدة فهي حالة استثنائية لا اكثر. لم تكن منى لتستطيع أن تكون الاستثناء بما يتطلبه من تحدٍ وقوة واستقلالية شخصية متميزة عصرية. ثلاثة أنواع من الانتماءات طبعت سلوك الطلبة، أولهما انتماء نشط وفاعل صادر عن قناعة عقائدية راسخة، وهذا انتماء يستمر مع صاحبه نشاطا ما بعد الحياة الجامعية، في الحياة الاجتماعية الأوسع. ثانيهما انتماء على سبيل الموضة الدارجة، تشكل الحياة الجامعية الصاخبة والتي تعج بالجديد التربة الخصبة لهذا الانتماء الذي جرى تسميته من قبل طلبة الانتماء الأول بانتماء "الثورة حتى التخرج". ثالثهما كان الانتماء بالتبعية لحبيب، صديق، قريب إما أن يستمر

بعد انتـهاء الحياة الجامعيـة إن استمرت علاقـة التبعيـة أو يتجـذر فيتحـول لانتمـاء عقائدي مع التجزبة أو يؤول مآله إلى رفع شعار "الثورة حتى التخرج".

٩

- كيف أصبت بالجنون وأحببتك؟ ماذا دهاني لأذهب لمحـاضرتك مثل هـذا اليـوم قبل ثلاثة سنين؟.

قالت تسأل نفسها بصوت مسموع ورأسها ينام مستسلما على كتفه. يد تطوق رقبتـها والأخرى تمرر أصابعها بانسياب لذيذ فوق وجهها كأنها تكتشفه للمرة الأولـى. كـان يسترخي كعازف بيـانو يعزف لحنـا رقيقـا، هادئـا ويـرى نفسـه محلقـا فـي الفضـاء اللانهائي. كانا في ذلك اليوم كأن لا أحد غيرهما في العالم، يجمعهما حـب وضحـك وقبـلات ونبيـذ ووئـام طفولـي بعـد مشـاحنات. يـهرب إليـها مـن السياسـة والحـزب والبيوت السرية وقصاصات الأوراق والجدالات، من الدراسة والكتب والامتحانـات التـي لا تنتـهي، وتـهرب إليـه مـن رقابـة متسلطة تسحقها ومـن كلمـات مدرسـاتها المترهبات المحفورة في رأسها، كلمات تقرع جرس الخطيئـة الصـديء كلمـا رنـت لأنوثتـها تطلبـها، فيجـدان المـلاذ فـي دفـء عنـاق محمـوم ولـذة سـرية يختطفانـها لساعات كل اسـبوع. يديـر هـو ظـهره لعالمـه الملـيء بالتفـاصيل اليوميـة المرهقـة، وتحطم هي جرس الخطيئة، ساعات من كل أسـبوع يعيشـانها كـأن لا أحـد غيرهمـا على الأرض، ينتزع الواحد الطفل في الآخر فلا يظل سوى الطبيعة، منها كان البدء واليها تكون العودة ولو لساعات بائسات.

- الحب في حياتنا جنون. كلانـا أصيـب بـه. فـي حياتنـا النضـال جنـون وأن نحيـا كبشر يعني أن نجن ولا ألذ من التمرد المجنون!. وقبلها بحرارة.

ينتظرها عند نافذة بيته لتنهـي محاضراتها وتأتيه. لم يكن رآها منذ أسـبوع، منـذ دهمـوا بيتـه. أسـبوع كـان خلالـه يتقـافز مـن مكـان لآخـر تملصـا مـن عيونـهم ومداهماتهم حتى يدبر الحزب ترتيباته لإيوائه. كان الاشتياق لها يلح عليه كـل ثانيـة في الأسبوع ذاك. كان يطلبها، يشتهيها، بعقله، بوجدانه بكل أحاسيسـه يوميـا. يسـأل عنها ليطمئن، فهي مرتبطة به رسميا منذ شـهور وهـذا تعرفـه المدينـة والطلبـة مـن معارفـهما. جاءتـه لاهثـة مسـرعة كـان وجهـها ينضـح باشـتياقها ورغبتـها. كـانت مسرعة كأنها تخشى أن تفقده وتخسر لقائها معـه للابـد. تعانقـا طويـلا عناقـا حـارا. عصر خصرها الخميص بقوة بين يديـه، قبلـها بلهفـة ومثلـه كـانت ملهوفـة. بادرتـه بعتاب رقيق:

- اشتقت لك كثيرا يا لئيم. لماذا تفعل ذلك بي؟ كعادتك لا تهتم بحبيبتك.

داعب شعرها، أجلسها بقربه وحضنها. ألقت برأسها على كتفه مطمئنة.

- لم استطع أن أراك لمصلحتك ومصلحتي، لا تنسي أنني مطلوب وكل خطوة محسوبة.
- كيف عشت الأسبوع الماضي؟.

قالت برقة مظهرة تعاطفها ويدها تضغط على صدره.

- متنقلا هنا وهناك، من بيت لآخر. أتملص من الرقابة والمداهمات.
- إلى متى سيستمر هذا؟. سألت بجدية.
- حتى أن تتم ترتيبات معينه.
- ماذا تعني بترتيبات معينه؟ متى سأراك ثانية؟. انطلقت أسئلتها والحيرة تلفها.
- ترتيبات معينة اعني بها بيت سري ثابت وأمين، لا يعرفه أحد إلا القلائل ويصعب عليهم أن يصلوه. أما لقاؤنا ثانية فمرهون بموقفك من وضعي الجديد؟.

أزاحت رأسها عن كتفه واعتدلت في جلستها:

- لا افهم شيئا، بيت سري ثابت حتى لا يصلوه، موقفي، وضعك الجديد، ما كل هذه الألغاز؟

كان يدرك أن ليس من السهولة أن يشرح لها. فهي لن تستوعب ما سيقال لها على أية حال. يخمن خاتمة الحوار، يتوقع خاتمة حبه، علاقتهما. حاول أن يفهمها بهدوء لكن دون أن يصدمها. حاول أن يفهمها أن عليها أن تتقبل تغيير مجرى حياته، علاقتها به مائة وثمانون درجة، لان حياته دارت أيضا مئة وثمانون درجة! لكن أنى له ذلك؟ حاول أن يقول ما يجب أن يقال. مال إليها، قبل جبينها برقة:

- منى إفهميني جيدا. تغيير جذري سيطال حياتي وبالتالي حياتنا معا، علاقتنا. أنا لن اسلم نفسي، سأعيش حياه سرية لا يعرف عنها أحد. لا أريد أن يحجزوا طاقتي، لا فائدة من ذهابي للمعتقل، دوري تحدد وفق هذه الترتيبة. أراك في حياتي الجديدة اكثر من صديقه واكثر من حبيبه. كل شيء أراك. سند لي مثلما أنا سند لك.

كانت وهي تسمع كلماته مشدوهة تفغر فاها، مصعوقة لا تصدق ما تسمع، كما ظهر من ملامح وجهها. آلمه أن يرى وجهها الجميل هكذا. كان يتمزق، ولكنه كان يدرك أن ما يفعله صحيح. كانت صيحة العقل حاضرة "لا يصح إلا الصحيح"، رغم كارثية نتائجها.

- لا افهم. لماذا أنت بالذات؟ الكل يسلم نفسه. هل الاعتراف عليك كبير لهذا الحد؟ لا افهم. أين أنا من ترتيباتك؟ لماذا تهملني؟.

لست وحدك التي لن تفهم ما يجري. كل من عرفني لن يفهم. كل رفاقي لن يفهموا أنا أعذرك يا حبيبتي فما سأخوض جديد، أنا نفسي لا افهم كيف سيكون في تفاصيله، أعذرك فما أخوضه غير مفهوم بل ومجنون.

- المسألة لا شأن لها بحجم الاعتراف علي كبير أم صغير. إنها مسألة اختيار حياة التفرغ للنضال بعيدا عن عيونهم وسجونهم. نهج جديد وتجربة جديدة . أما لماذا أنا بالذات فتلك كانت تطورات الهجمة، وصلتني من حيث لم أتوقع. أنا لم احدد خط سير الإعتقالات والاعترافات ودائما هناك للمرة الأولى. احسبيني أنا المرة الأولى.
- وأنا؟ صرخت بحرقة فيما بدأت دموعها تنسكب من عينيها:
- ومشاريعنا؟ تكملة تحصيلنا العلمي، الزواج، الأطفال الذي تريد أن تلاعبهم عراة. نسيت كل هذا؟ نسيت أننا مخطوبين، هل سأرتبط بمجهول؟. مسح دموعها بإبهامه. أخذ رأسها بين راحتي يديه وقرب وجهها منه:
- أنت في القلب والعقل. منى التي تلعثمت عندما رأيتها للمرة الأولى. أتذكرين؟ تعلقت بك منذ وقعت عيناي عليك. سنبقى معا. أنت لي وأنا لك. بالنسبة لك أنا موجود مجهولا للاحتلال وللناس لكن لك موجود. نلتقي ونحب ونحيا. مشاريعنا ستتأجل ولسنا أول اثنين تعاندهما الحياة. حبنا سيغدو فريدا في نوعه، ليس تقليديا بل متميزا، ألا تتطلعين إلى حب فريد وعلاقة مميزة في تجربة فريدة وجديدة من نوعها؟.
- أنا لا أستطيع، أهلي والناس. تابعت وهي باكية.
- لا تبكين رجاء. وقال مازحا: كالعادة تسعين للتأثير على موقفي بدموعك تعرفين أنني لا أتحمل أن أراك تبكين. حاول بمزاحه أن يخفف من احتقانها ومن الأجواء التي خلفها الحديث.
- لا أستطيع. ماذا سأقول لأهلي. من غير ذلك هم يكرهونك. سياسي وركعوا أخيرا أما أن لا تظهر فماذا سأقول لهم؟ سيأكلون لحمي بضغوطهم ؟
- دعك من الأهل ولو لمرة واحدة، قرري مرة واحدة دون أن تضعي سيف الأهل على رقبتك. أنا موجود وكذلك الحزب والرفاق، نسندك أمام ضغط الأهل. فماذا تريدين أكثر، اهلك قولي لهم كلمة واحدة: خطيبي وأحبه عندما يظهر سنتزوج.
- أنت تبسط الأمور اكثر من اللازم. تعودت ذلك معي. تبهت المشاكل. تبسط ما هو معقد فتلك عادتك.
- وكعادتي أقول: الأمور بسيطة ولكنها تحتاج إلى إرادتك لقرارك. تسلحي بالإرادة فهي تبسط كثيرا ما يبدو معقدا، تجعل ما يبدو مستحيلا ممكنا.
- لا أستطيع، لا أستطيع.
- بل تستطيعين. قالها بلهجة محمومة وقبل جبينها ومسح دموعها.

- إلى متى سيتظل تعيش هكذا بسرية، مفقود؟ حتى تحرير فلسطين؟.
سألت بسخرية ظاهرة ولم يعر ذلك اهتماما، كان يتفهم صعوبة موقفها.
- لا اعرف. وعلى العموم هذا سؤال مبكر جدا.
- قل سنة، سنتين، مائة ولكن لا تقل لا اعرف. هل سأعيش هكذا لا اعرف شيئا عن مستقبلي معك، خفف عني بعض الشيء، على الأقل تحدث عن مدة.
- أنا لا املك تحديد مدة، صدقيني لو تمكنت لفعلت ولكني لا أستطيع، لن اضحك عليك إذ أقول سنة أو سنتين ثم أدير ظهري للرقم، احتياجات الحزب، قدراتي، إمكانات الحزب، وضعنا عموما هو الذي سيحدد. لا املك المتغيرات والمجاهيل بين يدي.
- وأنا، مستقبلي؟
- مستقبلك معي. نحن مرتبطان وهذا هو مستقبلنا. أما أن يتحول لزواج بعد سنة، سنتين، عشرة فذاك ثانوي. المهم إننا مرتبطان. أليس هذا مستقبلنا؟.
- ليس هذا ما اتفقنا عليه، كنا سنتزوج بعد سنتين. لقد تخليت عني.
- دعينا من هذا الحديث لأنه سيطول. يتخلى عن الآخر من يتركه لحظة احتياجه له. ليس من معنى للحب أن لا يسند الواحد الآخر في صعوباته. أنت تحبين في زمن السلم وتهربين في زمن الاشتباك. دعك من الحديث عن التخلي. فلقد عرفتني جيدا وعرفت ما هو النضال بالنسبة لي. أنا لست بهاو.
- لم اعرف أن الأمور ستصل لهذا الحد. أنت مجنون، مصيبتي أنني أحببتك.
- وهل ذنبي انك حددت سقفا لنضالي؟ أنا شخصيا إن شعرت أن سقفا سينبني فوق رأسي سأهدمه حالا. إنني أسعى لان لا يكون مدايات لانحيازي. أن لا يكون سقف لنضالي.
- لا أستطيع... لا أستطيع. احبك لكنني لا أستطيع. يجب أن تقرر إما أنا وأما الحزب.
ضبط انفعاله كي لا يصيح بوجهها وقال بهدوء وجد صعوبة في تمثله:
- تواضعي قليلا ولا تتحاملي. من أنت بالنهاية حتى تضعي نفسك في كفه والحزب في كفه. الحزب الاف المناضلين، الاف المعتقلين، الاف الشهداء. الحزب رسالة تاريخية ودماء تسيل، فهل تضعين نفسك مقابل كل ذلك؟ إن كان لا بد من انتهاء علاقتنا فلتنتهي بهدوء دون أن نسيء لبعضنا. لك خيارك أفهم أسبابه ولا أتفهمها. لي خياري أرجو أن تتفهميه لا أن تفهميه فحسب.
- أنا لا اصلح لك. ليزوجك الحزب من فدائية تستطيع تحمل حياتك واختياراتك.

قالت جملتها الأخيرة ساخرة تخفي خلفها نقمتها على خياره. عانقها عند الباب مودعا وقبلها بسرعة:

- لا أقول وداعا بل لنقل إلى اللقاء. هزت رأسها موافقة، احتفظي بخاتم الخطوبة للذكرى (نزعه من أصبعه وأعطاها إياه)، دققي في قراراتك في الحياة. أخشى أن تدفعي غاليا لخيارات غير محسوبة جيدا.

قال لها كلماته الأخيرة مستشعرا أنها ستدخل نفسها في شرنقة من الحياة التقليدية التي لا تليق بها كمتعلمة، مشفقا عليها من خيارها البائس، خيار الاستقرار الزوجي الحياتي الشرعي ولو على حساب حبها ومن أحبها. دمعت عيناها من جديد عندما أوصلها للباب، كادت دمعة تسيل من عينيه، لم يحتمل ذلك، سارع لفتح الباب، خرجت منه ومن حياته.

جلس على الأريكة ولا يدري ماذا يفعل. الليلة سيرحل لبيت سري. عاد وفتح رسالة الحزب: "إجراءات، تحوطات، متطلبات وقواعد" سمع بها وعنها، تحدث الحزب معه مرارا عنها. كانت في الرساله كلمات مكثفة، مجردة، صماء، تقريرية وجافة. لم يدرك كنعان حينها معناها الحقيقي، تجسيدها اليومي كما سيظهر في حياته وعلى جلده. عليه أن ينتظر شهورا طويلة. سيعاني شهورا حتى تكشف تلك الكلمات عن نفسها تماما، حتى تكتسي لحما فتصبح واقعية وملموسة، واقعية وملموسية أيامه وساعاته، حينها وحينها فقط سيعلق "الحكي مش مثل الشوف".

عندما قرأ في الرسالة ذلك الأمر الصريح بخشونته "لا تستقبل أحدا ولا تزر أحدا" أخذته حلاوة المغامرة، فرادتها، وتميزها، رأى نفسه يتحدى جهازا بأكمله، قوي ومحنك وقادر. سيبحثون ويبحثون ولن يجدوه، فإجراءاته السرية محكمة لن يعرف أحد عنه شيئا سوى أحاد موثوقين وهذا سيدوخهم. وبالنهاية سيكفون، يستسلمون، فأي متعة اكثر من هزيمة الجهاز الذي طالما تبجح بنجاحه بتفكيك الخلايا السرية في الوطن! . كان كنعان مأخوذا بحلاوة المغامرة، فرادتها، تميزها!!.

تسلم مفتاح بيته السري وبدأ رحلته. مساءا في أحد الشوارع المنزوية بعيدا عن الضوضاء جرى لقاؤه السري مع رفيق له بعد أن تعارفا بكلمة متفق عليها حسب الترتيب الذي أوردته الرسالة الأخيرة. لم يستمر اللقاء طويلا، كالعادة في هكذا لقاءات الإيجاز والتكثيف هما لغة الحديث. كلمة والرد غطاءها.

- هاك العنوان، كل شيء مجهز في البيت، ملابس وغذاء وراديو صغير. صاحبة البيت أم عيسى تدس انفها بكل شيء، هي نموذج العجوز الشمطاء. يجب أن لا تراك. لا تصدر صوتا يكشف وجودك في البيت، لا تفتح لها إن طرقت الباب. أهملها. نحن نتكفل بأمرها إن أثارت أسئلة. سنحضر لك تلفاز صغير بعد أيام.

سيفيدك، اقرأ واكتب، لا تفعل شيئا غير أن تقرأ وتكتب. اعتن بصحتك وتغذى جيدا. مهامك وعملك ننظر بهما لاحقا، المهم الآن أن ينسى اسمك.

لن ينسى الاسم بسهولة، فمنذ أسبوع يبحثون عنه. دهموا بيت عائلته يوميا، هددوا وتوعدوا :(إن لم يسلم لنا نفسه غدا، سنجده نحن ونقتله. إن حاول أن يعبر الحدود سنعتقله أو نقتله ونريحك منه. صورته معنا وحدودنا لا ينجح أحد بالتسلل عبرها. أقنعيه أن يسلم نفسه كي لا تفقديه) كانوا يضيفون بمداهماتهم توترا جديدا لأمه فوق توترها. كانت لا ترد سوى بجمل تتكرر عند كل مداهمة (لا اعرف مكانه حتى أقنعه بشيء. هو اعلم بما يفعل عندما تجدونه اخبروني). كانت كعادتها معهم متماسكة ورابطة الجأش. وضعوا حواجز التفتيش على مداخل الجامعة ودققوا ببطاقات الهويات الشخصية للطلبة مؤملين أن يلتقطوه، دهموا بيوتا للطلبة فكان أذكى منهم، عرف أين سيبحثون فلم يتردد على الأماكن التي توقع مداهمتها أو قد تكون عرضة لرقابة عيونهم. استخدموا الخديعة لمعرفة مكانه واعتقاله. بعد أيام على مداهمة بيته وبينما كانت أمه الثكلى بابيه والمنكوبه به جالسة عند العصر، إذ بالباب تدق. فتحت واذ بامرأة تبدو وقد جاوزت الخمسين، ترتدي ثوبا شعبيا اسودا، محنية الظهر. قالت وهي تخفض رأسها دون أن تنظر لها:

- هل هذا بيت أم كنعان؟
- هو. من أنت وماذا تريدين؟ سألت أمه بارتياب.
- الحقي ابنك يا أختي، معه نزيف في معدته، الله يعلم هل تلحقي أن تريه أم سيموت قبل أن تصليه، إلحقيه إلحقيه.

رمت كلماتها طلقات سريعة في وجه أمه، وبتوتير مقصود وبتكلف وأدارت ظهرها سريعا هابطة درج البيت، أخذت أطراف أمي المسكينة ترتجف من هول ما سمعت وقد نزل على رأسها كالصاعقة وهي لا تدري ماذا تفعل. خرجت من البيت سريعا دون جهة محددة. كانت عيونهم وسياراتهم تلاحقها: دورية عسكرية وسيارة لضابط في المخابرات، مفترضين أنها ستذهب لتطمئن عليه على أساس افتراض آخر أنها تعرف وكره. كانت أمه تسير على غير هدى من أمرها وهم يلاحقونها. قر قرارها أن تذهب لعائلة صديقه لعائلتهم تبث عندهم همها. بادرها أحد أفراد العائلة بعدما سمع ما روت متعاطفا ومقررا:

- لا اعرف كيف يتصرف جماعته في عملهم، لكنني اعرف شيئا واحدا انهم لن يترددوا أن يخبروك إن جرى له شيئا لا قدر الله. اغلب الظن أن قصه المرأة مرتبة من المخابرات للضغط على أعصابكم كعائله، اطمئني. أنا لا تدخل قصة كهذه في رأسي.

كأن أمه كانت بحاجة لبعض الكلمات الهادئة غير المتوترة والمشجعة لتنعش ذاكرتها وتضبط تفكيرها. بدأت تتسرب من ثنايا ذاكرتها صورة ضابط المخابرات الذي جاء ليعتقل كنعان منذ أيام.

- انه نفسه. نفسه. صاحت مكتشفة شيئا ما وتابعت: انه هو المرأة التي جاءت اليوم هي نفسها ضابط المخابرات الذي جاء أول مرة. إنه هو. كان يحني رأسه كي لا أراه ولكنني رأيت عينيه للحظة. هي عيناه، هيئته، انه هو، الله يجازيهم، كدت أسقط من الخوف عليه. كان روني قد تنكر بزي امرأة.

بعد اللقاء السريع مع رفيقه، سار مهرولا يتجلبب الليل في شارع طويل تصطف الأشجار على جانبيه، قاصدا بيته السري. كان يدقق النظر بالمارة القلائل، يتصورهم كلهم مكلفين بملاحقته وتتبع خطواته. كان أولئك المارة يتلفعون بملابسهم الشتوية الثقيلة اتقاء لبرد كانون وأمطاره. بعضهم غطت رأسه وبعضا من وجهه فازدادت هواجسه وشكوكه من انهم يتبعوه. لم يقصد البيت مباشرة، بل تعمد الإكثار من السير في طرق فرعية خالية ليتأكد إن كان ملاحقا أم لا. كان يدخل شارع فرعي ليخرج منه لآخر، يدقق بالمارة ويسير مغطيا رأسه بكوفية حمراء رقطاء تعود ارتداءها شتاءا اتقاء للبرد وأيضا للعيون. السيجارة المشتعلة تبعث الدفء في أصابع يده اليمنى وفي حلقه.

كان وهو يقصد بيته السري الأول لا يزال مأخوذا بحلاوة المغامرة، فرادتها وتميزها. كان الزمن زمن الذين يعتبرون تسليم الذات للمحتل أمرا مفروغا منه،عاديا جدا. لم يكن أحدا لينتقد هذا السلوك أو يعيبه على صاحبه، أما من لم يسلم نفسه فالحدود مقصده أما هربا من المواجهة أو تغييرا لساحة نضال، قلائل قلائل أولئك الذين اختاروا البقاء بين الشعب دون أن يعرف الشعب عنهم شيئا. جنودا مجهولين كانوا في مواقع متقدمة دون أن يعرف الاحتلال عنهم شيئا. كان مأخوذا بالخيار الثالث: أن يزرع هنا.

عندما وافق على دعوة الحزب له للحياة السرية لم تكن فقط حلاوة المغامرة، فرادتها وتميزها هي ما حفزت موافقته، لقد حفزتها أيضا قناعة راسخة بأنه في النهاية لا يصح إلا الصحيح. الحزب بحاجة لمناضلين فالصحيح عدم تسليم الذات. لذلك لم يحسبها كثيرا، لم يقلبها كثيرا في عقله. فكثرة الحسابات تجعل العزائم تخور وتتكبل المبادرة. الحياة الإنسانية حقا، حافزها، بديل للإستكانة، البلادة والتطبع. الثوري لا يتطبع أو يخضع بل يتمرد. أي ثوري هذا الذي يخشى المغامرة؟ بل متى كان العمل الثوري ثوريا حقا دون مغامرة ودون جنون. "لا يصح إلا الصحيح" كانت صيحة عقل في لحظة تتوجب الحسم. صيحة تلغي كل الحسابات.

عبثا كان يمكنه أن يتصور وهو يهرول نحو بيته السري حياته الجديدة، نمط الحياة التي سينتقل إليها. الجسر بالنهاية نعرفه جيدا عندما نعبره لا قبل ذلك. التجربة نمتلكها عندما نعيشها كما المرأة تماما نحياها عندما ننتشي بها ومعها. لم تتطرح تفاصيل حياته في فكره، جهلا أو نقص تجربة فسيان ذلك، فالجهل بالنهاية نقصان تجربة.

(اعرف لقدمك قبل الخطو موضعها) كان قد اعجب كثيرا بنصيحة شيخ الروائيين العرب نجيب محفوظ، ولكنه الآن يدرك أن معرفة القدم لموضعها تكون حينما تحتل القدم موضعها لا قبلها، بعد أن تخطو لا قبل ذلك.

وصل البيت حسب العنوان الذي أعطي له. طبقة أرضية في بيت قديم مكون من طبقتين، في الطبقة العليا تسكن صاحبته أم عيسى، تحيط بالبيت أشجار الفاكهة التي تكثر زراعتها حول البيوت البعيدة عن مركز المدينة. نأي البيت وموقعه وسط الأشجار أضفى عليه تلك المسحة التي تليق ببيت سري، بوكر حقيقي. أما المطر الكانوني الذي كان ما يزال منهمرا لحظة وصوله في ليلة افتقدت قمرها، فقد أضفى على البيت رهبه ما، وحشة ما. ليل دامس، مطر غزير، بيت تحيط به الأشجار في مكان بعيد عن الضوضاء والأنوار، كل ذلك جعل كنعان يشعر كأنه سيدلف بيتا في أسطورة خرافية تمتلىء بالجن والأشباح والسحرة!. هكذا تصور بيته وهو يخطو على الممر المبلط والمؤدي لبابه وشعور بالوحدة بدأ يلفه. أدار المفتاح في القفل ودخل ثم اقفل الباب خلفه.

أتدري ما ستواجه خلف هذا الباب الذي أقفلته للتو؟ أرخ يا كنعان لهذه الليلة الكانونية الماطرة، فمنها يبدأ تاريخك. في الحادي والعشرين من كانون الأول سنة ١٩٨٢ فتح باب واغلق ثم اقفل. عندما يفتح ثانية يكون تطورا في غاية الخطورة قد جرى في حياتك. بين فتح وإقفال حياة ليست كالحياة، عالم ليس كالعالم. منذ الآن أرخ: قبل الحادي والعشرين من كانون الأول جرى كذا، وبعد الحادي والعشرين من كانون الأول جرى كيت. تاريخك سيغدو مثل ميلاد المسيح لدى البشرية تؤرخ به. للبشرية تاريخها ولك تاريخك.

أضاء النور ليتعرف على بيته. غرفتان صغيرتان للنوم ومطبخ وحمام. إحدى الغرفتين فيها طاولة للطعام وأرائك قديمة عفا عليها الزمن فبيعت على ما يبدو بثمن بخس بعدما عافها بائعها. الغرفة الثانية فيها سريران قديمان خشبيان واسعان الواحد منهما يتسع لزوجين دون أن يتذمر الواحد من الآخر!!. خزانة قديمة بالكاد تتمكن من الانتصاب على قوائمها الأربعة قرر إنها خزانة الملابس!! عدد من الكراسي والطاولات الصغيرة. مطبخ صغير جدا بالكاد يتسع لاثنين

يتحركان فيه للطهي ولغسل الأواني وفي المطبخ براد صغير الحجم يكفيه على أية حال. طباخ واوان وأطباق من النحاس والتوتياء ولوازم أخرى. فوق البراد زجاجتا نبيذ من الصنف الشعبي الذي ينتجه رهبان دير اللطرون. ابتسم كنعان:

- لم ينس الرفاق أن رأس السنة الميلادية يقترب، طقوس فيها معروفة وبدون نبيذ لا معنى لرأس السنة.

فتح واحدة وكرع كأسا دفعة واحدة فأحس الدفء في جوفه. لم ينس زاده أيضا: حفنة من الروايات والكتب النظرية، جرائد ومجلات، دفاتر وأقلام. ابرز زاده كان رواية "كيف سقينا الفولاذ" لنقولاي استروفسكي، طبعها الحزب ووزعها في الوطن. ابتسم ثانية عندما رآها وتذكر بماذا أسماها عندما قرأها لأول مرة تدليلا وإعجابا بها : كيف سقينا الفولات؟.

نوافذ البيت تطل من جهتين على بستان للفواكه واكثر ما فيه شجر التين والتوت الأبيض ومن الجهة الثالثه تطل على تعريشة من الياسمين تغطي الممر المؤدي لباب البيت. كثافة الأشجار وانخفاض البيت أصلا، يجعل من الصعوبة على ضوء الشمس أن يتسلل من نوافذ البيت. انتهى كنعان من التعرف الأولي على بيته السري وتمدد على السرير بعدما خلع ثيابه وحذاءه المبلل.

هل تعرفت جيدا يا كنعان على محتويات بيتك، معالمه ومواصفاته. انك ستحيا معها سنين وسنين، ستحفظها عن ظهر قلب سيغدون رفاق حياتك ونضالك. تعرف جيدا يا كنعان، فالآن بدأت رحلتك التي ما حسبتها يوما ستطول لهذا القدر، حتى تعشقها كما الأنثى لهذا القدر، تعيشها بجوارحك وتنتشي بامتلاكها. للتو أقفلت باب بيتك الذي لا تدري متى سينفتح من جديد، أقفلته وأدرت ظهرك للحياة التي عشتها منذ أن سحبتك القابلة الفرنسية العجوز من رحم أمك. أقفلته لتفتح أمامك حياة جديدة، القابلة فيها حزبك ورفاقك، حياة تنفتح بإقفال باب، وإرادتك ستبنيها طوبة طوبة. تعرف جيدا يا كنعان، تعرف. ليست حياتك المقبلة محض مغامرة، فرادة، تميز!. هل تعلم أن أم عيسى سترصد بأذنيها صوت بولك المنساب من مثانتك على أرضية المرحاض، لتسارع فتدق بابك، لتخضعك للإستجواب ؟. تعرف حتى تغدو معولا يحفر درب تجربة ثورية جديدة مع رفاقك وحزبك لا معولا يهدم الجدران مخزون قوتك فتتحول لعبء على الحزب فوق أعباءه المتجددة أبدا.

لكنه ما فتئ مأخوذا بحلاوة المغامرة، فرادتها، وتميزها ولا يدري ماذا يخبئ الباب خلفه، ما المعنى الذي سيتخذه في حياته، متى سينفتح ثانية؟ ■

الفصل الثاني

الفصل الثاني

أعاد النظر خلسة من نافذة غرفة نومه، رأى أشباح جنود كثر عند الباب تتراجع خلفا لتندفع من جديد، تضرب الباب بأرجلها المبسطرة تحاول خلعه. كان الطقس الوثني في بدايته. سيارات عسكرية اتخذت مواقع لها عند المداخل الثلاثة المؤدية للوكر، كانت المداخل تلك ترى بوضوح من نافذته (كثافة الجنود وتوزع الحافلات تنبئ بجدية الموقف) حدث كنعان نفسه بصوت مسموع وتطلع لهشام الواقف بجانبه، ينظر هو الآخر من النافذة:

- يبدو أننا وقعنا يا رفيق، كمية الجنود والشاحنات لا توحي أن المسألة مسالة بحث عن ملقي حجارة لإعتقالهم. هكذا يبدو لي. لن نفتح الباب فليفتحوه بأنفسهم أن شاءوا الدخول. سأسارع للمخبأ ومعي أوراقي ونتصرف كما اتفقنا سابقا. لنرجو أن لا يكونوا قد لمحوا اثنين عندما خرجنا للشرفة لنستطلع.

كانت كلماته سريعة، لاهثة ومنفعلة، لكنها غير مرتبكة أو مترددة بل واثقة وصارمة. نطق بها كمن تدرب على نطقها طويلا، كمن حفظها عن ظهر قلب. لم يشعر بذلك الارتباك اللحظي الطبيعي تماما والإنساني تماما الناتج عن الضعف الإنساني والذي ينتاب من يتحسس الخطر يدهمه، ذلك الارتباك الذي يفقد الإنسان قدرة التفكير المتسق والهادئ للحظات. كان يشعر بالمرارة والانسحاق وهو يخاطب هشام ويرى لطقسهم يمارسونه عند الباب، يتألم إذ تمكنوا منه أخيرا، انتصروا عليه بعد تسع سنوات. نظر لهشام إذ حدثه، فلم يلحظ علائم الارتباك بل لاحظ ملامح وجهه تشي بالتحفز والترقب والانتظار. كان الاثنان لحظتها يتميزان برباطة جأش وتماسك من عرك تجارب عديدة، خبر نفسه، قوته وخبر غيره، إمكاناته وحدودها.

رباطة جأش الحزب، رباطة جأش منظماته ورفاقه هي ما يجب أن نتحلى به الآن لصد الهجمة على الحزب. فقدان رباطة الجأش يعني فقدان التوازن والسقوط، يعني الارتباك والتخبط. ما يهدم الآن نبنيه لاحقا أقوى. لا داع للفزع. لندافع الآن عن الحزب، عن أنفسنا ولاحقا نبني أضعاف ما يهدم. الارتباك يعادل الانهيار في أقبية التحقيق، مهمتك الآن أن تحمي نفسك ومرة أخرى أن تحمي نفسك. هكذا كتبوا له عام ١٩٨٥، السنة التي نهشت فيها أجهزة المخابرات منظمات الحزب من رفح حتى قلقيلية. كثيرا ما كرر الحزب تلك الكلمات، حتى حفظها في تلافيف دماغه، عززتها التجارب المتكررة في مواجهة الهجمات.

بسرعة تناول من على المنضدة الصغيرة بقرب سريره رزمة أوراقه السرية ومعها علبة سجائره. قصد مكانا معروفا: تلك الخزانة الكبيرة الملاصقة للحائط، مقابل الحمام وبحركات آلية منتظمة ومتشابكة تعكس دربه سابقه شرع بالعمل: فتح باب الخزانة، انتزع أحد الرفوف من مكانه بما عليه من مناشف حمام وأدوات تنظيف وغيرها ووضعه على أرضية الخزانة الخشبية، تناول مسمارا صغيرا معدا لتلك اللحظة وأدخله في ثقب صغير لا يكاد يرى في اللوح الخشبي المتحرك والذي يشكل خلفية الخزانة. دفع باللوح لأعلى فانزاح عن فتحة صغيره في الحائط بالكاد تتسع لمروره، تسلل من الفتحة لوكر معتم وصغير وأعاد سريعا وضع الرف مكانه، مد يده فسحب باب الخزانة وأغلقها، انزل اللوح الخشبي مكانه فساد الوكر ظلام دامس لا يمكن من خلاله رؤية حتى إصبع اليد.

في وكره قبع كنعان جالسا على حافة المدخل منتظرا. ينتظر عسى أن يتوقف طقسهم البدائي الوثني فيكفون عن محاولة فتح الباب. كان يأمل ذلك، يصغي السمع لما يجري خارجا ويفكر. الأشباح لا زالت تحاول فتح الباب، تحاول تمزيق حياته السرية، رغم أمله بأن يفلت من قبضتهم هذه المرة أيضا-كما جرى قبل سنوات. كل شيء يهون الآن إلا أن تقع ورقة سرية بين أيديهم، ليأخذوا حياتي لكن أوراقي لا! حدث نفسه ضاغطا على أوراقه السرية، كأنه يقبض على حياته بين يديه ليمنع عدوه من انتزاعها، كالأم تحتضن وليدها المريض خشية أن يخطفه الموت. تأكد في عتمه وكر حجري وبمساعدة أصابع يديه، تحسسا، من وجود الولاعة والعلبة المليئة بالكاز. اعد كل شَيء التزاما بقواعد السرية التي اعتادها، قواعد الاحتياط للطارئ. دائما كان يضع للقادمين إلى بيته ترتيبات ما للطرق على باب البيت الذي يسكنه، إشارات متفق عليها بينه وبين زائريه، تشكل إحدى بدهيات العمل السري وأمن الاتصالات. كانت تلك الطرقات تعلن أن الحياة ستدخل البيت مع دخول رفاقه. كل قادم من الخارج كان يحمل معه نبض الحياة : أخبار الرفاق، الأصدقاء، الأهل والناس وحياتهم، التطورات المحلية والاحداث ... حتى النكات وما يجري على ألسنة الناس من أحاديث وشائعات وما يشغل مزاجهم وتفكيرهم أيضا.

. كان يصر على "حقه" هذا عندما يواجه بأحدهم يقتصد بالحديث كأنه إذ يعطي ما يختزنه في رأسه يقطع من لحم جسده. الفضول كان حافزه لمعرفة ما يجري، الرغبة بان لا ينقطع عن تطورات الحياة وهمومها طالما اضطر لينقطع عنها بجسده، الرغبة بإرضاء الذات بأنها تحيا مع الناس وبينهم، كانت أيضا تحفزه! سحق كثيرا من مطالب ذاته لكن مطلبها ذاك كان حريصا على تلبيته لها! أما ما يسمعه الآن فليس طرقات رفاقه المحببة الرتيبة المتفق عليها. الطرقات الآن من نوع آخر، عدوانية قد تحمل معها الموت، وحشية قد تنهش جسده تعذيبا. طرقاتهم

الآن حاسمة ومقررة، تنبىء بما هو خطير وسيقلب حياته رأسا على عقب. إنها تشبه القرار* الجريء والحاسم الذي حملته رسالة كانون قبل تسع سنين، قرار انتزعه من حياة وأدخله في أخرى. قرر الحزب ووافق هو متحمسا. هذه المرة هم الذين يقررون مجرى حياته اللاحق لا هو. أن يقرروا هم لا هو ذلك يشعره بالغصة في حلقه والعلة في قلبه. إن من يمتلك قرار حياته لسنين وسنين لا يتقبل أن يمتلك غيره ذلك القرار دون أن يدفع الثمن، والثمن هو هزيمتهم، أن لا يستفيدوا من اعتقاله.

الطرق يتصاعد في عنفه وقوته مؤكدا إصرارهم، يؤكد انهم مستفزون، وأن الباب لا يطاوعهم ويقاوم طقسهم البدائي لفتحه-لاقتلاعه. يسمع الآن أيضا تلك الأصوات المألوفة بقبحها ودلالتها: أصوات أجهزة الاتصال اللاسلكية.

- ماذا يفعل هشام الآن؟ (تساءل بلهفة وإحساس متضامن مع رفيقه وصديقه)، لا شك يرقب حركتهم من النوافذ بعد أن تأكد أن لا أوراقا لم تجمع.

لم يخطر في باله يوما من الأيام أن طرقات الباب سيكون لها المعنى الذي تحمله الآن. فكر بالاعتقال سابقا واتخذ بناءا على توجيهات الحزب جملة إجراءات احتياطية. الاعتقال يكاد يكون احتمالا محتوما للمناضل. سنين حياته الطويلة، تشدده إزاء قواعد السرية، ثقته بترتيبات الحزب، صلابة من يعملون معه ويعلمون بسره، تعلقه بالمحتوى الثوري الكامن في حياته.. كل ذلك جعله يتطامن بان ليس هنالك شيئا يقادر على وضع حد لها!!. مهامه، نضاله، تجربته وإنتاجيته جعلته لا يمتلك أن يتخيل نفسه خارج صفوف الحزب والنضال. لقد عاش تلك الحالة الشعورية التي تجعل حياة ما تمتلك على الإنسان وكيانه وأعصابه وحواسه وساعات يومه، عاشها فجبلته بجبلتها الخاصة، عجنته من جديد، شكلته، عاشها للدرجة التي بات معها لا يتخيل أن تلك الحياة ممكن أن تنتهي. كان يتحسس بملىء كيانه بتميز وفرادة حياته، ذلك التميز وتلك الفرادة التي حولت تجربته لتجربة ثورية خاصة. لا شك أن الاعتقال دهمه في أحلام يقظته. ما أخصب أحلام اليقظة لدى من يعش بين الجدران، خلفها، إنها تغدو الشريان الذي يغذي روحه التي تقاوم تحجرها، وضيقها نتيجة تطويق الجدران. إنها الحبل السري الذي يربطه بالعالم-خارج بيته. كل من يحيا الحياة السرية يبحث عمن يخرجه خارجها في الوقت الذي يتمسك بها!!

لقد "عاش" انتصار كادحي العالم ضد طواغيت رأس المال! "فرح" عندنا تحرر وطنه "وشرع" يبني الإشتراكية بقيادة حزبه! "سعد" بصحبه إمرأة أحلامه، يسيران معا، يداعبها، يخطف قبلة منها بين لحظة وأخرى! بين كل هذه وغيرها كانت أحلامه تسبح ، كانت متفائلة، فرحة تبعث على التمسك بالمستقبل المشرق.

كان الاعتقال في أحلام يقظته يعني التحدي والصمود، "رأى" نفسه شهيدا بين أيدي المحققين. "شهد" جنازته التي تحولت لتظاهرة، والحزب يشيد صموده ويؤبنه. كان ذلك جزءا من تعبئة داخلية ذاتية مارسها كثيرا وهو يتمشى بين جدار وجدار أو يجلس على الشرفة ليلا في أيام الصيف أو يضع رأسه على وساده ويفكر "ويحلم" قبل أن ينام. صورت له أحلام يقظته، اعتقاله في شارع وهو يسير متنكرا يقصد بيتا سريا لعقد لقاء. صورت اعتقاله أثناء التقاطه "إرسالية ما" من مكان سري متفق عليه- نقطة ميته، رغم خصوبة أحلامه الشبيهة بخصوبة التربة الحمراء لمرج بن عامر إلا أنها لم تأته بتلك الفكرة التي تحملها معها الطرقات الآن، المتواصلة منذ نحو نصف ساعة. نهاية حياة عاشها وبداية حياة يتحسسها تقترب منه، تأخذه عنوة لتفاصيلها المجهولة مثلما أخذته في حينها حياته السرية في بدايتها، لعالم لم يكن يعرف كنهه.

منذ أسابيع وهو يخوض غمار حياته السرية، حياة لا يراها سوى باب مقفل وجدران صماء. يدرك قيمة حياته الأساسية: تحدي قرار الاعتقال والتمرد عليه ومواصلة النضال وعدم السماح بحجز طاقته بين جدران السجن. يدرك ذلك لكن عينيه لم تكن ترى سوى الباب والجدران. أينما اتجه أبواب وأينما أشاح بوجهه جدران. كأن العالم بأكمله اختصر نفسه لأبواب جدران لا غير. يتكرر هذا العالم في نفس الزمان، البارحة مثل اليوم ومثل غدا، انه عامل آخر ذلك الذي وضع نفسه فيه!.

أي عالم هذا الذي ينهض فيه الإنسان صباحا لا ليخرج بل ليجلس على طاولة أو يتمشى بين جدار وجدار ولا يجرؤ على فتح باب بيته حرصا على أمنه وسلامته؟ الناس تصحو صباحا، وتفتح الأبواب: هذا لمدرسته وذاك لمكان عمله هذه للتسوق وأخرى للثرثرة مع جاراتها. حتى إلقاء تحية الصباح على جار له محظور عليه ولا يستطيعه!؟؟ أي عالم هذا الذي يعيشه الإنسان دون صداقات، دون أن يلاعب طفلا أو يجالس امرأة يجالس امرأة فقط !! أن يرى أهلا أو أقارب، أن يحادث إنسانا أي إنسان، حتى السجين يستطيع كل ذلك، في حياة السجن ومن خلف الأسلاك في موعد زيارته الدورية لأقاربه ومعارفه. من يملك الإمكانية لتقدير الأهمية القصوى جدا لما هو اعتيادي جدا في حياته؟ السير في شارع، رؤية صديق، فتح باب المنزل والخروج منه، ملاعبة طفل، رؤية أم. . ؟ فقط من يحرم من كل هذا وغيره دفعة واحدة وفجأة. من يحرم من كل ما يرتبط بالحياة الاجتماعية الاعتيادية بيومياتها لا يستطيع فقط تقدير تلك الأهمية بل يحس بحاجته لها تصرع كيانه يوميا، ساعة بساعة، دقيقة بدقيقة. ولأنها كذلك فقد بدأ الآن، الآن فقط يتحسس على جلده، على أعصابه معنى الجملة الآمرة إياها الخشنة خشونة الإسمنت والصريحة لدرجة الفظاظة "لا تستقبل أحدا ولا تزر أحدا".

يتمشى في بيته بين جدار وباب أو يستلقي على السرير أو يفتح كتابا أو يرقب الشارع والجيران من نافذته، أو يطبخ طعامه أو يستمع للراديو أو المسجلة أو يمضغ رغيف خبزه أو يتقافز من غرفة إلى أخرى يتوارى خلف الجدران هربا من عيون الشمطاء أم عيسى أو أو.... وحياته الجديدة تستفز كل خلية في جسده، توتر أعصابه، تشدها كالوتر لأقصى درجة ممكنة. **أية جملة تلك؟ كيف يملك من كتبها أن يكتبها؟ هل يعرف ماذا تعنى في الحياة اليومية عندما تتحول حروفها وكلماتها ليوم يعاش، لساعة ودقيقة تعاش؟ إنها ليست جملة، إنها قرار بالإعدام البطيء، فالإنسان كائن اجتماعي فكيف يحافظ على كونه إنسانا إن عزل نفسه عن المجتمع والحياة الاجتماعية؟. أي مجنون كنت إذ تحمست لذلك القرار اللعين، عدم تسليم النفس للمحتلين؟ أي حزب هذا يفعل بأعضائه ما يفعلون به.**

يمشي ويتساءل فيقعد ويدخن، ليتمشى من جديد ويستلقي على السرير وأسئلة تصرع خلايا دماغه وتتدلق على لسانه متوترة، منفعلة، فتتحول لشتائم يرشقها لكل ما يخطر على ذهنه، لكل ما تقع عليه عيناه. يستمر هكذا مثل حبة قمح على سطح محمى طوال النهار، أعصاب متعبة تتحدث وجسم ينهد من الإرهاق. كان ضعفه يندلق على لسانه، كلمات متوترة، سريعة وشاتمه فيقول ويقول حتى ينام، مرهقا أرقا فينقلب على هذا الجانب أو ذاك فيغفو تعبا، فما يلبث أن يصحو بعد سويعات قليلة لتعيد أعصابه عرض فلمها الناطق، تذمراتها، سلاطة لسانها، شتائمها... أعصابه المتعبة كانت تتحدث، ذاته كانت تتمترس خلف متطلباتها، تطلق نار بندقيتها عليه:

بين عشيه وضحاها اصبح كل شيء خلف ظهري. خمس كلمات قررت حياتي بل قضت عليها! "تقرر أن لا تسلم نفسك" كلمات مكثفة، مجردة، صماء، تقريرية، جافة، وجملة آمرة، خشنة ضيعت عمرا بأكمله. كل شيء أضحى خلف ظهري. كل ما حولي لا انتمي له ولا ينتمي لي. فهل ناضلت لأنتمي لأبواب وجدران وأوان وأطباق؟ هل ناضلت لأحسب حسابا لصوت بولي كي لا يقبض علي متلبسا من أم عيسى. تقتلني الوحدة، لا أم لا أخوة ولا أخوات ولا حبيبة، لا أصدقاء ومعارف، كيف تركت كل هؤلاء، أي مجنون كنت؟ لا شيء سوى هذه الجدران وحفنة الأبواب اللعينة. إحداها أقفل ولا ينفتح إلا ليأتيني بخبزي ليقفل من جديد. السجن أهون ألف مرة. اقضي سنة، سنتين وأخرج لأناضل من جديد. الجميع يفعل هذا فماذا دهاني هذه المرة؟ احتياجاتي تستطيل وتستطيل فتصطدم بالجدران لترتد لنحرها. رغباتي تكبر وتكبر فتتحول لأنياب حادة تنهش لحمي، دماغي، دمي، تصبح "دراكولا" متوحش. إن حاولت رغباتي التسلل، وجدت بابا موصدا وجملة آمرة خشنه وكلمات جافة، مكثفة، صماء، تقريرية ومجردة تركل رغباتي من عجيزتها. هي الحياة السرية تحول احتياجاتي ورغباتي لمستحيلات فيما هي في الحياة الاعتيادية ممكنات بل كانت واقعا محققا.

وبين نوبة من التوتر، وبين جولات زعيق الذات في جوفه، كان العقل يتدخل فيدلي برأي عاقل، متزن ولو للحظات:

تحمل يا كنعان تحمل، ألم يكن عليك أن تتعرف على بيتك وحياتك، تعرف إذن وتحمل، حزبك وتجربتك يصنعان منك ثوريا فهل يتسنى ذلك دون تضحيات؟ إذن تحمل. للثورية متطلباتها فقم بها. تحمل إذن. ألم تقرأ عن حيوات ثوريين كبار؟ ماذا قدمت حتى اللحظة قياسا بهم؟ ماذا قدمت قياسا بمقاتلي الثورة في لبنان ومنهم مقاتلي حزبك؟ ألم تقتنع أن الثوري المحترف يمنح الثورة حياته لا سويعات ثرثراته؟ إذن تحمل ودع التجربة تصنع منك ثوريا محترفا. أنت مقتنع بالثورة فكن رجلا وادفع فاتورتها دونما نزاقة. الثورة تغيرك فساعدها بالتطبع مع منطقها ولا تمكن أعصابك من أن تكون ثورة مضادة، خنجرا ينغرس في ظهرك.

العقل من جهة وأعصابه المتوترة من جهة أخرى، كل يقف على متراسه ويصوب بندقيته للآخر، يقاتل باستماته ولكن لا أحد يتمكن من قتل الآخر. حتى هذه المرحلة من العراك كانت أعصابه غالبة وذاته متفوقة لكن دون أن يسقط العقل صريعا للعقل لحظات فيما للذات المتعبة، والمتقلبة ساعات وأيام وأسابيع، فهي تستند لاحتياجاتها الطبيعية الإنسانية الملباه لكل من سار على قائميه وتعلم النطق والتجريد، فيما العقل يستند للقناعة التي تتزعزع أحيانا كثيرة نتيجة ضآلة التجربة وحداثتها وقسوة المتغيرات. يسمع ذاته-أعصابه تصيح به، فيتمشى تعبا كالمترنح سكرا بين جدار وآخر والسيجارة لا تنطفئ بين شفتيه. ثلاث علب كان يدخن يوميا حتى أضحى كمدخنة القطار لا يتوقف عن إطلاق الدخان إلا عندما تسكن عجلاته فينام.

بين "الأنا" التي تتطلب احتياجاتها ورغباتها وبين الـ "نحن" التي تطلب فاتورتها، تطلباتها كان الصراع. الأولى، تلك اللعينة لا تستطيع شيئا! فالحياة السرية تفزم احتياجاتها لأدنى حد ممكن: للأكل والشرب!. فيما الثانية فاتورتها كبيرة وتطلباتها أكبر وعديدة ولا تكف عن الطلب وعليه أن لا يكف عن العطاء. الأسابيع تمضي وتمضي فتغدو شهورا، والمحتلون لا يكفون عن الملاحقة.

في الشهر الخامس لحياته السرية زار ضباط في المخابرات بيتهم، زيارتهم الأخيرة. كانت أمه قد خارت قواها ولم تعد تقوى على النزول من على السرير ورفاقه يطمئنونه ويقولون له كلما سأل عنها: هي بخير اطمئن لا جديد معها!. أما عندما طلب أن يبعث برسالة فردهم كان جاهزا: تريث قليلا لتهدأ الأمور اكثر، لم يحن الوقت الملائم!

قبل منتصف الليل بقليل قرعوا باب بيتهم.
- مساء الخير، هل ممكن أن ندخل قليلا؟.

دخل اثنان من الضباط دون انتظار جواب لسؤالهم، متظاهرين مع ذلك بالأدب، وتلك طريقة فريدة في الوقاحة لا يتقنها إلا ضابط مخابرات.
- آسفين لإزعاجكم. أين أم كنعان؟ هل يمكن أن نراها؟
- هي مريضة لا تستطيع القيام من الفراش.
أجاب شقيقه الذي لم يعتد يوما على رؤيتهم ولا على التحدث معهم.
- سلامتها . هل يمكن أن نراها؟
ودون أن ينتظر الإذن تحرك تجاه غرفة نومها وبرقة مصطنعة وممجوجة أخذا يطمئنان على صحتها ويسألا عن مرضها ويتمنيان لها الشفاء ومن ثم انتقلا بعد هذا التمهيد لما جاءوا من اجله.
- ما أخبار كنعان؟
- وما أدرانا؟ منذ أن خرج قبل خمسة شهور لم يعد. ألا تعرف أنت عنه شيئا؟أحلفك بالله ما اعتقلتموه؟
ردت أمه وسألت بأعصاب هادئة نجحت باصطناعها لإخفاء توتر حتمي لوجودهم كغرباء في بيتها وبالقرب من سريرها.
- هل تضحكين علينا؟ هل يكون لدينا ونجيء لنسأل عنه؟.
رد أحدهم بعصبية عكست عدم تمرسه. استدرك الثاني عصبية الأول سريعا:
- هل من المعقول أن تكوني مريضة لا تقوين على النهوض ولا يأتي لزيارتك؟.
- معقول. هذا إن عرف أني مريضة، الله يسهل عليه أينما كان. لا أريد منه شيئا. عندي من يساعدني فاخوته كثيرون.
- لا لا ليس معقولا ذلك! أنت أمه ألا يأتي لدقائق ليطمئن عليك؟. أي ابن هذا؟ ألا يأتي ليقول لك كل عام وأنت بخير ولو لخمس دقائق؟ ألم يكن لديكم عيد الفصح قبل أيام؟ أي ابن هذا، ألا يزور أمه في العيد وهي مريضة؟
- قلت لك لا اعرف عنه شيئا ولم يأت. لماذا تكثر من الكلام بلا فائدة؟
حاول الاثنان عبثا ضبط انفعالاتهما كي لا ينقادا للاستفزاز ولكنهما لم يتمكنا إذ ما لبث ان كشف أحدهما حقيقته فجار مكشرا عن أنياب المحتل فيه.
- صوره معنا والجبهة الشعبية لن تنفعه، سنحضره لك على نقالة، وعشر رصاصات في رأسه!!. افرغ ما في جعبته في وجه الأم المريضة ورحل..

بعد أسبوع بعث له الحزب ما شرح له صدره وأشاع بعضا من الاستقرار لديه: "اكتب لامك ولترد عليك ونحن سنرتب طريقة لتبادل الرسائل معها دون مخاطرة". أخذ يتمشى ويحدث نفسه:

ماذا ستكتب يا كنعان لمن تركتها بعد أسبوع على وفاة والدك، ورحلت ولم تعد تظهر؟ كيف ستقول لها إن جملة لن اسلم نفسي حاليا سيشطب منها "حاليا"، هل تفترض فيها أن تتفهم إحتياجات حزبك للثوريين المحترفين، حاجة الثورة لبنية تنظيمية ثورية في الوطن، شغفك بالمغامرة، بالفرادة، بالتميز؟ ماذا ستقول لها عن منى التي أحبتها كابنتها ورأت تعلقك بها، خطبتها لتندس بين الجدران لا لتحملها بين يديك عروس لك؟ هل ستصف لها حالتك منذ شهور بين الجدران، صراع الأنا والنحن في ثنايا دماغك؟ ماذا ستكتب يا كنعان؟

كان يتمشى والقلم في يده يطقطق بالوسطى عليه والورقة البيضاء على الطاولة، تنتظر عصارة تفكيره وتوتره، كلمات وجمل وحروف يخطها للتكلى بابيه والمنكوبة به، والمبتلاة بمرضها العضال، أي موقف يجد نفسه فيه؟ منذ شهور ولم يفرح كما فرح عندما دعي ليكتب لها، ولكنه الآن يرى ممارسة فرحه عبئا عليه. من السجن كتب لها عن اشتياقه وعن حياه الأسر وكان يقول لها عادة "لا بأس تحملي يا ست الحبايب، ما بقى إلا القليل وسأكون بينكم" وان لم يكن قلمه يسعفه حينها فاللسان يقوم بدوره في اللقاء الحي عبر الزيارة الشهرية. إنما الآن فأمامه بقي الكثير الكثير الذي لا يعرف مداه، كمن يسبح في بحر بلا شطآن أو يسافر في الفضاء الكوني اللانهائي ولا يعرف متى يصل! وان لم يسعفه القلم فمتى اللقاء الحي والعيون بالتأكيد لا زالت ترصد البيت وترقب حركة أمه؟ قعد من جديد وما لبث أن نهض. تطلع عبر النافذة على أشجار الحقل مطقطقا على قلمه. أخيرا قعد إلى طاولته وكتب: الأم الحبيبة، ست الحبايب. قبلات كثيرة وكثيرة جدا لك. قبل أن أتحدث تذكري جيدا إتلاف هذه الرسالة بالنار بعد الانتهاء منها ولن لا تحدثي أحد عنها لا من قريب ولا من بعيد. الأمر يتعلق بحياتي السرية وأي خلل قد يسبب لي الخطر.

وضع القلم ونهض عن الطاولة يتمشى ولسانه يلهج بتوتره وحنقه على ظرفه:"حتى ابسط مظاهر العلاقة مع أمي تكتسب طابع حزبي، أن اكتب رسالة تحتاج لقرار وموافقة حزبية. أولى جملي لها أوامرية توجيهية كما لو كنت أخاطب خليه أو رفيق، تصلها رسالتي بترتيب أمني ويأتيني ردها بذات الترتيب. ماذا تبقى؟ هل كان يجب أن افتتح رسالتي بالترويسة التالية: الرفيقة أمي العزيزة، تحيه رفاقية حارة وبعد واختمها بـ "إلى الأمام، الرفيق ابنك. ك!!". ابتسم بمرارة من سخريته.

كان على مدى شهوره منذ انتقل إلى حياته السرية بدأ يدرك أن كل العلاقات في محيطه السري سيكون الحزب ظلها، فحياته السرية ستعيد صياغتها. لكن إدراكه شيء ومعايشته شيء آخر. يدرك أهمية مقدمته الأوامرية فمنذ السطر الأول ينبغي لها أن تدرك خطورة وضعه لتتعلم ومنذ البداية أصول اللعبة! كلمة واحدة تفلت هنا وهناك وسرعان ما يبدأ التسلسل المنطقي: الكلمة ستتحول لثرثرة

عجائز وفضوليين، تلتقط أذن المخابرات في الشارع ما يقال فتشرع عيونهم بالرقابة. الرقابة مقتل العمل السري، تفتك به، باتصالاته، بأنشطته، بمخابئه، تتسلل عيونهم عبرها لداخل القلعة-الحزب، فيغدو الأخير على طاولتهم وبصحبة عالمه الداخلي. فأي عمل سري سيكون ذلك؟ خشونة المقدمة، أوامريتها، الترتيب، كل ذلك ضمانه استراتيجية فالتجربة بالنهاية إن لم تغدو تاريخا لا تسوى شروى نقير. عاد ليكتب بعدما تسرب احتقانه وحنقه:

"اهتمي بصحتك، ولا تقلقي فالحزب والرفاق يضعونني في عيونهم، آكل جيدا، وتعلمت أن أطبخ حتى الملوخية والكوسا المحشي. تخيلي هذا الإبداع من ابنك؟ أنام جيدا ووقتي مليء ولا اشعر بالملل". كذب وكذب ليريحها قليلا. لا طعام يعرف طهوه حتى ذلك الحين من حياته السرية، فيما النوم يتدلل كأنثى تتمنع، والملل يقتله وأعصابه تصرعه!!".. أرجو أن تتفهمي موقفي وان كان فيه صعوبة لك، لقد اخترت طريق حياتي، طريق النضال من اجل شعبنا وحرية وطننا. ابنك الصغير كبر ومن حقه أن يحدد طريق حياته، يحق لك أن تفخري بطريقي. أنت قد صنعت مني رجلا، فأي رجل سأكون إذ أكون متفرجا على وطننا محتلا وشعبنا مستعبدا ولا افعل شيئا...، كل ما أريده منك هو الاهتمام بصحتك، إسنادك لي هو تكرار تلك العبارة العزيزة على قلبي والتي أحملها معي منذ تركت البيت قبل خمسة شهور: رح يا بني، الله يرضى عليك!! كرريها دائما بينك وبين نفسك وثقي تماما إنني اسمعها".

كتب وكتب، حاول أن يقنعها بخياره وهو يدرك أن كل حجج فلاسفة العالم ما كان لها لتقنع أم بابتعاد رأس ولدها عن صدرها، طفلا يحبو كان أم كهلا وخط الشيب رأسه!!.

ختم رسالته بإعادة تأكيد جملة المقدمة الآمرة واتبعها "أرجو الالتزام بترتيبات الرفاق حرفيا لاستلام رسالتك لمصلحتك ومصلحتي. قبلاتي الحارة لك. ابنك المخلص ك".

بعد أسبوع من استلامها لرسالته بعثت ردها وقد قتله الانتظار. انتظر ليرى ما تقول، اشتاق لخط قلمها ينحرف عن السطر صعودا وهبوطا، لكلماتها العامية تختلط بالفصحى:

"ولدي الحبيب. رضى قلبي وربي عليك. كيف حالك وكيف عايش. الله يلعن هالدنيا اللي فرقتنا. لا تهمل همي المهم أنت، اطبخ وغذي حالك وخلي الرفاق يشتروا لك كل شيء. اطلب منهم. دفي حالك، في الليل بتصير برد. الله يرضى عليك وين ما كنت. إنت زلمه وبتعرف صالحك...".

دمعت عيناه وهو يقرأ كلماتها، دفقات أمومتها وحنانها. سرح بخياله إليها، في المطبخ تزجره إذ يعبث بما تطهو تذوقا، باغفاناتها وهي جالسة أمام التلفاز، يجلوسه معها على الشرفة تقشر البرتقال وتتذوقه، فتعطيه حلو المذاق وتأكل هي حامضه، بجهودها عند الفجر لإنهاضه من نومه ليدرس بعدما تكون الساعة المنبهة قد أيقظتها، بلباقتها حين تحترم وحدته مع منى وتتركهما معا.

- ستسافر وهذا جيد، لترتاح وتعالج مرضها. سألت عن إمكانية المراسلة.

أبلغ رفاقه بطلبها الذي بثته رسالتها.

- أنت تعرف أن المراسلة معها بعد السفر صعبه، فالرسالة إن لم تسلم باليد يصعب ضبتها أنت سيد العارفين.
- اعرف اعرف، قال منكسرا وتابع:لا أستطيع أن اكتب لها ذلك. ابلغوها انتم شفاهة.
- حسنا.

الأضداد لا زالت تصرعه. علمه الحزب قانون وحدة وصراع الأضداد في الفلسفة المادية الديالكتيكية، منذ كان شابا يافعا يتحلق مع غيره من الشبان حول سجين قديم في السجن هو يشرح وهم يسألون ويكتبون ويدخنون سجائر "عمر" من دون أعقاب فلتريه. لكنه لم يفهم الآن: الأضداد في تلافيف الدماغ. عقل وأعصاب متوترة، أنا ونحن، احتياجات إنسانية ومتطلبات عمل. صراعها كان يختصر فيه حياته طوال الشهور الأولى. الحزب كان طرفا في الصراع، فهو تجسيد نحن، العقل والمتطلبات. بين فترة وأخرى يصوب هو الآخر بندقيته ويطلق نحو الأعصاب كلمة، رسالة للتهدئة، للمصالحة، للإسكات. يسمى هذه الرسائل حقن "مورفين" مخدرة: يتقبل كلمة الحزب بشغف ندر أن يفارقه، لكن عندما تكون الأعصاب المتوترة قد تمترست جيدا، واحتياجاته ورغباته تنهشه كان يكتفي بهزة كتف ولا مبالاة لما يقوله الحزب. كان النهش موجعا للدرجة التي هز كتفه عندها الحزب:

- اقرأ واكتب فالمجلة بحاجة لأقلام. اكتب رسائل للقاعدة، اكتب دراسات.
- لا أستطيع، أعصابي متعبة ومرهقة، احمل القلم فاعجز.
- اقرأ. عليك بالروايات.
- لم يبق واحدة إلا قرأتها..
- مارس الرياضة فهي تنشط الذهن والجسد. ألم تكن رياضيا يوما؟.
- أ أسبح في حوض الحمام أم العب كرة القدم في المطبخ.
- تمارين اللياقة البدنية لا تحتاج لملاعب. الرياضة تنعش النفس والجسد أيضا.
- المسألة اكبر من ذلك. الجلوس هكذا يصرعني.
- ستعتاد.
- كيف!؟ انتم لا تعرفون عما تتحدثون، كيف اعتاد على اللاحياة. ألست انسانا؟
- بل نعرف اكثر من ذلك فتجربة الجماعة اكبر من تجربة الفرد، ستعتاد.

- -أنا من يحشر هنا لا انتم. أنا من سيجن من رؤية الأبواب الموصدة لا أنتم.
- نتفهم ذلك ونقدره. نتضامن معك لكن عليك أن تهدأ، أن تفكر بهدوء. ستعتاد.
- أنا هادئ ولكنني أريد مهاما.
- المهام تأتي لاحقا. يجب أن تستقر الآن بعد الهجمة، يجب أن تستقر تجربتك بحيث ينسى اسمك.
- لم ادخل البيت لأجلس، أريد أن اعمل.
- أمامك سنوات من العمل فلا تتعجل. فكر لمدى بعيد لا للحظة.
- لكن الوضع على هذا الشاكلة قاتل لا يحتمل. هل تمردت لأعمل ست بيت أكنس واطبخ واغسل.
- سيمضي ذلك. ستتذكر ما تقوله الآن وتضحك. كن رجلا وتحمل.
- احتياجاتي ورغباتي تطحنني، هي ذئاب تنهش لحمي.
- ذلك مفهوم وطبيعي ولكن عليك أن تصرعها، لا تدعها تتمكن منك وإلا صرعتك هي. فقط الحرمان يكبرها داخلك، هي ليست كبيرة.
- هذا كلام من لا يعاني! أنا إنسان ولست حجر.
- لذلك تصلح أن تكون ثوريا لأنك إنسان تستطيع تجميد احتياجاتك ورغباتك من اجل قضية اكبر.
- هل تتجمد الغرائز والمطالب الإنسانية؟
- نعم تتجمد. هكذا تقول التجربة. بالتجلد وغسل الذات. تجلد واغسل ذاتك جيدا. الثورية تتطلب غسل الذات، تحمسك للحياة السرية، موافقتك على قرار كانون الأول بمثابة حمل للفرشاة والصابون، والآن ادعك. ادعك جيدا واغسل ذات، نظفها من وسخ الأنا.

كان يدرك أن الحزب ينطق بالحق. لكن انى للأعصاب المتعبة، للذات المهتاجة أن تتقبل ذلك؟ التجربة لم تقل كلمتها بعد، لم تجبله بجبلتها الخاصة، لم تعجنه بخميرتها بعد حتى يتمثل ما يقول الحزب سلوكا فيهدأ ويحيا بوداعه ويناضل بأعصاب ساكنة، بذات ثورية لا عدائية مهتاجة، كان الحزب يفكر لمدى بعيد، لا للحظة. يسعى ليخلق منه ثوريا على نار هادئة، مثل قطعة الحديد تحمى بنار طويلا حتى يمكن تشكيلها. كنعان يفكر للحظته، أعصابه المتوترة، ذاته المهتاجة هي التي تنطق. لسانه ارتبط بها موجها منها لا من دماغه. للتجربة أصولها، قوانينها، متطلباتها، قواعدها ومداياتها. ينبغي استيفاء ذلك كله. التجربة تعاش من أولها إلى آخرها كما الرواية عند من يقرأها بمتعة. التجربة لا تقبل أن تختزل سنيها، أن تحرق مراحلها. وهل يطلب من الطفل أن يطلق شاربيه؟.

"تحدث الآن يا كنعان؟ كيف وجدت حلاوة المغامرة، فرادتها وتميزها؟ واجه ذاتك ولا ترحمها. واجه احتياجاتك ورغباتك ولا تساومها. كن مع العقل، الحزب، نحن، متطلبات العمل. تعود على أن تصحو من النوم لا لتفتح الباب

وتخرج بل لتغتسل، تتناول إفطارك وتجلس أو تتمشى أو ترقب المارة في الشارع!! لن يعد منذ أن طلبت للاعتقال فتاه جميلة بقوام مثير، حبيبة تنتظرك عند محطة الحافلة لتذهبا معا إلى الجامعة. كان لقاء الصباح معها حافزك للنهوض سعيدا ونشيطا لتسارع للوصول إليها، فهل ستنهض هكذا اليوم سعيدا ونشيطا؟."

كان يتمتع برؤية العينين الناعستين كل صباح. شعرها مزيج في لونه من الخمري والبني الفاتح. يصعدا للحافلة فيتعمد أن يحشرها جهة النافذة ليبدأ حملة المداعبة الصباحية التي أدمنها: يقترب منها، يحشرها اكثر، كوع يده يداعب خلسة خصرها البض الطري غير المكتنز، قدمه تلكز قدمها برقة واستتاره. يستثار ويثيرها كل صباح. كانا يفطران إثارة، وهي كالعادة خجولة تتبرم وتظهر الامتعاض وكالعادة تريده أن يفعل ويفعل، فهي قبله تنتظر صباحا وجبه الإفطار- المداعبة الممتعة. تقول:

- استح مما تفعل. لقد فضحتنا.

وعيونها تضحك فتفضح لا جدية تحذيرها. يرد مناكفا:

- أمارس حقي الطبيعي والمشروع. للحب حقوق أقاتل العالم لإستحصالها.

ترد بنظره تثيره اكثر مما تروعه- فعيونها في كل أحوالها كانت تثيره.

كل ذلك يا كنعان أضحى ذكرى الآن. منذ شهور مضى كل شيء. لا إفطار إثارة، لا كوعا وخصرا بضا طريا، لا فخدين متلاصقين، لا عيون مثيره. غدا ذلك ذكرى. هي جميلة ولكنها ذكرى ولن تعود لتصبح حقيقة. افهم ذلك ولا تشتهي ألما كل صباح. افهم ذلك ولا تعذب نفسك. لا تستحضر صور ذاكرتك فتستثار غرائزك فتتعب-تؤلم نفسك وأعصابك وجسدك. تحدث كنعان كيف وجدت حلاوة المغامرة، فرادتها وتميزها؟ مغامرتك الآن لا مكان فيها للأهل، للأصدقاء، للناس، لحافلة الجامعة مع إفطارك الصباحي. تعود أن تدفع فاتورة مغامرتك، فرادتها وتميزها طالما ملكت عليك عقلك. أكنت اعتقدتها دون ثمن؟ فانظر ثمنها الآن وادفعه، ألا تلمسه على جلدك، في أيامك في ساعاتك؟ ادفعه دون تردد وسر إلى الأمام. ألم تدفع حبك ثمنا لخيارك ؟ ادفع أيضا فكل شيء يهون الآن بعد أن دفعت منى. فأي شيء في حياتك كان أغلى منها؟ أحببتها بجنون كما قلت لها، أمامك الآن جنون من نوع آخر، فادفع له واقدم عليه".

دفع فاتورة منى بعد معاناة ولا زال يفكر بالثمن. فتح الباب، خرجت منه من حياته، هي خرجت وهو دخل.

" لكنها لم تخرج من قلبك وعقلك. شهور بعد خروجها من باب بيتك كنت تغفو عند انبلاج الفجر بعدما يكون التعب قد هدك، تفكيرا بها، بعد أن يكون الأرق قد هد أعصابك وأنت تتذكر كل لحظة قضيتها معها: إفطار الإثارة الصباحي، الجلوس في مقصف الجامعة متلاصقين، غذاء شطائر الفلافل اليومي مع كؤوس الشاي، التمشي معا عائدين من الجامعة، لحظات النقاش، المزاح، الغناء، الخصام، لحظات المتعة والانتشاء، أيام الإضرابات عن الدراسة حيث تستغلان ذلك لمزيد من الرفقة والاختلاء والحب. كل ذلك بقي محفورا في رأسه شهورا وشهورا. لم تحمل لها ضغينة أو كراهية، بل حملت لها صورة، ذكرى جميلة. هل يمكن لمن احب أن يكره من احبه؟ ملاحظة واحدة، جارحة من رفيق لك مرة، استفزتك ورددت عليه بحدة".

إذ يتذكرها كان يتذكر ما هو جميل. كأنها لم تتركه وحيدا يصارع الجدران والأبواب لحظة كان بحاجة لها. لم يجدها بقربه لحظة كان يريد أن يدمر الجدران بيديه، لتأخذ رأسه لصدرها وتقول "اهدأ وتحمل". لم يجدها لحظة كانت تنهشه الرغبة بها. لقد غفر لها، ربما لأنه فهم لماذا فعلت ما فعلته، فتفهم وغفر!. ربما لأنه يحبها غفر. أن نحب يعني أن نغفر لمن نحبه. قال لها "افهم ولا أتفهم" وبحقيقة الأمر تفهم فلم يحقد ولم يكره. كثيرا ما كان يشعر تجاهها بالشفقة. من يتعلق بخيارات تافهة يثير الشفقة. تجلس في البيت وتنتظر زوج المستقبل! فأي خيار هذا؟ أي بؤس وضعت نفسها فيه كامرأة؟ كان يستحضرها أمامه ويحدثها ويناقشها. وضعت نفسها في رحمة القدر وكان هذا اشد ما يخنقه. تنتظر الزوج الذي سيتكفل بإحضاره والدها مثل الذي يشتري بطيخة فأما حمراء ناضجة أو "قرعة"، أما أن ينجح بالشراء أو لا. المسألة مسألة حظ لا اكثر. "أي بؤس وضعت نفسك فيه؟ تنتظرين رجلا كما تنتظرين نوع البطيخة عندما تغرزين السكين فيها؟". كان يشفق عليها ويشتم في خياله. الضعيف يستحق أن يرثى له. "كانت ضعيفة حتى الإنمحاء ككائنة". هكذا قيمها أحد الرفاق أمامه مره. لم يحتمل كنعان الوصف وغضب، ولكنه كان يدرك انه صحيح، كثيراً ما صارحها:الضعف فقدان القدرة على التمرد، انه الانصياع والانقياد، انسحاق الشخصية، كلها مترادفات لإنسان يرضى بأن لا يكون له مكان تحت الشمس. كانت هي هذا الإنسان.

والآن وأنت على أعتاب نهاية سنيك السرية كاحتمال، مندسا في وكرك الحجري ومحاولات اقتلاع بابك جارية. هل تساءلت لماذا تابعت أخبارها لتسع سنين؟ هل استمر حبها في قلبك؟ قطعا لا. أتراه الحنين للمرأة وهي كانتها وما بعدها عدم ولحظة ألم؟ ربما. هل كان اهتمامك بها خلفته ذكرياتها الجميلة. ربما ربما. كنت تتابع أخبارها كمن يفتح ملفا لمرشح للاعتقال، تتقصى أخبارها كلما أتيحت لك فرصة، أنهت الدراسة وعملت ففرحت لها، تنتظر في البيت ذلك الذي سيأتي على "حصان ابيض" فأشفقت عليها، على بؤس خيارها وتفاهته، أمها تريد بطيختها

"صاحب مركز"، تتذكر انقيادها وانسحاق شخصيتها. خطبت "صاحب مركز"، قرأت ذلك في الجريدة فمزقتها وأشعلت سيجارتك، صديقتك الوفية ورحت تتمشى وأنت تغلي بين جدار وجدار. تزوجت فاكتمل عندك خيارها بالحياة التي تليق بمن يتعلق بالتفاهة والبؤس. ولم تملك سوى أن تدخن وتشتم!!. انتقلت لمدينه أخرى، فلاحقتها بتحرياتك، أجهزة رصدك، أنجبت طفلة، قلت حينها مازحا تخفي مرارتك: "كنا اتفقنا على مولود ذكر". فتحت ملفا أيضا لصاحب المركز ونبشت تاريخه علاقاته وعالمه، أخبارهما معا، لم تتخل عن اهتمامك بها. كانت صورتها المرأة الوحيدة في حياتك. مع صورتها عشت سنين وسنين، تلك هي الحياة السرية: صور من الذاكرة للمرأة الصديقة، للام، للرفيق، للرفيقة... ■

الفصل الثالث

الفصل الثالث

دماغه

لا يتوقف عن العمل وكذلك بساطيرهم وقبضاتهم طرقاً على باب بيته السري. مخبأه المعتم لم يكن اكثر من ثمانين سنتمتراً عرضاً وحوالي المترين والنصف طولاً فيما ارتفاعه متران وثمانون سنتمتراً. أرضيته مليئة ببقايا الأسمنت المتيبس قطعاً صغيرة متبقية من الجدار الذي بناه، فيما الوكر يعبق برائحة الإسمنت.

في وكره هذا كان يفكر وينتظر ويصيخ بسمعه للخارج. أشعل سيجارة ليقتل الانتظار الذي كان يرمي بثقله، انتظار المجهول. ربما مجهول حياته القادمة يكون الموت بين أيدي محققيه تعذيباً أو في زنزانته مقتولاً. فكر بالموت مراراً في أحلام يقظته متمشيا بين جدار وباب، جدار وجدار، قارئاً حيوات ثوريين عظام، متقلباً في فراشه، في إحدى المرات فلسف موقفه الخاص من الموت وتوقف عن التفكير.

بعد الموت، الممتع والذي لا تشعر به على أية حال، انك كانسان لا ترهق نفسك بالحسابات حول ما وقع ولما وقع وكيف وقع. الماضي ينعدم وهذا جيد! حسمها مع نفسه بهذه الطريقة الغريبة وأوقف أي تفكير بالموت. أما قبل الموت ، كان يحدث نفسه، فالناس تموت بسبب وبدون سبب فليبحث الإنسان لنفسه عن سبب جيد للموت. استغرق بالتأمل ومن ثم انفجر يضحك لوحده عندما قرأ خبرا مأساويا في جريدة "القدس "بسكان قرية نائية في بنغلادش دب فيهم مرض الإسهال، نعم الإسهال ! ففقدت القرية ٢٦٠ من أبنائها في يوم واحد. تخيل مأساوية المشهد فضحك من شر البلية: أناس يتلوون من ألم أمعائهم وغائطهم السائل يسيل مهراقاً من مؤخراتهم ويتساقطون تباعاً. ربما سقطوا وهم يغوطون وربما قبل ذلك. تخيل منظر أولئك البائسين والغائط السائل يتجمع تحت جثثهم الملقاة بين البيوت الطينية. أي "ميتة" تلك؟ هل تلك "ميته" وتلك عندما الفقير شهيداً خلف متراسه يصوب بندقيته لعدوه الطبقي "ميته"؟ أبالإسهال تنقضي حياة هذا الكائن العظيم الذي يستعد لغزو المريخ والاستيطان على القمر والذي بات يسير المجتمعات بالكمبيوتر والرموت؟ الإنسان عليه أن يتمسك عن سابق قناعة بخيار الموت بطريقة مشرفة تليق به كانسان. ميته إنسانية تستمد أن يذكرها الناس بعده إعجاباً لا أن يمروا عليها مر الكرام أو يتذكروها مازحين هازئين شانهم عندما يتحدثون عمن يموت غرقاً في حفره امتصاصية لتجميع الغائط أو عندما يتندرون على الذي لفرط انفعاله أصيب بالذبحة الصدرية ومضى نحبه ليلة "دخلته" عندما رأى عروسه عارية! فخسر دنياه كرجل وخسر نصف دينه كمؤمن! فلا عاش دنياه ولا كسب آخرته.

راودته تلك الأفكار كثيراً في حياته. الآن تعاوده إذ يحس الموت يقترب منه مع صوت الطرقات الوحشية. مصالحته مع ذاته فيما يتعلق بالموت جعلته لاحقا ينظر لاحتمالية "وقوعه" ببرود إلى حد ما. ماذا أتى بهم؟ هل لاحظوا حركة ما؟ هل أثار البيت الشبهة واللغط فراقبوه؟ هل متعاون معهم لمحه فعرفه ورفع تقريره الدسم؟.

دهمته تلك الأسئلة فجأة. حتى تلك اللحظة لم يخطر بذهنه أي سؤال. لم يفكر ولو للحظة بسبب قدومهم للبيت. كأن الموضوع لا يعنيه، كأن الطرقات تتوالى لا على باب بيته-وكره هو، كأن غيره من ستتغير مجرى حياته تماماً أن وجدوه قابعاً في وكره. لكنه يدرك أن السؤال يجب أن لا ينظر فيه الآن. نحى الأسئلة جانباً بسرعة من تفكيره وخاطب نفسه:

- ليس الآن أوان تلك الأسئلة. الآن شيء أهم واحد يجب أن يمتلك التفكير والإرادة وكل الحواس:الصمود في المعركة أن دارت بيني وبينهم وتحويل انتصارهم باعتقالي لخسارة لهم بصمودي وحماية الحزب والرفاق والأسرار.

وضغط على أوراقه بين يديه جيداً.

هيء نفسك يا كنعان لمرحلة جديدة تتطلب تحد جديد. الهام الآن يعرفوا- كما عرفوا مراراً- ما معنى التورط مع حزبنا وثواره في أقبية التحقيق.

ويستمر الطرق شديداً وهو قابع في وكره الحجري المعتم، يقبض على أوراقه بين يديه، يصغي السمع ويفكر. أشعل سيجارة ثانية. يحاولون تحطيم الباب فقد كان يسمع صوت هراوات حديدية ثقيلة تهوى على الباب فتحدث دوياً هائلا يتردد صداه أكثر فاكثر. الباب يستعصي عليهم، سيتبقى أمامهم الباب الداخلي بعد أن يخلعوا هذا وهو حديدي أيضا. شعر بالفرح إذ يعانون، فطالما أتوا لاعتقاله فعليهم أن يدفعوا الثمن وقد بدأوا يدفعونه معاناة ومكابدة في فتح أبواب البيت. دائما كان يتساءل عن ذلك السلوك الشعبي: فتح الأبواب للمحتلين. ليفجروها، ليقتلعوها لكن لا يجوز أن نفتحها بأنفسنا. أنفتح الباب لمن جاء يسرق حريتنا ويسوقنا لأقبية التعذيب؟ أنفتحه لمن جاء يأخذ الابن من حضن أمه، الأب من أطفاله والمرأة من وليدها؟ إن ذلك-كما اعتقد دائما- كان بالنسبة له نفحة من "كرم عربي" تعكس الرهبة والخوف ينبغي التخلي عنها وزرع قيم التمرد والتحدي.

تلك كانت أولى خطواته على طريق التحدي الطويل والخطوة الثانية والثالثة سبق وقررها وكل واحدة بموعدها. هم أقوياء بجنودهم، بأسلحتهم، بكل سجونهم، هراواتهم وعتلاتهم، باختصاصهم في الاستخبارات والتحقيق.... بكل ما

يقف الآن هنالك على عتبة منزله، بكل ما يستنفرونه ويوظفونه في التحقيق معه أن اقتنصوه. دولة علمية وعصرية تستثمر كل ذلك في ملاحقة وتصفية النشاط الثوري، في التحقيق مع المعتقل ويعيدون النظر باستمرار في أساليبهم وطرقهم، يعدلونها، يطورونها ويغيرونها جذريا إن تطلب الأمر بغية نجاعة افضل في ملاحقة المناضلين واعتصارهم. كل كذلك قوة لهم ولا شك.

كنعان يدرك ذلك من تجربته ومن تجارب العديد من المناضلين، من تحليل تجربة فصائل المقاومة، لكنه كان يدرك فوق ذلك وقبله، أن المناضل قوي بنفسه، بقناعاته، بإرادته، بثقته في نضاله، بإيمانه بعدالة قضية شعبه وبثقته بان شعبه وحزبه ورفاقه يتضامنون معه وهو في الخندق المتقدم. كل ذلك يشكل مقدمات تحديه وصموده، فأيهما افضل بالتحليل النهائي؟. القوى بالعوامل المساعدة أم القوى بذاته؟. كان يعلم علم اليقين أن حزبه سيكون معه هناك أن اعتقل، سيكون حيث يكون في ساحة الشبح، في غرفة التحقيق، في الزنزانة النتنة سيكون هناك في لحظات الحاجة له. يدرك الأهمية الحاسمة لذلك في تعزيز عوامل القوة والتحدي ولكنه يدرك أن عليه أن يقاتل وحده نيابة عن الجميع، عن رفاقه وحزبه وشعبه، منفردا ووحيدا إلا من إرادته وتضامن رفاقه مثل ذلك الجندي الذي طلب إليه أن يدافع عن خندقه المتقدم وحيدا.

- التحدي والإرادة هما كلمة السر. لا شيء آخر.

كرر بينه وبين نفسه تلك النتيجة المقررة لديه منذ سنين، كررها مع ذاته، قابضا على أوراقه يصغي السمع، يفكر ويدخن. سبق وقررها وهو يتمشى بين جدار وجدار، نافذة وجدار، بين باب وجدار وهو يجلس على طاولته وأمام أوراقه، وهو يدخن متأملا جالسا على سريره في عتمة الليل.

أشعل الولاعة ونظر لساعته التي لم تفارقه منذ خمسة عشر عاما: الواحدة وعشرون دقيقة بعد منتصف الليل. أكثر من ٣٠ دقيقة على شروعهم بطقسهم البدائي، على مصارعتهم الباب بهراواتهم وعتلاتهم الحديدية. ما أن تطلع للساعة حتى تناهى لمسامعه طرقات من نوع أخر. أصواتها أخف قليلا وأبعد قليلا. حبس أنفاسه فاغرا فاهه ليسمع جيدا. شتم شتيمة مقذعة والأسى يلفه وانفعاليته تزداد. توقع أين موقع الطرقات الجديدة فأحس بقلبه ينخلع من مكانه. أذناه لا تخونانه، فهما بحكم الدربه والمران في سنوات حياته السرية غدتا كالرادار. تأكد مما يسمع فشتم من مخزونه الذي لا ينضب مرة أخرى.

- ضربتان على الرأس توجع اكثر.

فكر بصوت مسموع وتنهيدة طويلة متحسرة تسبق تفكيره.

- رفيق. رفيق كنعان.

جاءه صوت هشام من خارج الوكر بعد أن فتح باب الخزانة همسا، لكن مسموعا. كانت الانفعالية بادية في نبرته.

- نعم. ماذا هناك؟
- اعتقد انهم يطوقون البيت الآخر ويحاولون خلع بابه. الأمور غير مطمئنة!.

تأكد من ذلك فأذناه لا تخونانه. هشام يدرك ما معنى اقتحام البيت الآخر لذلك يسارع لتبليغه.

- هشام. ما تقديرك؟ كم سيأخذهم من وقت حتى يخلعوا البابين؟.
- بالحد الأدنى ساعة. سأذهب لأرقب حركتهم. كيف أحوال مغارتك؟ بالمناسبة حول البيت ثكنة عسكرية. كأنهم أعلنوا الحرب !.

هذا هو هشام في احلك اللحظات يجد متسعا للمزاح وإضفاء طابع من المرح على الأحداث. حدث كنعان نفسه.

- نحن نستحق إعلان الحرب علينا يا رفيق، فلسنا بقلائل، مغارتي ارجح أن تصمد في الامتحان وان لا يذهب تعبي ببنائها سدا . تأكد من وضعية الرف إياه، وإغلاق الخزانة جيدا قبل أن تذهب.

ثكنة عسكرية حول البيت! هذا يعني الكثير بالنسبة له، عن سبب قدومهم. ليست المسالة قطعا ملاحقة ضارب حجارة أو مشعل إطارات سيارات بل وحتى ليست ملاحقة لملقي زجاجات حارقة. دائما كانت أحداث كهذه تحدث في أحياء سكانها وبالنظر لطبيعة تحرك الجنود وتمركز شاحناتهم كان يمتلك بالتجربة القدرة على تقدير حجم الحدث.

ما أن شارف عام ١٩٨٣ على الانتهاء حتى كانت نتيجة الصراع بين الأضداد تحسم تدريجيا، ومع توالي الشهور لصالح الـ "نحن"، العقل، متطلبات العمل والنضال. جسمه نحف كثيرا في سنته الأولى من تجربته. دماغه المرهق، توتره الدائم لشهور وشهور، أرقه المستمر والمدخنة المنطلقة من فمه بفعل ثلاث علب من السجائر يوميا، كل ذلك أفقده شهية الأكل. ليس اكثر غرابة ولا إنسانية من تناول الإنسان لطعامه وحيدا!! لا يذكر انه في حياته العادية فعل ذلك اكثر من مرات معدودة. الآن ومنذ شهور وشهور وهو يعيش تلك الغرابة. ما أن اجتمعت الوحدة القاتلة مع التوتر والإرهاق، حتى تحول الأكل إلى عادة بيولوجية يومية لا اكثر، فقط لحفظ الحياة، دون رغبة حقيقية للقيام بها، دون متعة القيام بها.

طلب من رفاقه أن يأتوه بحبوب منومة ليتغلب على أرقه، رفضوا أن يجيبوه لطلبه.

- دعك من هذا فهي مضرة لصحتك. اهدأ وستنام. اقرأ قبل النوم فترهق عينيك وتنام.

كان إذا طلب النوم، تدلل هذا كامرأة مغناج فتحولت محاولاته لجولات صراع مع ما يطحن دماغه، مع "أنا" الذات المهتاجة، مع احتياجاتها ورغباتها. ينقلب يمينا فيتذكر أمه ووحدتها بعدما تركها، ارتاح لمراسلتها قبل سفرها لكن تبكيت الضمير يؤرقه، فيتعب عقله ويؤرقه وجدانه. في اكثر لحظاتها احتياجا له، أضطره النضال لأن يتركها. ينقلب يسارا فتحضره منى وذكرياتها، يتخيلها، يتمناها ويطلبها فلا يجد سوى صور وذكريات بدأت مع الشهور تبهت ويضعف وهجها. يحاول رسم صورة وافية لها في خياله، وجهها، عينيها، شعرها، فمها، شفتيها، قوامها، طريقة حديثها، ابتسامتها، مشيتها ... فيجد بعضا من ملامح الصورة قد بدأ ينمحي، يجلس على السرير مدخنا ويتمشى بين جدار وآخر فيصده الجدار بصمته. يقف عند النافذة مستغلا غياب إم عيسى عن بيتها ليرقب المارة، يتأمل أشجار الحديقة فيسرح تأمله في عالمه خارج البيت، ذلك العالم الذي أدار ظهره له. يقضي نهاره متوترا ومزاجه 'قلبا وليله أرقا حتى الصباح، ما بين التقلب على السرير أو الجلوس عليه أو متمشيا في عتمة الليل حتى يهده الإرهاق فينام متعبا. ومن خلال كل ذلك ومعه تبدأ وقائع جديدة تفرض نفسها. يا للزمن وما يفعله؟ انه لقادر على محو كل نتوءات وتشققات النفس الإنسانية التي سببتها الصعوبات وأوجدتها كأوراق طفيلية. انه الجراح الأمهر عبر التاريخ القادر على رتق أي جرح مهما كان عميقا.

الحزب يمتص نتائج الهجمة فتعود الحياة لتدب في أوصال خلاياه، تستقر أوضاعها، يعاد ترتيب الاتصالات وضخ الدماء في شرايين العمل. يبدأ كنعان بالاندراج في مهامه. يساهم بالقرار، يتلقى توجيهات، يخاطب، يحاور، يجادل، يكتب، يقترح وينتقل من هناك لهناك إما لاعتبارات العمل أو لاعتبارات أمنه وسرية حياته واجتماعاته. يبدأ العمل باستهلاك جزءا من ساعات يومه فيشعر بأهمية مكوثه بين الجدران بعيدا عن عيونهم وأيديهم، انتاجيته تزداد فيشعر بعنفوان تجربته فتكتسب مواقفه وتصوراته ملمسا آخرا تشكله ثورية الواقع والتجربة. بات مع كل يوم جديد يشعر بقيمته الحزبية والثورية فبدأت التجربة تكتسب معناها الذي غاب مدى شهور وشهور ولكنها من جهة أخرى تأتيه بما ينبئه أن الاستقرار اليومي في هكذا حياة غير مضمون- وان اللاإستقرار هو قانون التخفي.

ذات يوم في بداية عام ١٩٨٤ جاءه رفيقه مسرعا وعلى وجهه إمارات الجدية.

- يجب أن أخرجك من هنا. هناك من أشك بأنه يلاحقني. دققت عندما قدمت إليك لكن الاحتياط ضروري.

حدثه بالتفصيل عما حمله على الشك. وجه غريب على المدينة يستمر في التحرك في شوارع المدينة وتحديدا في شوارع محددة هي المحيطة بميدان المغتربين ويظل يتطلع ويرقب. سار خلف رفيقه هذه الليلة فيما الأخير تعمد أن يقوده خلفه بعيدا عن خط سيره التقليدي وهو يتوجه للوكر، ثم موه عليه وافلت منه.

حمل أغراضه وخرج مع رفيقه صعدا نحو تخوم مخيم قدوره. كان بعض الطلبة الأصدقاء للحزب يقطنون في شقة صغيره هناك. طلب الحزب إليهم أن يخلوا الشقة ليومين فوافقوا، لم يكن الحزب حينها يملك وفرة من البيوت السرية. خرجا وسار رفيقه أمامه تحسبا لطارئ كيما يمكنه تحذيره.

عند التاسعة ليلا وصلا للشقة الصغيرة التي تقع في الطبقة الثانية من منزل مكون من ثلاث طبقات. أوصله رفيقه ورحل. دخل كنعان الشقة، كل ما فيها يعلن أن ساكنيها طلبة، فرش قليل وبائس، الفوضى ضاربة أطنابها، الأوساخ بدت طبيعية كما لو أنها جزء من البيت!. كان المنزل محشورا وسط كم من بيوت المخيم الصفائحية، فلا تكاد تقف عند نافذة الشقة حتى تجد نفسك وسط حشد شعبي فاعل وصاخب: تلك تنشر غسيلها وتوزع ثرثراتها على جيرانها، وأولئك يتحلقون حول كؤوس الشاي يتصايحون متناقشين في قضايا خاصة، أطفال طوال النهار يتقافزون بين البيوت ومن على أسطحتها، والأزقة ملأى بالمارة. كان بيت كنعان من تلك البيوت التي لا يمكنها أن تصون خصوصية ساكنيها، شأن بيوت المخيمات كلها.

- كم سأمكث هنا؟ انه بيت نموذجي في عدم صلاحيته للتخفي. سينفضح أمري خلال أسبوع هنا إلا إذا جلست طوال النهار لا أتحرك.

فكر كنعان وهو ينهض من النوم في يومه الأول ويتطلع من نوافذ وكره متفحصا أين يقيم. ولكن أقامته فيه لم تتم.

عند السابعة مساءا كان يجلس والغرفة مضاءة ويستمع لإغنية لام كلثوم في المذياع. مقلبا الكتب العديدة الموجودة في البيت. سرقه انهماكه في تفحص الكتب عن الانتباه لصوت المذياع العالي. صوت الجرس الكهربائي يرن. اغلق مفتاح المذياع وكمن مكانه لا يتزحزح.

- افتحوا أنا أم محمود. ايمن افتح. ايمن.

كان واضحا انه صوت صاحبة البيت. لم يفتح. عادت تكرر صيحتها المنبئة بتصرف ارعن من جانبها:

- لماذا لا تفتحوا، أنا أم محمود..

اتضح لكنعان أنها لن تتزحزح فقد سمعت صوت المذياع، وأن لم يفتح تثار الريبة في نفسها.

- الله وحده يعلم ماذا ستفعل. ستجمع سكان المخيم بزعيقها. قرر أن يفتح، صاح:
- نعم، نعم. أنا قادم. فتح شراعة الباب الرئيسي.
- مساء الخير. لماذا لا تفتح؟. كانت امرأة شكسة!
- مساء النور، إلا تصبرين كنت في الحمام.

حاول أن يروع اندفاعها بصوته الحازم. كانت تتطلع إليه متفحصة. مرت ثوان وهي تتفحصه ثم ألقت بقنبلتها:

- ألست أنت ابن أم ... أنت تشبهها. أنت الذي يبحثون عنه؟.

فجرت نباهتها في وجهه فأوقعته في ارتباك لحظي، استدركه سريعا:

- من هذه أم .... ؟ ماذا تقولين يا أم محمود؟ يخلق من الشبه أربعين، أنا من القدس جئت عند ايمن لندرس معا.
- من القدس؟. سألت باستنكار يعكس عدم قناعتها وتابعت:
- الوجه هو هو. طيب. هذه فاتورة الماء أعطها لأيمن. ذهبت واغلق الشراعة.

أخذ يتمشى مضطربا. عرفت الشبه بأمه لذا سريعا ينبغي الرحيل. عجائز البيرة يعرف طباعهن. تأخذ الواحدة منهن بملاحقة ما تريد معرفته بإصرار ذبابه وما هي أيام وحتى ساعات فتكون الألسن تلهج متلذذة بالقيل والقال. لقد طورت التجربة التوجيه فاصبح **"لا تزر أحدا، لا تستقبل أحدا، لا تفتح شراعة الباب لعجوز بيراوية".**

بعد ساعتين كان رفيقه يسير أمامه وهو يتبعه باتجاه أحد الأحياء الواقعة شمالي البيرة، قاصدين بيتا سريا للحزب تملكه امرأة تدعى سكينه. عندما اقتربا من البيت ودخل كنعان شارعا فرعيا يؤدي له، إذ به وجها لوجه أمام عائلة صديقة لعائلته، رجل وزوجته ومعهما ابنتهما التي تدرس أيضا في جامعة بيرزيت!! ما كان بينهما سوى أمتار. قرر كنعانّ أن يوصل رسالته لهما بطريقته التي كان قررها لطوارئ كهذه: حالما اقترب من العائلة أدار وجهه متعمدا لجهة البيت الواقع بحذاء الشارع. الرسالة واضحة: لا أستطيع التحدث معكم وعليه لا تأتوا على ذكر اسمي. تجاوزهما وهو يفكر برفيقه كشاف طريقه الذي يفترض فيه أن يحذره في هكذا حالات!! رفيقه كان سار في الشارع الآخر غير الذي ساره كنعان، فتأخر وإذ بكنعان يصبح كشاف الطريق لرفيقه!.

- لينبه الرفاق العائلة التي صادفتني بالتكتم خاصة المرأة. هي ذكية وتفهم خطورة الموقف ولكن قد يفلت منها كلمة هنا أو هناك.

أبلغ كنعان رفيقه وهو يودعه بعدما وصلا لبيت سكينه. بعد يومين جاءه من الحزب "أن الوجه الغريب على المدينة" لا شبهات حوله، بالإمكان العودة لبيت إم

عيسى. عاد أدراجه محددا مع كشافه هذه المرة، طريق السير بالضبط شارعا شارعا!.

ومع اندراجه في العمل بدأت حياة كنعان مطلع عام ١٩٨٤ تنساب وفق نسق جديد يبعث على الاستقرار النفسي اكثر فاكثر. انتقل لبيت سري جديد مشمس وصاحبه لا يحشر أنفه بشؤون المستأجرين عنده، فأراح هذا التطور تدريجيا ٢٤ ساعة بين الجدران.

ينهض صباحا عند التاسعة، يفطر ويبدأ بالعمل حتى الظهر. كان العمل الحزبي قد بدأ يتشعب ويطلب المزيد من الطاقة، منظمات تترسخ اكثر فاكثر وقاعدة جماهيرية تتسع فيما ملامح المنظمات الديمقراطية تتضح يوما بعد يوم والعمل يحتاج لأقلام تكتب وتكتب فأصدر الحزب جريدة "التقدم" الطلابية الشهرية. عند الظهر يسرع باعداد طعام الغذاء، استهلك وقتا مرحا ممزوجا بالقهر وهو يحاول أن يتقن فنون الطهي النسائية: أرطال من الأرز فقدها حتى تمكن من تناول أرزا مطهيا بشكل جيد، لا كتل معجنة لا شكل لها! كميات من الملوخية فقدها وهي تثور كالبركان فتندلق من القدر حتى اكتشف أن قدر الملوخية الموضوع على النار لا يغطى!!. ينام بعد الغداء لينهض من جديد فيعود للقراءة والكتابة. بين العمل والطهي وفي لحظات الملل التي تدهمه يستمع للمذياع أو يغني مع الشيخ إمام:

أن جعنا شبعنا بتتقضى ما نبعش الكلمة بميت فضه

هو احنا كده وحنبقى كدهصاحيين فاهمين على مين مع مين

دايما صاحيين مش من دا ودا

هو إحنا كده وحنبقى كده

أو يقف عند النافذة يراقب المارة ويتأملهم. لا يمكن لمن يحيا الحياة السرية أن لا يعتاد التلصص من نافذة بيته! تلك عادة مستحبة وان كانت مستقبحة لمن يحيا حياة عادية. إضافة لفوائدها الاجتماعية بإحساسه انه جزء من الحياة، فلها فوائد أمنية جمة. فكم يمكن الاستفادة من ملاحظة جار أو سماع ثرثرة نسائية أو للتدقيق بعابر سبيل أو التحرش بطفل أو استجوابه.

ليلا كان التلفاز يقدم خدماته الجليلة، يسلي ويربطه بالتطورات والأحداث. ومتابعة مسلسل أو فيلم سينمائي يريح الأعصاب المتعبة ويخلق المتعة ناهيك عن دوره في تنمية الذائقة الفنية والجمالية خاصة أن كان عملا فنيا يملك الخاصية الفنية والجمالية!.

وما بين الاندراج بمهام النضال والتي كانت تتوسع وتزداد مع توسع مجالات العمل الحزبي وازدياد أعباء النضال وانسياب حياته اليومية وتضامن

ورعاية رفاقه، بدأت تجري حياته وفق تقاليدها الجديدة لتطبع حياته بطابعها. من قال أن الطبع يغلب التطبع؟. لقد اكتشف كنعان بتجربته سخافة هذا المثل الدارج ومعاكسته لمنطق التطور والتغير، فالإنسان يمكنه بالجلد والتحمل أن يتطبع بما يعاكس طبعه، يمكنه أن يستجيب، أن يتسلح بالإرادة للمتغيرات الجديدة في حياته، فيتحول التطبع هذا إلى طبع جديد فيما الطبع القديم لا يسهل العودة إليه. انه منطق التغيير الدائم وهو الثابت الوحيد والمطلق والإنسان ليس بمعزل عن هذا المنطق.

كان يطوي الشهر تلو الشهر وفق منطق حياته الجديدة ولكن الذات لا تتخمد بعد نهائيا!!. وهل يتوقع لها ذلك؟ هي إنسانيته فكيف تنزاح إنسانية الإنسان فيه؟ لكنها الآن حين تضغط مطالبة باحتياجاتها ورغباتها لم تعد تتمترس خلف متراس متسلحة ببندقية تطلق رصاصاتها على العقل، كانت تتبرم وتتشكى فيسمع لها، يحاورها بهدوء فإن لم تتصاع أخرسها بفظاظة. يتذكر منى فيشعر بالمرارة والخسارة فيتدخل العقل:

"طيبة ومحبة وودودة نعم، أحببتها بجنون نعم، لكنها ضعيفة وضعيفة جدا. مدرستها، بيتها، سحقا ليس لديها القدرة على التمرد، على بناء شخصية مستقلة، شخصيتها طيعة ومنقادة لا تحتمل الهزات والصعوبات والتمرد والجنون. كيف يمكن لمناضل مثلك يحيا التمرد أن يرتبط بمن يرهبه ويخشاه ولا يقوى عليه؟ نضالك لا يسمح بالارتباط بمن ستتحول لعبئ عليك وذلك متعب لها أيضا، سيسحقها ويدخلها في تجربة لا تقوى على خوضها. ما جرى طبيعيا فمن لا مكان للتمرد في حياته يصعب عليه أن يرتبط بتجربة الحياة السرية".

يشعر بالأسف لأنه لم يستطع إكمال تحصيله العلمي هو الشغوف بالمعرفة:

"يد المناضل في أحيان كثيرة لا تستطيع حمل بطيختين. يجب وضع واحدة جانبا. ظروف النضال تطلبت وضع بطيخة الدراسة جانبا. أنت جزء من حركة ثورية فقيمتك في الحياة هي بقدر ما تقدم لتلك الحركة وهذه التجربة. تستطيع تغذية شغفك بالمعرفة في الحقل الذي تشاء، هنا بين الجدران دون الحاجة للجامعة".

منذ الصباح الباكر في أحد أيام صيف سنة ٨٤ كان يجوس بيته كنملة في مملكتها. رتب الغرفة التي يستخدمها في البيت، نفض الغبار عن كراسيه وتلفازه وسريره وطاولته، لمع حوض غسل الأواني وكذلك الطباخ. فتح الثلاجة ونظر لمحتوياتها: كانت عامرة اكثر من طاقة استهلاكه هو الذي يعيش وحيدا. لحوم بأنواعها، خضار وفواكه، أجبان وألبان وعصائر وسلع ما فكر يوما أن يشتريها!! كان يمكنه أن يعيش شهرا بأكمله على هذا التموين. ما اعتاد سابقا أن يشتري تموينه لأكثر من أسبوع، ما اعتاد هذه الحمى من النظافة! ذلك اليوم لم يكن مثل أي يوم

منذ عرف طريقه للأوكار قبل سنة ونصف، ذلك اليوم ينتظر ضيفاً ما احتفى ولا سيحتفي مستقبلاً بمثله.

لذلك نهض مبكراً من نوم أرق متقلب متعجلاً انبلاج الصبح، بعد يوم شاق قضاه في تنظيف أرضية البيت بالماء والصابون حتى أنهكه العمل. حتى بقية الغرف والشرفة الزجاجية الخالية من الأثاث لعدم استخدامها، نظفها دون أن ينس كذلك زجاج النوافذ. أنهى عمله عند الساعة الثامنة والنصف صباحاً، نظر لساعته وكان بقي نصف ساعة على وصول ضيفه. حلق ذقنه واستحم ولبس افضل ما عنده ووقف عند النافذة يتطلع للشارع المؤدي لوكره على رأس التلة وحبات السبحة تطقطق بين أصابعه بسرعة "كيف سيكون اللقاء؟ آه كم اشتقت لك!". فكر وشعور بالشوق تجاه ضيفه يمتزج بالشفقة عليه وبالخجل من القصور نحوه ومن الفرحة لقرب معانقته. كان ينتظر أمه التي عادت من السفر. الحزب ابلغه بعودتها بعد أسبوعين من وصولها، وأتبع التبليغ بقراره بالتقائهما فكاد يطير من الفرح، إذ في أمس لحظات الحاجة لها سيراها، ذاته تطلبها وتطلبها والآن ستتحقق رغبتها فيشاع الاستقرار في نفسه. ترك الحزب له ولرفاقه ترتيب الأمر الذي تم بصورة محسوبة وسريه: بعث لها برسالة يحملها رفيق لا تعرفه ومن خطه الذي تعرفه جيداً ومن ذكر بعض ما يعرفه هو وهي فقط، كان يمكنها الثقة أن الرسالة وحاملها ليسا جزءا من ألاعيب المخابرات. طلب منها أن تسير في شارع فرعي يفصل مدرسة "الفرندز" عن ملعبها بين الثامنة وخمس وأربعون دقيقه والتاسعة صباحاً، في هذه الفترة يلتقطها رفيق بسيارته التي تعرف أوصافها من الرسالة. على رفيقه أن يدور ويدور في شوارع عدة قبل أن يأتي بها للوكر، متلما عليه أن يراقب الشارع الذي تسير فيه قبل أن يركبها السيارة.

كان وهو يصيغ رسالته لها يشعر بالإشفاق عليها إذ يدخلها دهاليز الترتيبات السرية المضبوطة بمواعيد دقيقة وأوصاف وإجراءات محددة. ذات الشعور الذي أحس به قبل سنه عندما كتب رسالته لها. كانت تدوس عتبة الستين من عمرها وقد بدأت تلج هذا العالم الغريب كلياً عليها، لكنه كان يثق بذكائها والتزامها بما يطلبه منها، حرصاً عليه من الخطر. ليست شأن النساء اللواتي لا يعرفن من دنياهن سوى الزوج والأطفال وثرثرات العجائز، تملك قسطاً بسيطاً من التعليم، تكتب وتقرأ جيداً، سافرت اكثر من مره فاكتسبت بعضاً من تجربة الحياة، وتدرك بحكم أجوائها العائلية منذ سنين ما معنى أن ابنها "متورط" في عمل سري على حد تعبيرها الغاضب. تملك الحد الضروري من المعرفة التي تجعلها تحسب حساب خطوتها كي لا تؤثر على حياه ابنها، لذلك كان يثق بأنها ستلتزم تماماً ليس فقط بتعليمات الاتصال بها والتقائهما بل وبعلاقتها به منذ الآن وصاعداً. خبرت طريقها للسجون كثيراً وواجهت ضباط المخابرات اكثر من مره، رأته يدس أشياءه

الممنوعة في مخابئه داخل وخارج البيت وداخل ملابسه عندما يخرج. كانت منذ سنين قد بدأت تلامس عالمه السري، تتذمر، وتزجر وتغضب وبذات الوقت تعطف وترق وتحنو. وعندما يلوح ما تعتقده خطرا حقيقيا كان أم متوهما تفعل ما يجنبه ذلك. ما رضيت يوما أن يعرف صغيرها طريق السياسة ولكنها أمام إصراره سلمت أمرها لربها مع دعاء له بان يرضى عنه.

عند التاسعة وأربع دقائق بدأت السيارة المنتظرة تصعد التلة نحو وكره. خفقات قلبه تتسارع وارتعاشه خفيفة بدأت تسري في أطرافه، وقف عند الباب ينتظر أن يفتح رفيقه، صوت المفتاح يدور في القفل، الباب ينفتح فتتلقفه بين ذراعيها بلهفة أم لاقت ولدها الضائع، أمطرته قبلا على خديه، احتضن رأسها بقوه بين ذراعيه، أخذه نحو صدره. كان يتحسس ارتعاشه شفتيها وهي تقبله وتحبس دموعها بصعوبة، دائما كانت تحبس دموعها أمامه لتقويه. ما بكت يوما في المواقف الصعبة: وهي تزوره في الأسر، عندما عاد للبيت فقبلته تواسيه ووالده مسجى في تابوته، يوم ودعها قبل عام ونصف وخرج، وهذه المرة ما أخلفت وعدها مع رباطة جأشها، تبكي منفردة حين يتوسد رأسها مخدتها لتنام ولكنها أمامه لا تفعل.

- ادخلا بسرعة كي لا يراكما صاحب البيت. سأذهب لأعود في الرابعة.

نبههما رفيقه إذ كانا يقفان والباب مفتوحا على مصراعيه. دخلا ورحل هو.

- أقعدني، أقعدني. قدماي لا تحملانني، الله يلعن أبو يومك. كيف أنت؟

قالت بحزن وألم وارتعاشتها بادية لاضطرابها، ولعنتها حبها الجارف المغلف بغضب شكلي.

- اهدئي أولا، سأحضر لك عصير البرتقال لتهدأ أعصابك.
- دعني من العصير، احكي كيف أنت؟ كيف تعيش؟ ماذا تأكل؟ ماذا تشرب؟ إلى متى هذه الحياة؟

أمطرته بوابل من الأسئلة التي تحتاج منه لحديث ساعات ليجيب عنها! كانت كثيرة التلفت تكتشف ما حولها، مضطربة، لم يملك إلا أن يبتسم فرحا بها أو يتلك "الإستجوابات" اللحوحة التي تتقنها. إنها أمه التي اشتاق لاستجواباتها وإلحاحها وزجرياتها!. وللتخفيف عنها قال:

- لو أجبت عن كل أسئلتك هذه دفعة واحدة لما بقي شيء نتحدث عنه.

مازحها كعادته، كان يهوي ممازحتها خاصة عندما تتناول اكثر المسائل جدية في حياته. يفعل ذلك أما ليشعرها أن لا جواب لأسئلتها، أي عوضا عن الجواب الزاجر "لا تسالي" شأنه معها عندما كانت تسأله عن وجهته عندما يخرج ليلا لأحد الاجتماعات السرية، فلم يكن ليقل سوى "ذاهب لأتمشى باتجاه حيفا وأعود!" تسكت! أو ليقلل من خطورة ما تسأله عنه فيبعث الطمأنينة في نفسها .

كرر هذا طوال سنيه الماضية منذ عرفت قدمه طريق السياسة وتورط حسب تعبيرها، حتى أدركت الاعيبه وما كفت عن اسئلتها!!.

- الحكي لا ينتهي. احكي. احكي بسرعة!

بدأ يحكي وهي تقاطعه. ما أن يبدأ بجملة حتى تقذفه بسؤال أو تفتح موضوعا آخر. كان يجلس بقربها على السرير ولم تترك شاردة أو وارده إلا أتت عليها، حتى غسيل ملابسه الداخلية أدلت بدلوها حول الطريقة الأمثل لتنظيفها. تلذذ برائحة الأم المميزة، لكم اشتاق أن يشتم رائحتها ويقبل تجاعيد وجنتيها ويلقي برأسه المثقل على صدرها فتداعب شعره الخشن بأصابعها وتقول جملتها المتكررة دائما "شعرك مثل شعر الخيل". تحققت الآن رغباته فنسى في يومه ذاك اختفاءه، نسي المتطلبات، القواعد، التحوطات والإجراءات ..... نقلته إلى عالمها خارج السرية وبيوتها، إلى بيتها وعالمها هي المليء بالاستجوابات اللجوجة والحنان المتدفق والتفاصيل الصغيرة التي تتقن الأم تناولها.

- والآن خلينا في الجد (تنبهت جيدا وتابع) أن قلت لك أن حياتي رائعة فسأكذب، لكنني سعيد لأنني أعيش حسب قناعاتي ومبادئي ولا أريد منك سوى شيء واحد: أن تسنديني بأن تكرري ما قلتيه ليلة مداهمة البيت "رح يا بني الله يرظى عليك"! فهي عندي تساوي الدنيا. إلا تريدينني رجلا تفخرين به وبأنك أنجبته؟ فافخري الآن. إلا تريدينني سعيدا ؟ أنا سعيد. حتى متى أبقى هكذا لا اعرف ولا أفكر فيه.
- سعيد وأنت بين أربعة جدران؟ سالت مستنكرة.
- السعادة أن يقتنع الواحد بنفسه وأنا مقتنع بنفسي. أنا سعيد وأنا أناضل وهذا يكفيني.

كانت تسمع له وتهز رأسها ونظرة استسلام في عينيها.

- ومني؟ خسرت هذه البنت الطيبة. فسخت خطبتها. دريت؟

نكأت جرحا ما اندمل واستحضرت صورة ما انمحت جزئياتها بعد تماما.

- ما خسرت. هي التي خسرت.

وكان بينه وبين نفسه يعلم علم اليقين حجم خسارته. منذ سنه ونصف وهو يعلم هذا يوما بيوم.

- بنت طيبه. خسارة عليها. عادت تقول وكأنها تحدث نفسها بلهجة تعبر عن اسفها.
- اعرف إنها طيبة واعرف أنها أيضا ضعيفة. تحب في زمان السلم وتهرب في زمان الحرب. نحن في حرب. وطن محتل وتريدني أن أتصرف وكأنه لا يعنيني.

طافت البيت غرفة غرفة. تعرفت على بيت ولدها.

- ها. عندك بيت وأنا أزورك فيه.

استشعرت التغيير في حياته وعلاقتهما معا. لقد كبر آخر عنقودها! دخلت المطبخ وارتاحت لوجود طباخ وفرن كهربائي. فتحت الثلاجة فانفرجت أساريرها عندما رأت ما بداخلها. رفعت حواجبها تعجبا:

- والله ثلاجتك مليئة؟ هل تطبخ جيدا؟ تعال انظر ماذا أحضرت لك، أين الكيس؟ هل نسيناه في السيارة؟

سألت سؤالها الأخير ولطمت على خدها!.

- هو عند الباب تركته هناك. ماذا حملت معك؟ قلت لك في رسالتي لا تأتي بشيء لست بحاجة لشيء.

لم تتوقف لتسمع بقية كلامه الحانق، إذ لا يعنيها بشيء. كانت ذهبت لتحضر الكيس فتحته وبدأت بإخراج ما بجوفه: صرر صغيرة كتلك التي يحملنها العجائز في القرى تحت أحزمة أثوابهن الشعبية لحفظ النقود. واحدة تحوي قطع جبنه بيضاء بلدية، أخرى تحوي أقراص "الملاتيت"، ثالثة بضعة باذنجانات مخللة، رابعة وخامسة وعاشرة .... في داخل نفسه فرح لهداياها الصغيرة فهي أشياء أما لا يتقن صنعها أو ببساطة نسيها. ولكن ما أن أخرجت كيسها الأخير-صرتها الكبيرة- حتى صاح بحنق:

- دجاجة! دجاجه! خافي الله ! المدينة ملأى بالدجاج. هل تحملين دجاجه؟ هل تعتقدين أنني منذ سنه ونصف لم آكل دجاج؟.

فقد أعصابه إذ صاح بها. آلمه أن تتعب نفسها.

- يا بني الله يرضي عليك. هذه دجاجه بلدية من عندنا. حساؤها احسن من لحمها. احشها تنفعك، أنا نظفتها، يعني جاهزة لتطبخها.

قالت بانكسار هده، تحدثت بلهجة تنم عن جزعها من صياحه. تمنى لو قطع لسانه قبل أن يصيح بها بنزاقة وفي لقائهما الأول!.

- لأدعها تعبر عن أمومتها بأشيائها الصغيرة، طالما يسعدها ذلك لأتركها. أي شيطان أحمق ركبني.حدث نفسه وقال لها معتذرا:

- حقك علي، لا تتضايقي. طالما بلدية ومن عندنا تستحق لا أن تحمل فقط بل أن أقيم لها مهرجانا سياسيا كبيرا. دجاجة بلدية وتحشى بما لذ وطاب، إنها هدية حقيقية.

وقبلها. فرحت وابتسمت

- احشها جيدا. أخطها جيدا حتى لا يخرج الأرز وفي هذا الفرن حمرها.

تغذيا معا، نهض ليأخذ الأطباق فسارعت تحسم الموقف: اقعد!. فامتثل وجلس. غسلت الأطباق والصحون، نظفت الحوض والطباخ.

- ماذا تريد أن اصنع لك؟ معنا ٣ ساعات حتى يأتي الرفيق ماذا اطبخ لك؟.
- اعرف أن اطبخ. اجلسي لنتحدث. بصعوبة أقنعها.
- طيب متى سأعود إليك؟
- متى ما تريدين. فقط رتبي مع الرفيق الذي نقلك لأجهز نفسي كي لا يأتي أحد إلي وأنت هنا.
- لا تضغط على حالك. أنت ووقتك. علقت بلهجة مستسلمة تماما.
- لدى من الوقت لاستقبلك يوميا، لكني لا أريد أن تكون حركتك، اعني خروجك من البيت موضع تساؤل مريب من العائلة. المهم بعض القضايا يجب مراعاتها حرفيا.
- ما تريد. قالت وانتظرته ليكمل.
- تحت أي ظرف من الظروف لا أحد يعلم عني شيئا وعن لقاءاتنا. ما أخبار كنعان لا ندري. "كلمة بت احسن من عشرة لت"، هذا يضمن أن ينسون اسمي. (كانت تهز رأسها موافقة) لا تأتي إلي وحدك نهائيا أي دون ترتيب مسبق. مهما سمعت من هنا ومن هناك لا تأتي. تذكري ما فعلوه معك بعد شهور، كانوا يتوقعون انك تعرفين مكاني فتكوني الفخ الذي أقع فيه. أنت حددي اليوم مع من يجلبك وأنا ابعث لك ردي وبعدها تأتي. احسني تمويه خروجك من البيت عندما تأتين إلي، مرة لزيارة معارف، أخرى للمستشفى، ثالثة لطبيب... نوعي أسباب الخروج واحذري أن يلاحظوا ما تحمليه وإلا يجب أن تأتي دون أن تحملي سوى حقيبتك. وعلى سبيل الاحتياط البسي نظارتك الطبية عندما تأتين.

كان يملي إجراءاته عليها وشعور بالشفقة يسيطر عليه، شعر مرارا أنه بتجربته الثورية أضاف بعدا جديدا لشخصيتها. أضحت علاقته بها اكثر من علاقة أم بابنها، بل وصديقة قريبة لقلبه توفر دفء الأمومة وحنانها ورقتها، إنسانيتها المرهفة لكنه مع ذلك كان ينقم مع ظرفه الذي جعل لقاءه بأمه مليئا بتعقيدات السرية.

عند الرابعة عصرا غادرت وكره.

الحزب يبذل كل ما يستطيعه لإشاعة الاستقرار. والسكينة والهدوء النفسي لدى كنعان. كل ما لا يمس قواعد حياته السرية وأمنه الشخصي لا مانع للحزب من تلبيته. الرسائل تصل تباعا والأحاديث لا تنقطع، التضامن والاسناد يومي وثابت ومؤكد. يصعب تصور حياه سرية ناجحة أن لم يبذل الحزب كل ما من شانه أن يظهر العناية بصاحبها ويؤكدها. من يترك حياة ويمضي لأخرى قاسية ولعينة، لكن ضرورية يلزمه الرعاية. هنا كان الحزب ورفاق كنعان روافع حقيقية.

كان يقرأ كثيرا فتعزز قناعاته يوميا بخياره وحياته، كان ينهل من الأدب بشكل خاص: جورج امادو، حنا مينا، غسان كنفاني، محمود درويش .... الكتاب السوفييت. ساعات وساعات يقرأ والرواية التي تعجبه يعيدها مرتين وأحيانا ثلاث. هكذا فعل مع "الدون الهادئ" لشولوخوف، "وكيف سقينا الفولاذ" لاوستروفسكي، "الثلج يأتي من النافذة" لحنا مينا. الرواية الأخيرة لعبت دورا هاما في حياته السرية، فعندما قرأها كان يقول مع كل صفحة منها "حنا مينا كتبها عني؛ انه يتحدث عني".

كل صفحة كل سطر كل كلمة فيها تصوير رائع لحياة مناضل الخفاء، مناضل الحياة السرية، الصراع بين الضعف والقوة، صعوبات التنقل وعدم الاستقرار، المرأة، النضال، المهام .... لكن حتى ذلك الحين لم تكن له "فتاة نافذة" كما كانت لفياض بطل الرواية. كان الحزب لكنعان مثل خليل لفياض، يضبط انفعالاته، يوجهه، يخفف من حدة نزقه، يعيد صقله. "خليل فياض" كان عاملا، خليله كان سياسة ثورية. عندما أنهى قراءة الرواية في صيف سنة ٨٤ والمتعة تأسره تساءل: بداية فياض ليست كبدايتي فأنا لم اهرب من الوطن كي أعود إليه أخيرا، فهل ستكون خاتمة تجربتي كخاتمته-الاعتقال متلبسا بحيازة مطبعة الحزب؟ أي صدفة ستكون أن حدثت؟.

كان الأدب ينعشه، يمتعه، ينمي حافزه المعنوي، يربي لديه الذائقة الفنية-الجمالية، يشعل نيران الحقد بداخله على الظالمين وعلى كل مظاهر الاضطهاد وينمي الإحساس والتعاطف الإنساني مع الكادحين وليس افضل من ذلك لرجل الاختفاء، فأمام قسوة الحياة اليومية، تأتي تنمية رهافة الإحساس الإنساني بالعدل وكذا التمسك بالقيم الإنسانية الرفيعة لتخفف من وطأة تلك القسوة. والحزب يدرك أهمية التربية العقائدية الشاملة والمتنوعة فيقدم له شيكا مفتوحا لشراء الكتب.

- لا تتردد، اشتر ما تشاء من الكتب واقرأ. لا تسأل عن الميزانية.

وعندما يقع كتاب هام بين أيدي رفاقه، رواية ممتعة مثلا، لا يترددون بأن يوصوه :

- اترك ما بين يديك واقرأ حياة العظيم ديزرجنيسكي. فرونزه عليك بفرونزه. هل قرأت "الشمس في يوم غائم" لحنا مينا؟ ستستمتع حقا. وقع بين أيدينا عالم جورج امادو، اشتر "غابرييلا"، "ارض ثمارها من ذهب" هل وصلتك "مدن الملح"، "وقصة حب مجوسيه" لعبد الرحمن منيف؟.

وهو يقرأ ويقرأ كلما كان عمله يتيح له ذلك. أحيانا لم يتردد بترك ما بين يديه ليغرق في رواية منا، وهو يطهو كان يقرأ، قبل النوم، أمام التلفاز حين يقدم ما

لا يشجع على متابعته. كان يشعر بمتعة خاصة عندما يتناول رواية ممتعة بعد يوم مجهد في العمل الحزبي أو ظروف ضغط المهام والعمل اليومي.

"إجراءات، احتياطات، تطلبات وقواعد" لم ينس تلك الكلمات التي أبلغته بقرار الانتقال للحياة السرية. لم تعد تثير بعد اكثر من عام ونصف على حياته تلك حفيظته، لم يعد يقابلها بهزة كتف، بسخرية لاذعة كما فعل في الأيام الأولى، الأسابيع الأولى، الشهور الأولى. أصبحت تلك الآن قانون حياته التي يحرص عليه حرصه على حياته، تحول الآن ليصبح هو حياته. كان يمارسها الآن عن سابق قناعة بأهميتها الحيوية، كان يفهم ضرورتها في حياته، لنضاله وان لم يكن يشعر بمتعتها، بمتعة الحياة وفقها. على أية حال كان بدأ يكتشف- بدأ وحسب- أن هناك فرقا بين المتعة والضرورة.

"لا تستقبل أحدا ولا تزر أحدا" مع التعديل الذي دخل قبل ٧ شهور "لا تفتح شراعة الباب لعجوز بيراوية". أيضا تلك الجملة الآمرة، الخشنة خشونة الإسمنت والتي تكثف علاقته بمن هم خارج بيته، وكره الكبير، اعتادها ليس بحكم المتعة أيضا بل لتحولها لروتين يومي. والزمن كفيل بتحويل أية صعوبة لروتين بانسيابه. كان بدأ يقتنع رويدا رويدا بأهميتها، مرة اخرة بدأ يدرك-بدأ فحسب- مع تعاقب الأيام الفرق بين الأيام والضرورة. ■

الفصل الرابع

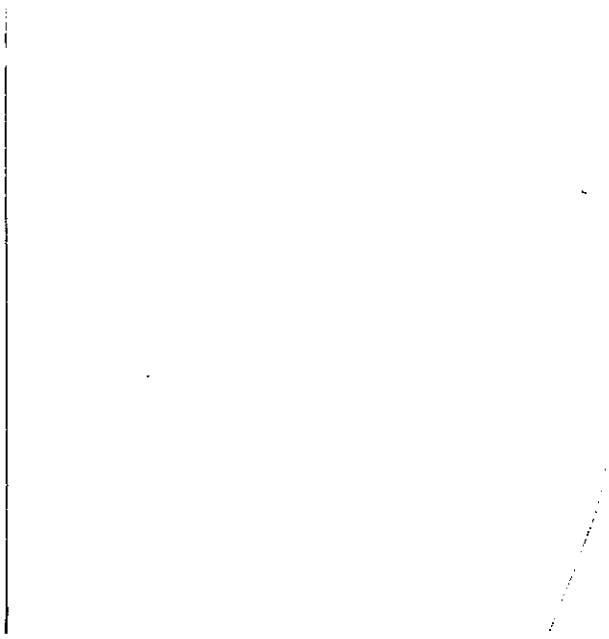

الفصل الرابع

ثكنة عسكرية حول البيت كما قال هشام. تتوزع السيارات العسكرية بما يشبه الطوق على الحي بأكمله، وذلك يشير أن القضية جدية لدرجة كبيرة. سيأتي أوان تحليل الأسباب، إنما الآن المهم: هل شاهد الجنود اثنين أم واحدا على شرفة البيت عندما أطل كنعان وهشام برأسيهما لرؤية ما يجري، حينما سمعا وقع الأقدام وقبل أن يبدأ الطرق على الباب؟ شتم كنعان نفسه إذ شعر انهما تصرفا كهواه لا كمحترفين عندما وقفا على الشرفة ينطلعان دون حذر كاف.

تحسس أوراقه من جديد بعدما كان وضعها أمامه بجانب علبة الكاز والولاعة، تأكد من مكان كل شيء خشية أن تخونه حاسة اللمس في اللحظة الأخيرة فيعجز عن التصرف بسرعة. لقد اعد كل شيء للحظة طارئة فأمن الحزب في العمل السري نصفه الحفاظ على الأسرار عند لحظة الاشتباك في غرف التحقيق، ونصفه الآخر إجراءات وقواعد تخول قبل لحظة الاشتباك من وقوع الصدفة التي أحيانا تكون نتائجها كارثية اكثر من الإنهيار بين أيدي المحققين.

العمل السري بأكمله تتقوم فلسفته في نفي فعل الصدفة ما أمكن. نسيان الولاعة صدفة لها عواقب وخيمة أن وقعت الواقعة، نسيان ورقة صدفة وعدم إتلافها جريمة. نجاحه في الحياة السرية لسنين طويلة، يدين لتلك القاعدة الذهبية وغيرها. جريمة وأي جريمة أن تقع وثائق بين أيدي المحتلين وهو لن يسجل في تاريخه تلك الجريمة. أي معنى تتخذه رزمة الأوراق في حياته والقابعة أمامه الآن بجانب علبه الكاز والولاعة؟. هاجسه اليومي، عمله، زاده، مهامه، رفاقه، حزبه، نضاله، أسراره. كل ذلك حملته أوراق بين سطورها وفوقها. إن انتقل قبض عليها بين يديه. أن نام كانت على المنضدة الصغيرة بجانب سريره. أن شرع بالعمل كانت أمامه إما يقرأها أو يكتب عليها، أن جاءه أحدهم فغالبا ما تكون الأوراق ثالثهم. سنين وسنين وأيامه تنقضي معها، هي ليست أوراقا كأي أوراق؟ إنها تعج بالحياة والنضال والمهام، إنها تكثف حياته السياسية ونضاله ودوره، فيها هذه الناعمة الملساء والمليئة بالأسطر والكلمات المنمنة تكمن حياته. لو صوبوا بنادقهم لرأسه ما كان يمكن أن يسلمهم إياها، فهل من السهل أن يسلم الإنسان أعضاء جسده لأي كان: رأسه، قلبه، رئتيه، قدميه، يديه.... لذلك قرر أن لا يسارع لإتلافها. إتلافها سيكون بمثابة رصاصة الرحمة التي تطلق على رأس حصان هرم مريض آخر لحظة، حفاظا على كرامته. سيحافظ على كرامة أوراقه ولا يجعل أصابعهم تمسها وعيونهم تدنسها. قرر بحزم.

الحياة السرية اختصرت عنده منذ سنين لكلمات مكثفة تحمل دلالات: أبواب، أوراق، جدران، قلم، كرسي، طاولة .... الحياة السرية تنحشر عنده ما بين باب يفتح، دخله وأقفل منذ سنين طويلة وبين باب قد يفتح بعد ساعات ويخرج منه لتنتهي تلك الحياة وتبدأ أخرى لا يدري كنهها. ما بين جدار وجدار خطواته لا اكثر، خطوة، اثنتان عشر، فيواجه جدار فيرتد خطوه، اثنتين، عشر فيرتد من جديد أمام الجدار. تحت سقف وجدار احتياجاته انحشرت سنيناً لا تستطيع أن تخترقه، وان قاومت فالسقف-الجدار لها بالمرصاد، رغباته تستطيل وتستطيل فتجد جدرانا أربعه. أينما استطالت تجد جدرانا تصطدم بها لترتد لنحرها، فالجدران تمنعها من أن تتجسد. أوراقه أكثر ما رأت عيناه، أكثر ما حملت يداه، أكثر ما حفظت ذاكرته، أكثر ما خاف عليه، بها خاض تجربته ومعها تواصل مع نضال شعبه. قلمه لسانه به حاور، حرض، ربى، احتج، حاجج، اقترح، ناقش، قرر، .... كان بديل يده المغلولة ولسانه المحشور في جوفه ولا يستخدم سوى للوك الطعام. طاولته أخذت ساعات يومه عملا فلا عجب أن اهتم دائما باختيارها اختيارا خاصا، ينقر، ينقر على سطحها مفكرا أو يسند كوعه عليها مدخنا أو يأكل أثناء عمله ليختلط عليها بقايا زيت الزيتون بالأوراق، بأعقاب السجائر ورمادها. كرسيه لا يتعب عجيزته فقيره اللحم فقر فأر الكنسية. كرسيه وطاولته لم يورثا ألم الظهر والكتف واليدين. مع السنين كانت تتعمق لديه دلالات الأشياء المادية في حياته التي ارتبط بها حتى غدت كما لو أنها حياته.

في يده كانت تقبع رسالته لها. تناولها عندما تحسس أوراقه والطرقات ومحاولات فتح الباب مستمرة. تذكر هند إذ لمس الرسالة. الصورة لم تبرح خياله، كأنه يلمس شعرها القصير الخشن بعض الشيء، كأنه يمرر أصابعه فوق وجهها الباسم أبدا فيلتقط بسمتها بين أصابعه، كأنه يمرر أصابعه فوق عينيها اللتين تشعان ذكاء وتغرسان النظر فيه كلما كانت عنده. تنهد وضغط على الرسالة ألما وامتعاضا. حرص حرصا خاصا على رسالته لها عند سماعه الطرقات، لن يسمح لأي كان بالدخول لتلافيف دماغه وشغاف قلبه بالاطلاع على رسالته. فيها فرحه وحزنه، نشوته وغضبه، رقته وخشونته، فيها كل التناقضات التي استحكمت ذاكرته بعد تجربته القصيرة معها، فيها ما لم يقله إلا لها كمستمعة جيدة وكمتحدثة لبقة، وهو كراغب في الحديث معها لا مع غيرها. لن يسمح لهم بوضع عالمه العاطفي على طاولة التحقيق وفي غرفة التعذيب. حتى أمام رفاقه تحفظ بالحديث فكيف به يكشف ذاته أمامهم- عدائه؟. كان رفاقه يطرقون باب ذاته تلك ولا يسعون لفتحه عنوه، فان لم يفتح انكفأوا. رسالة حساسة في ظرف حساس شكل طابع تفكيره ومزاجه وسلوكه لأسابيع، رسالة مثابة حوار مكتوب كأنها جالسة أمامه تبتسم

دائما، ولا يدري أمن باب اللباقة وحسن التصرف أم دون تكلف تفعل، لطبيعة فيها؟ تهتم بما يقول لفضول يكاد يقتلها اكثر منه لاهتمام يفرضه عليها طابع الصداقة التي اعتقدها نشأت بينهما. رسالته كانت محاولته الأخيرة وهي الأولى في حياته السرية لتحويل صورة المرأة في خياله لحقيقة، صورة شكلها لامراة وجد في هند ملامحها فمزقت الصورة ودلفت هي الباب خارجة فأغلقه خلفها وعاد ليحيا مع صورته التي عاش معها سنين.!!

بم تحلم هند الآن وهي نائمة بعد يوم مرهق كالعادة قضته في العمل والتنقل بين مدينة وأخرى فيما هو يقبع الآن منتظرا المجهول الآتي في وكره الحجري المعتم؟ هل سمعت الموسيقى الكلاسيكية الهادئة قبل أن تنام لتريح أعصابها المرهقة أم فضلت عليها أغاني مرسيل خليفة الذي يسكرها أم تراها سمعت الشريط الأخير لفيروز "كيفك إنت" والذي نجحت بان تنقل عدواه لبيته؟ هل التزمت بتعهدها له بأن لا تتناول طعام العشاء ليلا كي لا تسمح للسمنة بأن تشوه جمال قوامها، كما نوه لها مرة؟ كان ذلك آخر تعهد قطعته على نفسها.!

فجأة صوت الطرقات يقترب اكثر فاكثر. أصواتهم الآن يسمعها واضحة وقريبة. نجحوا أخيرا باقتلاع الباب الأول الخارجي والآن جاء دور الباب الداخلي. الساعة الآن الواحدة واربعون دقيقة، ساعة تقريبا استغرقهم خلع الباب الأول، الثاني لن يصمد ساعة فهو أصغر وأقل سمكا وحديده من نوع أضعف. اللحظات الفاصلة بين عالمين تقترب، عالم سري عايشه سنين طويلة، الارجح سينهار وعالم آخر لا يدري كنهه سيحياه لمدى زمني لا يعرفه. المجهول يعذبه، يقتله، يريده أن يظهر. هل سيكتشفون وكره ام لا؟ هل شاهدوا إثنين أم واحدا على الشرفة؟ قد ينجح بالافلات ويحافظ على وجوده بين رفاقه وفي حزبه وفي حضن شعبه وعلى رأس مهامه. تعلق بهذا الأمل. لم يملك إلا أن يتعلق به، مع إحساسه أنه أمل واه، إحساس لا يدري من اين واتاه..

هشام ملتزم بنهجنا ولا يفتح الباب. الطرقات قريبة وعنيفة وشديدة وصياحهم الذي يدعو لفتح الباب عال. بماذا يفكر هشام الآن؟ تساءل كنعان. **أبقادم مجهول واحتمالات المستقبل يفكر؟ بطفله الجميل كلعبة الأطفال صاحب الرأس الأكبر من سنه-خمسة شهور؟ بالرفاق، بوالديه المريضين...بما يفكر..؟ كل شيء عزيز على القلب يقتحم تلك اللحظات المحفوفة بخطر داهم يقترب أكثر فأكثر. الحزب، الأهل، الام، الرفاق، المرأة... كلهم يقتحمون الدماغ. هشام سيكون هشام الذي أعرفه-رجلا حين يعز الرجال. ألم يقل "لا تتركه" عندما سألته عن احتمال اعتقاله في لقائنا الأول؟ انه من ذلك الطراز من الرجال الذين لا تجد صعوبة في**

أن تحفظ له في قلبك، مكاناً خاصاً به لطيبته، إحساسه ومشاعره، لحرارة إنتماءه التي لا تبرد، لشجاعته، جرأته، لرفاقيته وروحه المرحة، نكاته المتجددة دائماً والتي تحرك عضلات جسد من يسمعها، يؤكد بها انتماءه حقا لجنين التي ترعرع بها. في تلك اللحظات بالذات والتي يقترب بها المحتلون من جسديهما، كان كنعان على ثقة بأنه وهشام سيكونان عند مستوى ثقة رفاقهما.

مع الطرقات تتعالى أصوات منادية بلهجة عربية ركيكة طالما كره سماعها من الإسرائيليين رحمة بلغته وشفقة عليها: افتح بأمر الحاكم العسكري، جيش، افتح الباب. الباب يقاوم. حتى الباب بدا له يدافع عنه بجسده، يصمد أمام طرقاتهم ليحميه. يتحمل جسده الحديدي ضرباتهم المجنونة دفاعاً عنه، هو يعاشره سنين وسنين، يوماً بيوم، ساعة بساعة. كل ما في بيته كان مديناً له، الأبواب الموجودة والتي تحميه من عيون الأعداء والفضوليين، النوافذ يطل منها على الطرق والناس. الجدران التي بثها همومه وهو يتمشى متنقلاً بينها. كتبه التي ما تعبت لا من التنقل من بيت إلى بيت طوال سنين ولا من طي صفحاتها وثنيها، حتى وهو يقضي حاجته رافقته!! حتى تلك المنمنمات الملونة على بلاط الغرف كانت صديقته، كان يتخيلها رسوماً وأشكالاً، مثل طفل يرى في الغيمة بيتاً أو حبة برتقال أو وروداً أو حروفا صغيرة. في الحمام كانت هنالك بطة جميلة على بلاطه تكون عند مرمى نظره وهو جالسا يقضي حاجته. الم يسأل الجدران: احتياجاتي ورغباتي تستطيل وتكبر، أفلا تستعين لتحقيقها؟ الم يصرخ بوجه الباب في لحظات الاحتقان، استشعار ضغط، قسوة الحياة: ألن تفتح يوماً؟ الن اخرج منك لاعيش في الطبيعة مثل الإنسان الأول دونك ودون الجدران، الطاولة والكراسي؟.

لكن الباب صديقه سينهار عاجلاً أم اجلاً، سينخلع أمام ضرباتهم، فأي إرادة يملك هو بالنهاية حتى يصمد؟ كنعان ومنذ سنين يزرع في عقله قيم التحدي والصمود واوان الحصاد يبدو له وقد اقترب، لن ينهار هو أمام ضرباتهم ولن تنخلع ثقته بحزبه والنضال من قلبه! سينخلع الباب الثاني.

انسياب حياته السرية لم يكن لتخلو من منغصات، هي في الواقع جزء من هذا الإنسياب لأنها جزء من الحياة السرية التي لا تعرف الاستقرار السكني.
بعد عصر يوم قائظ من أيام آب وقبيل الغروب بقليل كان يقف عند نافذته يتأمل ما تقع عليه عيناه. النافذة تطل على المنطقة الصناعية الواقعة شرقي مدينة البيره، سميت تجاوزا بالمنطقة الصناعية شأنها شأن المناطق الصناعية في المدن. أما في الواقع فإنها بالكاد تنتمي لعالم الصناعة بالمعنى المعاصر والاقتصادي. تنتشر فيها

معامل النجارين والحدادين ومعمل أو اثنان لانتاج الطوب والبلاط ومثلهما لانتاج المواد الغذائية، ما عدا هذه الصناعات الخفيفة ومعامل النجارة والحدادة فقد طغى على المنطقة كراجات وورش لتصليح السيارات والحافلات، على مدى الرؤية كان اذ ينظر من نافذته يرى هياكل السيارات والحافلات وأجزاءها متناثرة في الشوارع الفرعية وعلى حوافها وفي ساحات الورش والكراجات. ولأن البيره بالكاد خرجت من رحم البيئة القروية لدنيا المدينة، فالمنطقة الصناعية لم تتعدم فيها مظاهر القرية الأبرز: حقول وأشجار التين واللوز والبرقوق بشكل خاص، فعلى طرفي الشارع الذي يخترق التلة صعدا نحو بيته السري تنتشر الأشجار المثمرة وبشكل خاص التين البيراوي حلو المذاق كطعم العسل. كانت حقول الاشجار تضفي على المشهد العام للمنطقة جمالا يخترق عالم الكراجات وعوادم السيارات وضجة الورش، جمالا يذكر بأنه في يوم ما، قبل سنين ليست بالكثيرة، كانت الطبيعة تنطق بجمالها قبل أن يشوهها البناء العشوائي وتناثر الكراجات.

نافذته – طاقته للعالم كانت شأنها شأن كل نافذة في كل بيت يقبع فيه، نافذه تأخذه وهو يتأمل عبرها حقول التين، إلى ذكريات طفولته يوم كانت كل حقول البيرة مشاعا له ولأترابه، لا للتلذذ بالتين فحسب بل ولصيد عصافير الحساسين، هوايته حتى يفاعته. تتفاعل الذكريات مع حاضره، تتشابك كنسيج عنكبوت، ليقرر تنظيم غزو لكرم التين الذي يملكه صاحب البيت الذي يقيم فيه، استعادة لطفوله شقية تبعث على فرح مشتهى من حاضر مليء بالضغوطات والمسؤوليات والقسوة.

لم يكن صاحب البيت، الطيب والودود، كحالة استثنائية بين من عرفهم من أصحاب البيوت حتى سنينه تلك، لم يكن ليمنع عن مستأجريه تين كرمه. ربما خجلا من الطلب أو ولعا بالغزوة لم يسأل كنعان صاحب البيت تينا، بل نسق عمليته مع رفيقه صاحب القدم العملاقة ليشرعوا بالغزو قبل انبلاج الصباح، ليس رغبة بالتستر تحت جنح غبش الظلام فجرا بل لأن التين لا يؤكل إلا نديا يحمل معه برودة الليل المنعشة. بعد عدة غزوات زاره صاحب البيت يحمل "قرطله" تين ليعلن له بطيبة اشعرته بخجل يلفه من رأسه حتى أخمص قدميه: الكرم الذي تحت هو لي، بامكانك أنت وأصحابك أن تتعاملوا معه كما لو كان لكم فالبيت بيتكم والكرم كرمكم. بذلك أصبحت غزواته "شرعية" ففقدت متعتها. لم يكن صاحب البيت كغيره من الذين قابلهم كنعان اذ يصعب تصنيفه- بالاستناد لسلوكه- كعقاري!. انه من ذلك النوع الذي وجد نفسه فجأة وقد اصبح في وضع طبقي جديد كمالك، فلم يعتد بعد على التصرف حسب مكانته الطبقية الجديدة، شأن العديد العديد من البرجوازيين ذوي الاصول الشعبية الفلاحية، لا هم امتلكوا سمات البرجوازية اجتماعيا ولا تخلو عن طيبتهم الفلاحية تماما، مثل التي ترقص على الدرجة

الوسطى للسلم!. كان لا يعشق أوائل الشهور كالعقاريين، لا يدس انفه في شؤون مستأجريه شأن أصحاب الملكيات الصغيرة والاهم بالنسبة لكنعان انه لا يرصد تحركاته وتحركات من يزوره ويخجل اذ تمد اليه اليد بالإيجار ويلح دون تزييف أن لا يأخذه. عندما كانت أموال الحزب تتأخر لسبب أو لاخر بما يعيق تنفيذ المهام فما كان من كنعان الا أن يقصده: تأخر الأهل بإرسال المال لنا ويجب أن ندفع أقساط الجامعة، هل يمكن أن تقرضنا لاسبوعين؟ ولم يكن الرجل ليتردد أبدا. لم تتحول طيبته لغباء كما لدى من تتجاوز الأولى عنده حدها المعقول، بل بدر منه أنه "يشتم" حقيقة الطلبة المستأجرين كنشطاء وان لم يكن بالضرورة كستار لمتخف.

- طلبت لمقابلة المخابرات ماذا أقول أن سئلت عمن يسكن عندي؟. أعطوني أي اسم تريدونه بعيد عن الشبهة.

شكره كنعان وأعطاه اسما لا وجود له، وهجر وكره أسبوعين تحوطا من وقوع أية مصادفة غبية.

ذاك اليوم القائظ وقد ارتحلت الشمس لتوها، وقف كنعان ينظر من النافذة واذا برتل من ناقلات الجند تتقدم من جهة معسكر الجيش في المدينة فتخترق الشارع الرئيسي الرابط بين رام الله – ونابلس لتنزل باتجاه المنطقة الصناعية.

- ما كل هذا؟ اعتقالات نهارية؟ صعب. لا تظاهرات هنا. ربما يكون وقع حادث ما في المنطقة!

حاول كنعان الوصول لإجابة وهو يرقب الناقلات واقفا عند النافذة. كان في مقدمة الرتل وبضمنه سيارات عسكرية مخصصة لضباط وشاحنات صغيرة مجنزرة. استمر الرتل يسير باتجاه مفترق الطرق الذي يؤدي احد تفرعاته إلى التله حيث وكره. عند المفترق توقف الرتل عند الشارع الصاعد باتجاه التله وأخذت قطعات منه تتوزع توزيعة مريبة لمن يرقبها، بعد توزعها أمكن لكنعان ملاحظة أنها أخذت وضعية التشكيل القتالي على شكل كماشة وحربة في الوسط: سيارة ضباط وناقلة جند توجهتا إلى يمين المفترق ومثلهما الى يساره وعلى مبعدة ١٠٠ م توقفت السيارات.

عند المفترق تمركزت شاحنة عسكرية فيما واحدة أخرى تتقدمها سيارة ضباط صعدت الشارع المؤدي للوكر. نزل جنود من الشاحنة عند المفترق واتخذوا موقعا لهم على الشارع مثبتين رشاشهم متوسط المدى على ارض الشارع. الصاعدون الشارع المؤدي إلى التله ظلوا يسيرون حتى تجاوزا الشارع المعبد ودخلوا الشارع الترابي. بعد بضعة أمتار توقفوا ليكونوا خلف الوكر مباشرة، لا اكثر من ٣٠ م فقط!!. (انه التطويق الذي يتبعه الاقتحام).

ردد كنعان بصوت مسموع فيما أخذت يديه في الحال تجمع أوراقه السرية على عجل مستشعرا كأن حبلا لف حول عنقه، ودماغه ينفعل بسؤال ملح (كيف التصرف؟) وبعد عشر دقائق من تفكير مضطرب لا يستدل إلى حل يصاحبه تنقل مستمرا بين النوافذ لمراقبة تحركات الجند، سمع صوت المفتاح يدور في قفل الباب والرفيق ذو القدم العملاقة يدخل وعلامات التوتر والانفعال بادية عليه. كان يلهث ولا يكاد يلتقط انفاسه، ملابسه متسخة بالأتربة والعشب الجاف. وضع كيس الخبز على الطاولة وسأل سؤالا بدا غريبا فوق غبائه:

- هل رأيت ما يجري خارجا؟

حاول أن يبعث في أوصال رفيقه هدوءا هو كنعان نفسه يحتاجه أصلا:

- وهل تعتقد أن أذني لن تلتقط صوت مجنزرة تشخر على بعد ٣٠ م مني، لا أدري ماذا يجري بالضبط، لكن كيف دخلت؟ (استدرك) حدثني بما رأيت ولكن بسرعة.

لم يضف شيئا مما كان كنعان رآه سوى طريقة وصوله:

- عندما اقتربت من المفترق ووجدتهم نزلت عن الشارع إلى الحقول وأخذت أزحف بين الأشجار والبيوت كي اصل هنا. وهناك أناس يمرون بشكل عادي ولا أحد يعترضهم.

كان رفيقه الذي ما خذله في مواقف تتطلب الشجاعة والجرأة. انه من النوع الذي لا يعرف الخوف طريقا لقلبه أو تأثيرا على أقدامه ... ربما لطبيعة فيه جبلت على الجرأة أو لأن ذهنه لم تغزه بعد كثرة الحسابات التي تقتل الشجاعة ام لعله لا يستطيع أن يحسبها أصلا فتخور عزيمته أن استمرأت ذاته السكينه. انه من النوع الذي يملك الجهازية ليفعل ما يطلب منه أو يدرك انه يجب أن يفعله شريطة أن لا يطلب من عقله أن يتدخل في التنفيذ. كان من ذات الطراز من القاعدة التي تحدث عنها المفكر الماركسي غرامشي قاعدة جاهزة للتنفيذ لا تملك الكثير من النضج السياسي لتبادر أو تقرر. كانت حياته الريفية والمحدودة جدا التي عاشها، ضيقت نطاق آفاق تفكيره إلى أضيق الحدود. ضعف المبادرة، الحنكة، الحذق، المعارف والتجربة.... كل ذلك قابله جلد، شجاعة وجرأة، لذلك فمثله كما قيمه كنعان مرة يصعب على أي تعذيب أن ينتزع منه حرفا، لكنه يقع بسهولة اذا ما استخدمت الحيلة والخدعة معه.

- ما القصة إذن؟ يطوقون ولا يقتحمون وحتى لا يعترضون طريق السائرين. لم يفرضوا منعا للتجول؟ أي اقتحام هذا في النهاية؟ وهل هناك قضية خطرة لدرجة الاقتحام النهاري؟ منذ عشرين دقيقة وهم هنا، فماذا بعد؟

كان يسأل رفيقه ولا ينتظر إجابة. يفكر بصوت مسموع. قرر أخيرا:-

- على أية حال يجب أن نخرج حالا. لا يمكننا أن نبقى محاطين بثكنة تتهيأ لاقتحام ما. هيا لنسرع طالما الليل حل. نتسلل مثلما أتيت. لأي وكر نذهب؟
- إلى أم عيسى فهو خال قدر ما اعلم، أليس كذلك؟
- خال. حسنا لنخرج إلى بيت أم عيسى.

نطق جملته الأخيرة مع تنهيدة ذي معنى. فقد تذكر للتو أن عليه أن يدقق في أن لا تسمع صوت بوله المنساب من مثانته!

بيت أم عيسى على الطرف البعيد لرام الله وهذا يعني أن عليهما أن يسيرا اكثر من ٤-٥ كيلو متر دونما هويه مزيفة يحملها أو وسائل تنكرية تخفي ملامحه. كانت لحيته قليلة الشعر وبالكاد تقوم بوظيفتها وتحسبا لأي طارئ كان يجب أن يسير في شوارع فرعية لا تزدحم بالمارة ولا بدوريات الجيش ويسهل عند أية مفاجأة النزول عنها لأي بيت أو حديقة تفتقدها عادة الشوارع الرئيسة وهذا يعني أن تطول المسافة ربما لاكثر من ستة كيلومترات.

الألسن لا زالت تلوك اسمه، لم ينزو بعد في ثنايا ذاكرة الناس. لا هوية مزيفة ولا وسيله تنكر. كانت تجربته تحبو بعد أكثر من سنه ونصف من عمرها ولم يتأتى لها أن ترسي أصولها، قواعدها تماما. ما كان يزيد الموقف خطورة أن الاستنتاج المنطقي يشير إلى أن اسمه قد يكون في جيب جنود الدوريات التي تجوب طرقات المدينتين.

البقاء مخاطرة تربض متربصة على شكل جند مدججين وعلى بعد ٣٠م فقط، والرحيل مخاطرة أيضا ولكن بتشدد اكثر ويقظه مستنفره يمكن تجنب نتائجها الخطيرة. الحياة السرية بأكملها مخاطرة دائمة، سلسله من المخاطر التي على الثوري السري المحتك التنقل بينها أو القفز عنها بوسائل قد تتوفر وقد لا تتوفر. كانت معالم التجربة تتضح اكثر فاكثر، يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر.

تسلل الاثنان من البيت وظللتهما الأشجار ودغشة الليل، لينتقلا عبر بساتين الاشجار ومن خلف بيوت بحذاء الشارع، وزحفا على الأرض كجنود في معركة اجتازا الطوق سريعا وأطلقا ساقيهما سيرا سريعا في شوارع المنطقة الصناعية. ذو القدم العملاقة كشاف للطريق وكنعان يتبعه دون أن يفقده. التقا حول تجمع المقاهي في البيره وصولا حتى المقبرة، منها نزلا لمذبح البلدية حتى حي الشرفة ثم لأطراف مخيم الأمعري ومنه صعدا عبر الحرش الصغير المؤدي لمشفى رام الله فدوار وكالة الغوث لتدريب المعلمين ثم نزولا حتى أطراف "المنطقة الصناعية" في رام الله حيث بيت أم عيسى.

منذ سنه غادر وكره هذا دونما سبب! لـم يتغير شـيء، هـي ذات الدرجـات التي تقضي لتعريشه الممر.

- هو دعاء أمي الذي أنقذنا الليلة! افتح افتح يا رفيق.

أخذ رفيقه يبحث عن المفتاح، لم يجده في جيبه الأول، جرب الثـاني، بـدأت علائم التوتر تنحفر على وجهه، بحث في جيـب قميصـه ومـا وجـده. اكتسـى وجهـه بالارتباك.

- ابحث جيدا. تنهد كنعان وهو يحس بدنو ورطه لا محالة.

- ليس معي، يبدو أنني نسيته في البلدة.

كان يتحدث خجلا، مرتبكـا كطفـل ضبطتـه امـه متلبسـا بجريمـة ولا يقـوى على انكارها ويحسب حساب عقابها.

صب على رأس رفيقه سيلا من الألفاظ القاسية وهـو يرتعـش مـن الغضـب المسيطر عليه ويسعى جاهدا ليبقي صوته خفيضا خشية أن تلتقطـه أم عيسـى، التـي تسمع صوت البول ينساب على أرضية المرحاض!

- الساعة العاشرة والنصف ليلا، نسير من آخر البيره إلى آخر رام الله لتقول لـي نسيته؟ أين نذهب الآن؟ أين سابيت؟

لم يكـن أمامـهما إلا الالتجـاء للحقـل الكبـير المجـاور للوكـر. قضيـا ليلتـهما هناك، كل واحد ينكمش على نفسه صامتا، أمـا الحشـرات القارصـة فأشـبعت نفسـها بوجبـة دسـمه مـن دمائـهما، كـان لا يسـمع حينـها سـوى ضربـات الأيـدي تلاحـق الحشرات متبوعة بشتائم مقذعة. وفي الصباح الباكر أوصل كنعان لرفاقه مـا حـدث وقبل التاسعة كانوا اتوا ونقلوه مرة أخرى لوكره في البيره.

- لا خطر حول البيت، ليلا اكتشفنا أن الجيش قام بما قام بـه نحـوك عنـد أطـراف المدينة الأخرى ويبدو الأمر كتدريبات لا اكثر.

طمأنه رفاقه وقدموا له معلومات كان يجهلها: ليلا لاحظ رفيق له وبالصدفة كثافة في تواجد الجيش جهة بيته فسارع لابلاغ الحزب الذي سـارع لاسـتنفار حفنـة من رفاقه. أحدهم تسلل من خلال "الطوق" حتى الوكر وتطلع من خلال النوافذ فلـم يتلمس أيـة علائـم لاقتحـام والاهـم لـم يجـد كنعـان. أخـذ الرفـاق يجوبـون الشـوارع بسياراتهم باحثين عنه ليلتقطوه مفترضين انه قد يواجه خطرا في التنقل ليلا في ظل تحركات عسكرية كثيفة عند أطراف المدينة.

انخلـع البـاب أخـيرا. فتحـوه علـى مصراعيـه عنـوة بعتلاتـهم وأحذيتـهم العسكرية الثقيلة. انهالوا على هشام بالضرب حالما دخلوا هائجين، متعطشين لنـهش اللحم الآدمي، علا صياحهم:

- لما لم تفتح؟ احك يا منيك، احك!
- اضرب يا فاشي، اضرب، ارض ساديتك التي تربيت عليها.

صاح متحديا والحق صيحته بسلسلة من الشتائم المقذعة. الشتائم كنز لغوي للثوري وينهل منه لحظات الاشتباك وتفجير الغضب والاحتقان الذان يعتملان في صدره. الثوري الذي لا يشتم مثلا في أقبية التحقيق نادر الوجود كالعملة القديمة. أحس كنعان بالغضب يغلي بداخله اذ لا يستطيع فعل شيء لرفيقه، يدافع عنه ويتحمل معه وعنه ضرباتهم. أحس بالتعاطف تجاهه يمتلك عليه حواسه. ترتيبات المواجهة وضعت هشام في الخندق الأول.

(الرفيق الجيد يكون حيث المهمة الأصعب). رددها الحزب مرارا. هشام الآن هو الرفيق الجيد، يضع نفسه في المقدمة – يدافع بوجوده بين أيديهم عن رفيقه القابع في وكره الحجري. أمام كنعان أوراقه، يسمع ما يدور ويحاول أن يفهم ما يسمعه من أصوات تتحدث بالعبرية باستخدام مخزونه الشحيح من ألفاظها وقبل ذلك وبعده يتحفز استعدادا لمعركته أن حانت ساعتها واكتشف وكره.

- ما اسمك؟ احك اين الثاني؟ اين الثاني؟ احك!.صاح صوت بالعبرية.

فهم كنعان جمله الاستفهام:"ايفو هاشيني"؟ (اذن رأوا اثنين على الشرفة ويبحثون عني، لن أسامح نفسي على هذه الحماقة التي تليق بهاو لا بمحترف. ساعة المعركة إذن تقترب، هي قادمة لا محالة).

رأوا اثنين وبين أيديهم واحد، فأين ذهب الثاني؟ سيقتلعون بلاط المنزل، بلاطه بلاطة حتى يظهر، سيحطمون الجدران حتى يجدوه، يمزقون فرشات النوم، كل شيء. لا بد أن يظهر، لقد انقضى الأمر بالنسبة لكنعان. سيستمرون بالبحث، سيقتلعون الخزائن وحينها سيجدونه. المسألة الآن مسألة وقت بسرعة الوصول اليه، متى سيكون بين أيديهم .

حقا انقضى الامر يا كنعان. سنواتك الطويلة توشك أن تنتهي. كل الاحتمالات الآن مفتوحة على مصراعيها: القتل، التشويه، الابعاد، الاعتقال والآن سيظهر الخيط الابيض من الخيط الأسود من الفجر، سيظهر أن كانت تربية الحزب مثمرة، أن كانت تعبئتك لنفسك وتحشيدك لها أثناء التمشي بين جدار وآخر عندما يتوسد رأسك المخدة.... مثمرة ام لا. انه الامتحان، امتحان نضالك وتجربتك ومكانتك ودورك وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان الصمود. كرم والانهيار مهانة.

كما كان قرر لم يحرق أوراقه بعد، ينتظر آخر لحظة هي لديه: عندما يبدأون باقتلاع الخزانة التي تخفي وكره حينها فقط سيحرق. استدرك سريعا : إن وجدوا الوكر!!.

لا زال عنده أمل بالإفلات ذاك المندس بجحره كذئب طريد يخشى رصاصة الصياد!. لا زال يأمل أن لا يكتشفوه هو الذي تملص لسنين ولم يعرف عنه أحد شيئا،يأمل ذلك لأنه يريده بكل جماع شخصيته، لا لأن أمله يسنده امكانات واقعية ليتحقق، بل لتعلق بخياره، بحياته، بتجربته، بنضاله ومهامه، بانتمائه لكل ذلك، انتماء الراهب لصومعته، يتعلق بأمله كما الغريق، يتعلق بخشبه إنقاذ لا تظهر في وسط لجة المياه اللانهائية. تعلق بأمله الواهي مثل تعلق أم بأمل "نفحه ربانية" تنهض فجأة بابنها الوحيد من قبره الذي سجي فيه للتو، نفحة تقول له كما قال السيد المسيح: قم فيقوم!!

قرر أن لا يتلف أوراقه حتى آخر لحظه تمسكا بالأمل الواهي ودفاعا عن أوراقه، حياته لآخر لحظه. يسمع هراواتهم الحديدية تدك جدران البيت، كانوا يبحثون عنه، يزحزحون خزانة ملابسه في غرفة نومه خلف الوكر مباشرة، درفات خزائن المطبخ الصغيرة تفتح وتغلق بحركة سريعة مثيرة الضجيج في البيت. حتى هناك داخل الخزائن في المطبخ بحثوا عنه. هل هو في علبة سمك معلب مثلا؟ أو في كيس ملح صغير يحتمي بذراته؟ ام تراه خلف جدار بناه من حبيبات السكر، بناه قبل أن يشرعوا بتدمير جدران بيته!؟ انهم واثقون من وجود الثاني، سيستمرون بالبحث عنه حتى يجدوه.

- اين الثاني؟ احك بسرعة اين الثاني؟

كان صياحهم مختلطا بضرباتهم يكيلونها لهشام ممزوجة مع شتائمه الغاضبة يقذف بها في وجوههم. هشام كان ملق على أرضية الغرفة الأولى التي بقرب باب البيت. يجوسون بيته وهو يقبع منتظرا. كان أخيرا سلم بالأمر-حتما سيجدونه! ما عليه سوى الانتظار، انتظار مصيره الذي تقرر، انتظار الإعلان الرسمي عن النهاية. التوتر، التحفز، الحقد، الألم، الأسى، التصميم كلها مشاعر امتزجت معا ليعيش امتزاجها وهو ينتظر وصولهم لجسده. إلا ما اصعب الانتظار في لحظات كتلك؟؟

لقد عاش "انتظارا" شبيها قبل سنوات. كل له "انتظاراته" في حياته، لكن "انتظارات" كنعان كانت دائما ذات نكهة خاصة، لها وقع خاص، "انتظارات" تخلقها لحظات العجز عن فعل شيء سوى "الانتظار". أن سأل احتياجا ما فليس له سوى انتظار تلبيته لانه لا يستطيع تلبيته بنفسه. أن طلب ما يساعده على عمله فعليه أن ينتظر لانه يحظر عليه أن يلبيه بنفسه. أن سأل عن قضية ما فعليه الانتظار بمن يأتي بتفاصيلها، أن نفذت سجائره لصفة سخيفة او لترتيبات غبية منه فعليه أن

"ينتظر" من يحضرها له. ما أن تذكر انتظاره لسجائره حتى اشعل سيجارته وعب منها بنهم متندا من تداعيات "الإنتظارات". أن سمع اشاعة ما تثير اهتمامه واحيانا توتره، عليه أن "ينتظر" للتأكد منها. أن "انتظاراته" كانت تؤكد عجزه!! لكم كان يرهقه الإحساس بالعجز في لحظات كهذه، يكون في لحظات انتظاره مثل الصياد الذي يحبس أنفاسه فيما العصفور يتقلى مغردا، مرحا قرب الشبكة لا في دائرة فعلها، يستحث سيره بين جدار وجدار، يدخن ويدخن أن لم يكن انتظاره لسجائره، يضرب الجدار بقبضته أحيانا، غيظا من عجزه، أو يتوجه للمطبخ ليتناول شيئا ما من باب التصرف اللا واعي كأن عقله الباطن يسعى لتهريب احتقانه باشغال يديه بشيء ما، أو يفكك الأسرة، ينقلها، يغير مكانها، يعيد ترتيبها، يغير مكان خزانة الملابس لا لشيء إلا ليشغل نفسه، وعندما ينتهي "انتظاره" كان يكاد ينفجر في وجه من أخرجه من دائرة الشعور بعجزه!!

ولكن مع توالي السنين، مع توالي "انتظاراته" كان بدأ يعتاد تحمل توترها!. اذ بالنهاية كما اكتشف بالتجربة تنتهي "الإنتظارات"!! بالتدريج بدأ يعتاد ضبط انفعالاته في لحظات الشعور بالعجز حتى وصل لحالة التي يمكن وصفها "بالمرارة المطفية" حسب التعبير الدارج تعبيرا عن الجلد والصبر والتحمل.. لكن "انتظار" الاعتقال لم يكن لتتم معالجته وفق ذات الوصفة الشعبية "المرارة المطفية". جربه مرة قبل سنين من "انتظاره" الآن وهو قابع في وكره واكتشف حينها انه اصعب "الانتظارات". حينها انتهى انتظاره دون أن يقع في شبكه الصياد، إنما المرة فالشبكة تلف حول عنقه مترا أو اقل بينه وبينها. تلذذ وهو يسحب نفسا طويلا من سيجارته وتذكر "انتظاره" ذاك.

منذ نيسان سنة ١٩٨٥ افتتحت أجهزة المخابرات هجمتها على منظمات الوطن في قطاع غزة اثر العملية العسكرية الجريئة التي نفذها فتحي الغرباوي وقدم حياته على شرفها. بدأت الهجمة على المنظمة في قطاع غزة لتمتد طوال ١٩٨٥-١٩٨٦ فتشمل منظمات الوطن بأغلبيتها. كانت سنة ١٩٨٥ سنه انعطافية في تاريخ الحزب في الوطن، اذ وضعت منظمات الحزب مباشرة أمام مهمة حماية ما أنجزته منذ اكثر من خمس سنين من النضال ومن العمل الدؤوب اليومي، في مواجهة هجمة احتلالية مركزة طالت معظم تلك المنظمات.

منذ ١٩٨٠ وحتى ١٩٨٤ كانت منظمات الحزب وامتداداتها تنهمك في النشاط التنظيمي الموجه وفق شعار "حل المسألة التنظيمية" فجرى التركيز على حلقتين أساسيتين، التوسع بتنظيم أعضاء جدد وبناء شبكه حلقات قوامها أصدقاء

وأنصار الحزب من ناحية والتركيز على تربية الكادرات وتنمية ملكاتها وتوزيعها بما يتوافق مع موهبتها ومهارتها وحالة الحزب ونشاطه من ناحية ثانية.

ما أن حل عام ١٩٨٥ حتى كانت المهمة قد تحققت بنجاح، فتلك المنظمات الحزبية التي كانت في وقت مضى غارقة في محليتها الحلقية، منغلقة على تجربتها، مقدمة الخاص على العام في نشاطها وأولوياتها، تلك المنظمات كانت خلال سني ٨٠-١٩٨٤ قد شرعت بامتلاك ملامح الحزبية في بنائها ونشاطها بديلا للمحلية الضيقة، وما أن حل عام ١٩٨٥ حتى كانت ترسخت في الواقع منظمات حزبية تقترب أكثر فأكثر من تأكيد صفتها اللينينية. القاعدة النظرية الموجهة لمهمة البناء الحزبي. تبلور هيكلها القيادي والكادري بمختلف التخصصات وتحديدا التنظيمية والجماهيرية والنسوية وبقدر اقل السياسية والاعلامية وصولا إلى النضالية، تصلبت بنية الكادر أكثر سواء في انحيازه العقائدي والسياسي أو في صلابته الأمنية وخبرته في العمل السري على مستويات مختلفة، وبنفس الوقت كانت احاطت نفسها بسياج حلقي واسع تغرف منه خلايا المرشحين للعضوية، فتم الاقتراب اكثر فأكثر من تنفيذ القرارين-الشعارين "كل عضو يقود حلقة للأصدقاء" "السياج الحلقي ضعف العضوية الحزبية". ولقد جرى تنظيم الصله بطرق عديدة مع الأنصار، إما عبر حلقات التثقيف التي يقودها الحزبيون واما على شكل صلات سياسية مع أفراد وجماعات، واما بالشكل الأكثر انتشارا شيوعا: تنظيم الأصدقاء في منظمات ديمقراطية مهنية ونقابية يقودها وينشر في مختلف مستوياتها أعضاء حزبيون. لقد غدا من النادر أن توجد منظمة حزبية محلية دون أن يوجد معها فرع للمنظمة الديمقراطية، وان لم توجد فالقرار صريح: على الاعضاء تشكيل فرع للمنظمة الديمقراطية. لقد كان لتلك السياسة أثرها الكبير على بناء منظمات العمال والطلاب والنساء الديموقراطية كأدوات للنضال الوطني والنقابي وكشكل لتنظيم الصله بتلك القطاعات الشعبية ليصار لاغتراف المؤهلين منها للترشيح للعضوية في الحزب، فيما بقيت النقيصة الأكبر في التوجه الفئات المثقفين والمهنيين كالمهندسين والأطباء والمدرسين والمحامين .....

أما على صعيد التثقيف الداخلي فقد غدا التثقيف الموحد يسري في أوصال المنظمات بمختلف مستوياتها وامتداداتها، ابتداءا من حلقه الأصدقاء مرورا بخلية المرشحين فالاعضاء وصولا للكادر. وقد جرى التركيز على تقارير المؤتمر الوطني الرابع وكراريس التثقيف الامني والمؤلفات اللينينية والتعميمات والنشرات المحلية وتاريخ القضية الوطنية، فيما حوى البرنامج توجيهات للدراسة الذاتية شملت بتركيز واضح توجيهات لقراءة الروايات، لقائمه متنوعة الأدباء (كنفاني، حنا مينا، الطاهر وطار، غوركي، غابرييل غارسيا ماركيز، امادو، نقولا اوستروفسكي، شولوخوف...) وقد لعبت مجلة "الرفاق" الداخلية دورا هاما في هذه

المرحلة اذ بانتظامها تم تبادل خبرات وتجارب النضال، التنظيم وتعميمها بما يساهم في توحيد الآلية والمهام وخلق ذهنية حزبية مشتركة وتكوين نفسي- حزبي موحد، كما أن تركيزها الاساسي بالاضافة لذلك كان على المقالات التنظيمية والتثقيف الأمني. إنها مجلة لعبت دور مايسترو يوحد عازفي السمفونية فيما كان عدم انتظام الجريدة الجماهيرية السرية "الثورة مستمرة" يشكل النقص الأكبر هنا، أي في حقل التحريض السياسي. والسيمفونية كان اسمها "حث جميع قيادات وكادرات المنظمات الحزبية على بناء منظمة حزبية موحدة البنية والقرار والنشاط". اواخر ١٩٨٤ ومطلع سنة ٨٥ صدر القرار الحزبي بترسيم البناء المركزي للمنظمة على مستوى الوطن وكان مجمل تطور العمل الحزبي منذ خمس سنين ونيف يسمح بذلك.

وما أن ولدت تلك المنظمة حتى وجدت نفسها في حرب حقيقية تشنها عليها أجهزة الاحتلال التي شرعت منذ أوائل سنة ١٩٨٥ بشن حربها التي طالت منظمات القدس ورام الله وغزة وبيت لحم وبيت ساحور ونابلس وقلقيلية وطولكرم تحت شعار صريح أعلنه محققو جهاز المخابرات الإسرائيلي (هناك قرار حكومي. يجب تصفيتكم).

ابتدأت الهجمة والحزب يخوض أكبر معاركه السياسية التي رأى فيها حينها دفاعا عن الهدف الوطني المرحلي "الدولة المستقلة" واستقلالية القرار والتمثيل الفلسطيني (اعتبار م.ت.ف الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني) جرى انتهاك ذلك حسب الحزب في الاتفاق الذي وقع في ١١ شباط سنة ١٩٨٥ بين قيادة م.ت.ف والحكومة الأردنية. لقد قدم الحزب حينها تحليلا مسهبا للاتفاق في اجتماع للجنة المركزية في دورته الكاملة في نيسان ذلك العام. لقد عزت اللجنة المركزية أسباب توقيع الاتفاق وخلفياته إلى التغييرات البنيوية الطبقية والمؤسساتية التي جرت داخل م.ت.ف عبر السنوات السابقة نتيجة ضخ أموال البترودولار وللنتائج التي تركتها هذه العملية بتنمية شريحة بورجوازية بيروقراطية فاسدة داخل وعلى رأس أجهزة مؤسساتية متضخمة باتت تجد في التلاحم والإندماج مع البرجوازية العربية الحاكمة طريقها لتثبيت مصالحها وامتيازاتها وكذا للاندماج في سياسة السيد الامريكي وتحت عباءته كما قيل! كلما تعطشت تلك الشريحة للامتيازات الجديدة وللاموال كلما انبنت مؤسسات جديدة، وضخمت تلك القائمة، فيما الأخيرة ما أن تبنى وتتضخم حتى تطلب بيروقراطيتها في عملية توالد مستمرة للمؤسساتية من جهة وللبيروقراطية من جهة ثانية. وفي محاولة منها لتعزيز نفوذها في الوطن لم تكتف تلك الشريحة ببناء أدواتها التنظيمية المناضلة بل وباعادة نفسها في الوطن بشكل مؤسسات تتبنى يوميا في عملية حثيثة منذ مطلع الثمانينات،

مؤسسات غدت من الكثرة ومن حجم الأموال التي تنهب عبرها وباسمها موضوعا للتندر من الشعب والتحريض من الفصائل السياسية الفلسطينية، كان التلوث البيروقراطي الأشبه بالفيروس قد بدأت عدواه بالانتقال من الخارج وبذات الأموال الخليجية لكن بفتاتها، لتشتري زلم ورموز وشخصيات وما أن انقسمت الساحة بين القيادة البيروقراطية وم.ت.ف وقاعدتها التنظيمية الأكبر حركة فتح من جهة وبين مجموع القوى من جهة أخرى حول الموقف من اتفاق عمان حتى تحركت البيروقراطية ومؤسساتها لكسب موقف الوطن خلف اتفاقها. كانت توجيهات الحزب صريحة وقد وردت في رسالة تلقاها كنعان (يجب أن يدرك أبو عمار أن الأرض المحتلة ليست في جيبه وانه يفرط بوحدانية تمثيل المنظمة للشعب وبالهدف الاستقلالي)، لذلك فقد غدا النشاط الجماهيري والسياسي لاظهار رفض الوطن للاتفاق محور عمل المنظمات الحزبية والديمقراطية ولإظهار تبعاته الخطيرة وأهمها الدعوة لعقد المجلس الوطني السابع عشر والمقتصر على مندوبي فتح ومستقلي قيادة المنظمة في عمان لكسب شرعية التوقيع على الاتفاق بعد أن وقع!.

نظم الحزب بالتعاون مع غيره احيانا ومنفردا احيانا أخرى المهرجانات الخطابية والمسيرات ومختلف الفعاليات لتعبئة موقف شعبي ضد مجلس الـ ١٧ ولاتفاق ١١ شباط ولاظهار صوت الوطن. وفي العديد من المؤسسات طغى كالعادة الجانب السياسي على التحالفات فتشكلت كتل يسارية ديمقراطية لخوض انتخابات المؤسسات على قاعدة موقف رافض للاتفاق. لقد ظهر جليا أن الوطن والشعب غير موحد خلف اتفاق عمان وسياسة قيادة المنظمة رغم ليس التعتيم الإعلامي فقط بل والتزييف المضحك للحقائق والمثير للشفقة حول واقع صحافة الوطن، والذي بلغ حد أن تنشر جريدة "الفجر" المقدسية صورة لمسيرة نسائية نظمتها عضوات وصديقات الحزب وهن يلبسن السواد وسط مدينة رام الله احتجاجا على اتفاق ١١ شباط وعقد المجلس الـ ١٧ لتنشر الصورة وتحتها عنوان "مسيرة في رام الله تأييدا للمجلس الـ١٧".

في تلك السنة، انتقل "كنعان" إلى بيت سري آخر صغير وذي سقف واطئ فرض عليه أن يحني رأسه أن وقف على قدميه!! ودع رفيقه ذو القدم العملاقة "وأقنعه" انه سيترك الوطن اذ تعب من التخفي!! فيما رفيقه سافر للدراسة على نفقة الحزب!. وفي ليلة شتوية أنهى لقاءا سريعا في غرفة من غرف وكره، غرفة يمكن للمارة من الشارع بحذاء وكره أن تلحظ ضوءها من خلال نوافذها. كانت الساعة العاشرة مساءا عندما انتهى من اللقاء، خرج زائره وانتقل "كنعان" إلى غرفة ثانية بعد أن اطفأ المصباح الكهربائي في الغرفة الأولى ومن الشارع لا يمكن ملاحظة الضوء في الغرفة الثانية.

كان اللقاء سريعا ومتوترا بحكم المواضيع التي بحثت فيه. ترك كنعان غرفته المضاءة وخرج يتمشى في الممر المحاذي لباب البيت والمنزوي عن جهة الشارع. كانت الساعة العاشرة وخمس دقائق وهو يتمشى بخطوات سريعة ويدخن كعادته عندما يعمل دماغه بطاقته القصوى. فجأة وعند طرف الممر رأى جنديا يقف عند السور الملاصق للبيت ظهره للمر ولكنعان ويتبول!. لم يكن مضى اكثر من خمس دقائق فقط على مغادرة زائره وإطفائه للنور في الغرفة التي يرى ضوءها من الشارع!! احتبست أنفاسه، علا وجيب قلبه، أربكه ما رأى لثوان. لم يكن بينه وبين الجندي اكثر من مترين، فقط مترين!! تحرك رأسه وبؤبؤ عينيه سريعا لجهة اليمين، جهة الشارع والمدخل الرئيسي للوكر، فرأى سيارتين عسكريتين وجنودا يترجلون منها ويتوجهون نحو البيت نزولا على درجاته. تحرك الجهاز العصبي سريعا فانتزعه من ارتباكه اللحظي واصدر له أوامره: دون أن يحدث أي صوت يكشف عن وجوده، تراجع بسرعة. المسافة بينه وبين الجندي كانت قصيرة لدرجة أن تنفسه كان يمكن أن يسمعه ذلك الجندي الذي يمارس غريزته. كان يسمع صوت الخيط البولي الذي ينساب منتهيا لقاع السور. سار سريعا ودونما ضجة قاصدا غرفته. اغلق الباب جيدا بالمفتاح والمزلاج، اخذ أوراقه السرية ودخل الحمام واغلق بابه أيضا.

- أن خلعوا باب البيت فأمامهم باب الحمام وما بين المحاولتين يمكن حرق ما معي من أوراق. لم يكن في البيت وكرا صغيرا يحتمي به عند المداهمة. كان بيتا للاستخدام المؤقت لأيام، لأسابيع على الأكثر. لم يكن بيتا سريا بالمعنى الكامل للتسمية. بعد اقل من ثوان على دخوله الحمام، بدأ الجنود بالطرق على الباب بقوة:
- افتح، افتح، الحاكم العسكري. افتح جيش!!

استمروا بالطرق لبضع دقائق. كان طرقهم صياحهم، ثم شرعوا بمحاولة فتح الباب عنوة وبالطريقة التقليدية التي تميز جند الاحتلال ورجال الشرطة الأمريكية: يتراجع جنديان أو ثلاثة للخلف يندفعون بقوة تجاه الباب يدقونه بأكعاب بساطيرهم الثقيلة. كان يقبع في الحمام منتظرا. قتله الانتظار والعجز عن فعل شيء سوى أن ينتظر.

هل تنتهي تجربتي بعد سنوات ثلاث؟ أي تجربة التي ابتدأت لتنتهي؟ انها "تجربة" لا تستحق معانياتها التي بالكاد خلفتها ورائي. ماذا سيقول الحزب؟ لماذا جئت لهذا البيت اللعين؟ ماذا أتى بهم إلينا؟

أكثر من عشر دقائق وهم يمارسون طقسهم في الهجوم بكعابهم على الباب محاولين خلعه. كنعان ينتظر ويجهز نفسه للمواجهة التي رآها مبكرة جدا. فجأة توقفت محاولات خلع الباب لينتهي "انتظاره" ويلج آخر:

هل افلت من "قبضتهم"؟ هل ذهبوا أم يكمنوا خارج البيت عل اطمئناني يدفعني لحركة أو إصدار صوت فيتيقنون من وجودي؟ إلا يحتمل أن بعضهم ذهب ليحضر أداة لخلع الباب او تفجيره؟

مع "انتظاره" الجديد كان الشك بسلوكهم يحيره، أي نفس قصير يتمتعون به إذ لم يحاولوا سوى لدقائق لخلع الباب؟ قرر أن يبادر: تسلل سائرا على رؤوس أصابعه من الحمام وبيده أوراقه وولاعته متحفزا يلتقط أية نأمة تأتي من خارج البيت، تطلع من النوافذ فلم ير أثرا له، سمع فجأة صوت شاحناتهم العسكرية تتحرك ثم تبتعد.

- يبدو انهم رحلوا. هل أخاطر بالخروج خشية أن يعودوا! احتمال الكمين قائم؟ ام ابقى وأعرض نفسي للاعتقال أن عادوا؟

البقاء مخاطرة والخروج مخاطرة والحياة السرية برمتها خروج من واحدة لولوج اخرى وما بين مخاطرتين اتخذ قراره سريعا بالأخذ بالمخاطرة الثانية. فتح الباب محاولا ان لا يحدث أي صوت. قصد السور بسير على مهل واذناه ترصدان أي ذي صوت ذو معنى. تسلق السور سريعا وقفز وأطلق ساقيه للريح في السهل الواسع الممتد خلف البيت قاصدا بيتا آخرا يأويه. كان البيت الآخر الذي اختاره بيت سكينه.

أي صدفة سعيدة حملت زائره على الرحيل عند العاشرة وخمس دقائق بحيث اطفأ الضوء في الغرفة الأولى؟ أي صدفة حملته للتمشي على الممر بحيث يلتقط "طليعة" الجنود وهي تبول؟ أي صدفة سعيدة دفعت مئانة ذلك الجندي اياه للامتلاء بحيث يتوقف لثوان فيتمكن كنعان ان يصادفه؟ تذكر دعاء أمه سنة ١٩٨٢ "رح يا بني الله يرضى عليك"!. لقد رتب القدر سلسلة صدفاته السعيدة دفعة واحدة، ترتيبا رائعا أنقذه من براثنهم. في حياة الثوري صدف سعيدة كثيرة كهذه، لكن هناك فقط صدفة واحدة سيئة، فبعدها يكون وقع المحظور وقد يدفع حياته ثمنا لسلوك القدر. العمل السري وذكاء المتمرس يلغي صدفا سيئة كثيرة لكن الحياة تملك منها الكثير الكثير بعدد لانهائية امكانات التغيير في احداثها، لذلك كان الاعتقال والاستشهاد من الاحتمالات التي تكاد تكون حتمية.

وصل بيت سكينه منهكا وتعبا، يلهث من الإنفعال ومن الآف علب السجائر التي تجمع نيكوتينها داخل شرايين رئتيه على مدار سنين. صنع كأسا من الشاي

وتمدد على السرير يتأمل ليلته واحداثها. بدا له انه انتظر لسنوات لا لدقائق بين لحظة بدء طقسهم ولحظة انسلاله خارجا.

انتظاره الآن يختلف عن سابقه سنة ١٩٨٥. حينها كان مضى على حياته - تجربته سنوات قليلة لم تكن قد فعلت فعلها فيه. الآن شيئا آخر. الآن سنوات طوال عاشها بقسوتها، بتحدياتها، بانتاجيتها، صقلته، عجنته وشكلت ملامحه. بين الإنتظارين، انتظار ١٨٨٥ وانتظار سنة ١٩٩١ عاش حياته بالطول والعرض والارتفاع أيضا! لقد حمل صليبه، وزر نضاله، مسؤوليته أمام شعبه، لكن منتصب الظهر لا محنيه. لم يقل ولن يقول يوما كما قال السيد المسيح في آخر صيحة له قبل أن يسلم الروح "الهي الهي لماذا تركتني". وان وقع فلن ينكر معلمه-حزبه كما أنكر بطرس القديس معلمه المسيح ثلاث مرات!!. انتظاره الان اكثر جدية. الان مصرون، خلعوا الباب الثاني وسيبحثون عنه. انتظاره الان هو الاصعب والاكثر قسوة، انهم يقتربون من جسده المكوم في الوكر الحجري المعتم فيما بات يرى منذ خلعوا الباب الثاني حياته السرية تزحف بعيدا، حثيثا حثيثا كما ثعبان يهرب من عصا تهش في وجهه. بعد نصف ساعة من بحثهم عنه سمع وقع خطواتهم قرب الحزانة التي تخفي وكره الحجري الصغير، كانت خطواتهم ثقيلة، ثقل أحذيتهم العسكرية، كثيره كثرة جنودهم وضباطهم الذين يجوسون البيت. مع وقع خطواتهم يسمع اصوات احاديثهم التي لا يفهمها. لا يفصل بينهم وبينه سوى حائط فيه فتحة وثبتة فيه خزانة، هي حفنة من السنتمترات تفصل بين النقيضين. سنتمترات تفصل بين حياة وحياة!! مسافة صغيرة تختصر تسع سنوات طويلة بين فتح باب واقفاله والارجح سيتم بعد قليل اعادة فتحه من جديد. مسافة تحمل على ظهر سنتمتراتها كل ذلك المعنى: انتهاء حياة وبدء حياة!!. كيف تقوى تلك السنتمترات على كل هذا الحمل الثقيل؟. حمله هو بمعاناة كبيرة، فهل تعاني هي الاخرى، هل تشعر بحملها؟■

الفصل الخامس

الفصل الخامس

باب الخزانة ينفتح. ايديهم تنقر على اللوح الخشبي تتفحصه، تتحسسه، تشمه، كالكلاب تشمم آثار طريدتها، تحتبس انفاس كنعان ويعلو وجيب قلبه.

- آه ما أقسى الانتظار! انتهى كل شيء!

"تلك هي اللحظة يتحسسون اللوح الخشبي الخلفي. مليمتران فقط الآن بينك وبينهم. هما فقط سمك اللوح الخشبي. لا سنتمترات حقيرة بل مليمتران احقر!. إحرق أوراقك كي لا تدنس حياتك السرية. احرق حياتك السرية التي تنمنمت حروفا وكلمات على الورق. اطلق رصاصة الرحمة على حصانك الهرم ولا تدعهم يهزءون به. لا تسمح بكشف الحزب على الطاولة.

يتحدثون بالعبرية وهم ينقرون ويتفحصون اللوح الخشبي، جرس اصواتهم يحمل معنى تساؤل أحاديثهم، إستغرابهم، تشككهم. أشعل الولاعه. بدأوا يعالجون الخزانة بعتلاتهم الحديدية لاقتلاعها من الحائط المثبتة به بأربعة براغ قوية تنغرز عميقا في الجدار. لم يكتشفوا اللوح يتحرك صعودا وهبوطا، فقرروا خلع الخزانة برمتها، لفحص ما ورائها.

"سارع! حذار أن تسبقك عتلاتهم. أشعل النار في حياتك- تجربتك المرصوفة على سطح الورق الناعم".

قرب لهب ولاعته من الكاز فاندلعت النيران وبدأ سريعا يلقمها بالأوراق. وفي نفس اللحظة ألقى برسالته لهند في فمه وبدأت أضراسه بتفتيتها بصعوبة بعد طيها وثنيها وتغليفها بأكثر من غلاف بلاستيكي ورقي وقد أصبحت الرسالة بحجم حبة خوخ فيصعب حرقها. النيران تهسهس وتلسع وجهه وأصابع يديه والدخان المشبع برائحة الكاز بدأ يغزو منخريه ورئتيه. استمر يلقم الاوراق بسرعة جنونية وعتلاتهم تعالج أمر خزانته والدخان يتصاعد كثيفا. أنفاسه لاهثة، تعبة، متلاحقه، متوتره. توتر القتال يسيطرعليه. أوراقه كثيرة ووكره ضيق وصغير والهواء لا يدخله. العرق يتصبب من وجهه وهو مستمرا بإلقاء الاوراق في العلبة المشتعلة. حرارة النيران تلهبه والدخان المتصاعد يسبب الحرقة لعينيه ويؤذي رئتيه فيجد صعوبة في التنفس. أحس بنفسه يكاد يختنق.

عتلاتهم لا زالت تعالج أمر البراغي الاربعة لاقتلاع الخزانة. أصواتهم وحركات أيديهم كانت محمومه. فجأة حدث ما لم يحسب حسابه، حانت اللحظة التي

يقدم فيها القدر صدفته السيئة مناكفه، حرون، معادية، ابنة عاهرة وسخة!. الدخان الكثيف المتصاعد كون طبقة من ثاني أكسيد الكربون فمنعت تلك الطبقة الأكسجين عن النيران فانطفأت!. أحس كما لو روحه غادرت جسده. أي صدفه حقيرة ووسخه تلك! بل أية ترتيبات أمنية ساذجة!. أسرع يحاول إشعال النيران من جديد، أعلنت الولاعة هي الأخرى العصيان على رغبته فلم تشتعل! شتم بأقذع الشتائم التي حواها قاموس اللغة الشعبية وهو قاموس حافل غني!!. صدفة مجافية كهذه في لحظة مصيرية كتلك تبعث على الظن بأن كل الصدف السيئة في العالم تجمعت ضده. كأن لا بشر غيره تتلهى بهم!!.

سارع يا كنعان، سارع! انت في سباق مع عتلاتهم التي تتقدم وتتقدم. ستنتزع عتلاتهم روحك إن وصلوك وأوراقك حيه ترزق!. جد حلا وبسرعة. لم يجد سوى حلا واحدا أمامه. بدأ يتناول ما تبقى من أوراق ويلقي بها في فمه. يلوكها سريعا ويبتلعها ومعدته عليها أن تتصرف. أضراسه تعمل كما لدى الفأر، سريعة، وقاضمة. يقضم ويلوك ويبلع بسرعة قياسية كنهم حرم من الطعام أياما وفجأة وجد اللحوم والأطايب!!. بعض الأوراق تشربت بالكاز ولم تحترق تماما. لم يتردد. تناولها ودسها في فمه، قضمها، لاكها وبلعها. كان له هو الآخر طقسا آخرا خاصا به يمارسه الان، طقسا وحشيا، بدائيا يليق بالانسان-الحيوان، انسان الغابة. الدخان يزداد تأثيره على رئتيه، لم يعد يستطع فتح عينيه من كثافة الدخان ومن ألم حرارته. أغلق عينيه جيدا واستمر بممارسة طقسه الوحشي. قرب أنفه من الشق الخيطي الرفيع ما بين خشب الخزانه وحافة مدخل وكره محاولا بصعوبة التقاط ما يتسرب من هواء يعينه على التنفس. يلتقط خيطا هوائيا رفيعا، رفيعا جدا ويتنفس بصعوبة وعيناه مغلقتان تشتعلان حرارة ويدس بفمه ما بين أيديه من أوراق. معركته على أشدها. من سينتصر؟ ذلك الذي لا يملك إلا أسنانا وأضراسا تطحن ومعدة تهضم أم أولئك بعتلاتهم الحديدية؟.

بدأت معدته تؤلمه. في حلقه وجوفه حرقة الدخان وطعم الكاز المقزز. لم يتوقف. تحسس جيدا ما حوله كضرير يكتشف مكان قدمه والاشياء المحيطة به. تأكد ما خلو ما حوله. بالكاد كان يتنفس. بصعوبة كانت معدته تهضم ما تستقبله من أوراق محبرة وعيناه تشتعلان ولا يقوى على فتحهما ولكنه انتصر. كسب السباق- المواجهة غير المزئيه. انتهى من حفلة القضم واللوك والبلع والهضم قبل أن ينتهوا من خلع الخزانة.!

أتعبته خزانته بصنعها وتركيبها وتثبيتها في شتاء كان قارصا. ها هي أخلصت له واستبسلته متمسكة بحائطها الذي تلتصق به، لتمتنع عليهم فتمنحه مدة

كافية لهزيمتهم!. كانت هي الاخرى صديقته، مثل الباب والجدران والطاولة والكراسي والأقلام... كل ما في وكره الكبير. أخيرا انتصر وكسب السباق. لم يشغل ذهنه سوى الاتيان على أوراقه حرقا وبلعا فانتصر. لم يخطر الموت على باله اختناقا، لم يكترث بالموت الذي لم يقترب منه في حياته كما فعل الان. صارع مثل بحار يواجه بحرا هائجا فأنقذ نفسه ومركبه من الغرق. لقد انتصر.

يجلس الآن على حافة مدخل الوكر المرتفعة بضعة سنتمترات ويسند ظهره على الحافة الجانبية للمدخل. كان يسعى لالتقاط اكبر كمية من الهواء الذي ينجح بصعوبة بالتسلل من الشق الخيطي الرفيع. حاول ان يتنفس بانتظام ليريح صدره المتعب. جاهد لفتح عينيه فلم يستطع. كانت عيناه تؤلمانه جداً.

أما محاولات خلع الخزانة فقد كانت حثيثة. كانوا يواجهون صعوبة بانتزاعها من الجدار فالبراغي الاربعة المنغرزة عميقا جعلها وإياه جسما واحدا. رغم ألم صدره ومعدته وحرقة عينيه، كان سعيدا. لا اروع من النصر. ينسى الانسان بعده الثمن الذي يدفعه على شرفه. كان فرحا لحفاظه على اسراره وانتصاره في جولته التي عدها الأولى. كل له "تقاليده" في التعبير عن مشاعره. عنده التدخين كان التقليد الثابت للتعبير عن كل ما يعتريه من مشاعر! للحظة الانزعاج، التوتر، الترتب، التفكير، الانتعاش، لا أروع من سيجاره يعب منها باستمتاع . كان وهو جالسا على حافة الوكر يعيش لحظة الانتعاش اذ فاز بالسباق.

- لأدخن سيجاره. الله وحده يعلم متى يحين موعد التدخين مرة ثانية!. بل قد لا أدخن غيرها!. خلع الخزانة كما هو واضح يستغرقهم بعض الوقت. تحسس بيده موضع علبة السجائر. لقد جمل سجائره معه عندما حمل أوراقه واندس في وكره المعتم. كان يتوقع ان يمكث وقتا طويلا وربما لا يجدونه، يفتشون لساعات ولا يجدونه، إن السجائر حينها ستكون رفيقته التي عليها أن تؤنس وحدته في الوكر. الرغبة في السيجارة جامحة ولا شيء يعدلها. تناول سيجارته ووضعها بين شفتيه، قرب الولاعة. هل ستخذله كما فعلت قبل قليل؟ أدار مقداحها محاولا آن لا يحدث صوتا عاليا، خذلته ولم توافق رغبته، شتمها دون آن ينطق. كرر المحاولة ثانية فخذلته مجددا. "هيا يا بنت العاهرة، لا تخذليني، أتوسل اليك" ناشدها باستعطاف، قربها من الشق الخيطي الرفيع بين الخزانة التي تزحزحت قليلا ومدخل الوكر، ليستثمر بعض الهواء المتسلل. قدحها ففعلتها وانصاعت.

عب نفساً طويلا مستشعرا الدخان يغزو كل ما مسامات رئتيه وشرايينها. "متع الرجل الشخصية ثلاث: السيجارة والمرأة وكأس العرق". جربها الثلاث واقتنع ان حنا مينا، كاتبه المفضل، روائي وحكيم ايضا. أي متعة شخصية يطلبها من يعتد الحياة سنينا بين الجدران، مقيدا بسلسلة لا تنتهي من (الاجراءات، التحوطات، المتطلبات والقواعد). كثيرا ما قال له الحزب "رغباتك بسيطة لا تخجل ان تطلبها

فتحقيقها بسيط" شريط جديد للشيخ إمام يتضمن أغان جديدة له. صحنا من "البقدونسية" مع الثوم وكأس العرق. رحلة في السيارة لعشر دقائق يتأمل فيها معالم مدينته ويرتب ما تغير فيها. خمس شطائر "شاورما" وثلاث زجاجات من "البيرة" أي ٥×٣ كما اعتاد هو وهشام ان يسميا أكلتهما المفضلة. طفل لم يتجاوز السنة الأولى من عمره يلاعبه لساعات. تلك وغيرها كانت بعض رغباته ومتعة، فالحياة السرية تقزم طلبات المتعة والرغبة الى أدنى حد ممكن، يجعل كل ما هو بسيط عزيز المنال رغم بساطته.

في تلك اللحظة وهو يجلس منتظرا وصولهم لجسده كانت السيجارة متعته. دائما كانت بنزين تلك الماكينة المنتصبة بين كتفيه. تختلط متعته بسحب نفس طويل وعميق من سيجارته بانتعاش مشاعره، بضجيج احاديثهم متجمعين عند الخزانة، بصوت عتلاتهم تفتت الخشب وتحتك بالحائط محدثة انجاز مهمتها. انزاح المجهول الذي كان يؤرقه وهو دائما يؤرق من يتحسسه. انزاح وما هي الا دقائق حتى يصلونه، وهذا جعله يهدأ اكثر وجعل انفعاليته تتراجع. نسي امر عينيه اللتين تحرقانه من الحرارة ولم يعد يشعر بطعم الكاز المقزز في حلقه. صدره ممتلئ بالدخان الفاسد، يتقبل دخان السيجارة كالمعتاد كأن شيئا لم يتغير. كان يدخن هادئا رابط الجأش لا يبدو اثر للانفعال عليه، فقط كان يشعر بارهاق شديد نتاج المجاهدة في معركته الاولى.

حوالي ربع ساعة استغرقهم خلع الخزانة. ما ان انخلعت حتى قلبوها على الأرض، فأحدثت دويا هائلا وتحطمت بعض أبوابها. تدفق الدخان المحتبس في الوكر بسرعة واندفاع، فتح عينيه بصعوبة وبالكاد رآهم جيدا. كان لا يرى سوى اشباحا يغلب عليها اللون الاخضر، تحمل اسلحتها ومصابيحها الكهربائية وترتدي قبعاتها، لم يستطع احصاء اولئك المتجمعون عند الخزانة الملقاة ارضا. للحظة بدا الجنود وكأنهم صعقوا بالمشهد امامهم: الخزانة ستاره مسرح رفعت عن مشهد جمدهم لثوان، مكانهم ومصابيحهم الكهربائية تكشف لهم من يقف على خشبة المسرح: انسان يجلس على حافة باب يقود لجحر معتم، وجهه شاحب، تعب، مرهق، عيناه تنفتحان قليلا فيظهر الاحمرار جليا داخلهما. دخان كثيف يتدفق من باب الوكر، سيجارة لم تنته، تتدلى من فم الوجه الشاحب المتعب، وبعض من السخام الاسود ظهر يغطي الجدار المقابل لفتحة الوكر. عندها سلطوا مصابيحهم الكهربائية هجموا عليه بعد ان تسمروا لثوان مأخوذين بما يشاهدون، مدوا ايديهم متدافعين كوحوش كاسرة تتدافع متقاتلة لافتراس صيدها.

انتزعوه من جلسته تلك بقوة وعنف. كانوا يشعرون بسلوكه الاستفزازي حين رأوه جالسا والسيجارة تتدلى من فمه ولم ينهض حينما وصلوه، كانوا يتوقعون بان يتصرف بفزع وبهلع تعودوا ان يشاهدوه في سلوك بعض من يعتقلونهم. تناولوه سحبا من ملابسه، من ابطيه وطرحوه ارضا بوحشية تميز كل جندي احتلالي. بدأوا يكيلون له الضربات على كافة انحاء جسمه باحذيتهم العسكرية وباعقاب بنادقهم، وبقبضاتهم وبتركيز على ظهره وخاصرتيه. استجمع كل ما أوتي من قوة ونفض جسده بسرعة ووقف وبكوع يده اليمنى وجه ضربة لاحدهم في صدره فترنح الاخير ووقع على ظهره ليسنده حوض الماء المثبت بالحائط فعاجله أحدهم بضربة من فوهة بندقيته لتصيب حاجب عينه اليسرى اصابة بالغة فتشجه. هجموا عليه بقوة مستفزين من دفاعه عن نفسه. عادوا وطرحوه ارضا ليعودا لضربه بوحشية اكبر، احدهم يمسك برأسه من الخلف ويضربه في الارض، وآخرون تكفلوا بتوجيه الضربات بأحذيتهم الى ظهره وخاصرتيه وقدميه، استمروا يمارسون وظيفتهم حوالي خمس دقائق وخلالها لم يكن لسانه ليكف عن الشتائم بنوعيها السياسية والجنسية وكلما شتم ازدادوا همجية ليزيدهم شتما.

سمع صوتا قدّر انه يطلب منهم التوقف عن الضرب. اوقفوه على قدميه وكان لا يستطيع التحرك من الم الضربات على كافة انحاء جسده والدماء تسيل على وجهه متدفقه من الجرح النازف من حاجبه الايسر. طوقوه واوثقوا يده خلف ظهره بحبل مطاطي حبس دماء يديه . اوقفوه في الحمام وظهره للحائط واثنان يصوبان نحو صدره بنادقهما الآلية من نوع "ام ١٦" كما لو ان حكما بالاعدام سينفذ به. اقترب احدهم منه، ومن ملابسه المدنية قدر انه ضابط في المخابرات، بادره كنعان:

- اسمع انا مناضل ثوري وماركسيّ متفائل باننا يوما ما سننتصر وننتزع حقنا وهذا يمنحني القوة ويجعلني لا اخضع للارهاب وللزعرنة التي تمارسها انت وجنودك. لا تعتقد ان هذا يمكن ان يفيدكم بشيء فانتم لا تخيفونني.

كان يتحدث بانفعالية وبصوت عال، ولكن كلماته نطقها باصرار ووضوح. كان يريدهم ان يتعرفوا منذ البداية على حقيقة قوته دونما رتوش او تردد. هي مواجهته الاولى المباشرة معهم ويريد حسمها لصالحه فعلى المواجهة الاولى يتوقف الكثير. رد رجل المخابرات بعربية ركيكة وهو يرفع أصبعه في وجه (كنعان) مهددا:-

- انتبه لما تقول. نحن لسنا ارهابيون او زعران. نحن ننفذ القانون. الارهابي من يختبيء كهذا [واشار بيده نحو فتحة الوكر]. انت الذي بدأ بالمعاندة والمشاكل. انا لا اريد الامور هكذا. لماذا لم تفتح ابواب البيت؟ لماذا كنت هنا؟.

- أبواب بيتي إفتحها لمن اشاء ومتى اشاء فهو بيتي فـهذا شـأني وليس شـأنك ولا تسألني عنه.
- ما اسمك ؟ من انت؟
- لن اقول لك!

جحظت عيناه وهز راسه كمن يكتشف حقيقة ما:
- ما الذي حرقته هنا؟ لماذا كل هذا الدخان؟

قال مشيرا للمرة الثالثة تجاه الوكر وبقايا الدخان لا تزال تتسـرب وان قليـلا منه. رغم الارهاق الشـديد والـم الضربـات وتوتـر المواجهـة والموقـف لـم يسـتطيع كنعان الا الابتسام لـهذا السؤال الغبـي. رد والابتسـامة الخفيفـة تتطبـع علـى وجهـه المرهق، المدمي:
- سؤالك غريب! بل ومضحك، لـو كنـت اريـدك ان تعـرف مـا الـذي حرقـت لمـا حرقته اصلا!

لم يرد بشيء بل امعن النظر بكنعـان وهـز رأسـه ثانيـة. ادار راسـه تجـاه جنوده وخاطبهم بعبرية لم يفهمها. ألقوه ارضـا ممددا علـى بطنـه بعد ان عصبـوا عينيه وأوثقوا قدميه بحبل مطاطي شبيه بالذي قيدوا به يديه.

آخر انتظاراتك في حياتك السرية انتهى. انفتـح البـاب الـذي صرخـت فيـه يوما: ألن تنفتح يوما؟ ألن أخرج منك لأعيش في الطبيعة؟ هـا هـو انفتـح، قدمـاك لن تنقلاك للطبيعة بل للزنازيين النتنه، اما بعدها فلا تعلم، اخـر ليلـة تقضيـها فـي بيتك السري، تودعها الان الى غير رجعة. املك الواهي بان لا يجدونـك تبخـر مـن امامك وها انت على ارضية الحمام ممدا وهم من حولك يجوسون البيت. المجهول انزاح فسحبوك من وكرك ليحـل محلـه مجـاهيل ومجـاهيل. عد لممارسـة رياضـة "الانتظار"-المجهول فتدبر امرك الان كما تدربت منذ سـنين ان تواجـه وتتحـدى، واول الغيث قطر: علامات احذيتهم وقبضاتهم وبنادقهم على حاجبك الايسـر الـذي يسيل دما، على ظهرك، راسك، خاصرتيك. تنبأت ان معركتك معهم سـتكون داميـة كتلك الدماء التي تسيل فتغطي وجـهك والبـلاط الـذي يلامسـه. وطّن النفـس علـى معركة دامية ومطولة فاول الغيث قطر، اول الغيث قطر.

سمع خطواتهم تتحرك في البيت وتدلل على كثرتهم. اصواتـهم تمـلأ البيـت الذي كان ساكنا قبل اقل من سـاعتين. اصـوات بعضـها آمـر وبعضـها ينـاقش ثالثـة تسأل ورابعة تنادي.. كانوا في غمار حركة دائمة فقد وقع بين ايديـهم الليلـة مـن لـم يتوقعوا ان يقع. ظـروف القبـض عليـه داخـل الوكـر، النـار، الدخـان والغرفـة التـي تحتوي ماكنيات الطباعة، كل ذلك جعلهم يعملون بسرعة ونشاط وفرح. وثـاق يديـه

جعل الدماء تحتبس فآلمته. الجندي الذي أوثقه لم يجد وسيلة للانتقام غير شد وثاقه للدرجة التي آلمته. جندي تافه ينتقم بطريقة تافهة!.

يحاول كنعان ان يحرك يديه ليخفف بعض الشيء من شدة الوثاق. كان يتأمل نفسه وهو ملقى على ارضية الحمام وعلى قناعة تامة بان واجب حزبه محاسبته ومساءلته. لقد كان يسأل دائما عندما يعتقل احد رفاقه: أتساهل مع اجراءات التحوط وجعلهم يقبضون عليه ام بذل كل ما بوسعه للتملص والتمرد على الاعتقال. من باب اولى ان يضع نفسه امام حزبه موضع المساءلة. كان حزبه يقول له دائما:(أمن بيتك مسؤوليتك، دقق مرة واثنتين وعشر وضع قواعد لحياتك لتحافظ على نفسك). لم يكن ليتردد بذلك.

كنت ادقق مرة واثنتين وعشر فماذا جرى؟ كيف وصلوا لي؟ كيف وصلت لهذا الوضع؟ دهمته الاسئلة من جديد. تصر هي ان تطرح ويصر هو على ان الاوان لم يحن لها. لأتحمل مسؤولية اعتقالي كاملة، مسؤولية هجراني للصفوف، بعد ذلك فقط يمكن نقاش الأسباب التي أدت لاعتقالي.

أصواتهم لا تزال تهتك هدوء وسكينة سنين ميزا بيته. مجرد المقارنة بين حال بيته قبل ساعتين والان يشعره بغضب لا يوصف. سهر مع هشام في الغرفة التي يلقون به على أرضها الان وعوضا عن شوي اللحم الذي احضره هشام معه، اقترح كنعان تأجيل حفلته ليوم آخر خلال النهار. استعاضا عن اللحم بالسلطة مع الزيت والجبنة البيضاء والمخللات. لا زال الطبق الكبير يحمل بقايا عشائهم موضوعا في مكانه: على الطاولة الصغيرة في الغرفة اياها امام التلفاز. تناقشا في كل شيء، تابعا فيلما بريطانيا، تعشيا ثم انتقلا عند منتصف الليل الى غرفة النوم. كعادته كل ليلة نقل التلفاز معه لغرفة نومه اذ كان قبل ان ينام يقوم بجولة بحثا عما يمكن متابعته في التلفاز. لم يجدا ما يغري المتابعة فتناول هشام كتابا ليقرا فيما اندس كنعان في الفراش لينام وما هي الا دقائق حتى كان ما كان. يتذكر كنعان ويشعر بالامتعاض. لقد عبثوا ببيته-عرينه. يخربون كل شيء فيه. يجب ان يدفعوا الثمن. معركته الاولى بحرق اوراقه بداية دفعهم للثمن، رفضه اعطائهم اسمه خطوه اخرى سيليها خطوات اخرى. مهما دفعوا من ثمن فلن يدفعوه كاملا. معركته بحرق اوراقه استعاد تفاصيلها التي ما برحت تفكيره بعد: الاوراق، الكاز، الولاعة، اللوك، البلع، صدره، معدته، عيناه.... معركة جنونية كانت بينه وبين عتلاتهم. عجيب امر الانسان، لا يتذكر في لحظات السلم سوى ضعفه، تردده، عجزه فيما في لحظات الخطر، زمن الحرب يكتشف ان لديه قوة جبارة يصعب احيانا وصفها. عندما يقاتل الانسان دفاعا عما يعتبره حياته، باراده وقناعه راسخه بعدالة قتاله

ومشروعيته فأنه يتحول لانسان غريب بقوته، شاذ بتصرفاته. في ظرف طبيعي لم يكن كنعان ليقدم على ما اقدم عليه داخل وكره ولو منح كنوز الدنيا! كاد يختنق من الدخان، كان اللهب الذي هب فجأة بفعل كمية الكاز الكبيرة ان يحرق وجهه وعينيه . كل ذلك لم يثنه. داخل الانسان طاقة هائلة على التحمل. ذلك كان واجهه مرارا في حياته السرية.

وبعد نصف ساعة من القائه ارضا في الحمام حوالي الثانية والنصف بعد منتصف الليل عاد رجل المخابرات من جديد. انهضه عن الارض، قطع وثاق قدميه وقاده الى غرفة النوم يرافقه جندي. حينما أزاح الجندي الغطاء عن عيني كنعان تمكن الاخير من النظر لغرفة نومه لثوان: خزانة الملابس مخلعة، كل قطعة فيها ملقاة في جهة وكيفما اتفق، فرشات الاسرة ممزقة باداة حادة ومحتوياتها من الاسفنج متناثرة في الغرفة، ملابسه ملقاة على ارضية الغرفة وبعضها ممزق، تمزيق الملابس عكس توترهم ورغبتهم بالانتقام والا فماذا سيجدون بين خيوط ملابسه ليمزقوها. فقط التلفاز وطاولته بقيتا كما هما فمصادرتهما أهم من تحطيمهما. غرفته لم تعد غرفته، بعدما ازاح الجندي غطاء عينيه تناول سكينا ودار خلفه وامسك بيديه لفك وثاقهما فيما ضابط المخابرات يقلب بعض الكتب الملقاة على ارضية الغرفة. بينها كان كتاب "الدفاتر الفلسفية" للينين الذي كان قرأه قبل ايام. كان رجل المخابرات يدقق النظر في الكتاب وصفحاته والهوامش التي كتبت على اطرافه.

أثناء فك وثاق يديه انغرس سكين الجندي في اللحم عميقا. احس الدماء تسيل من يده:

- انتبه، يدي يا اخو الشرموطه!

صاح بالجندي متأوها. انتبه رجل المخابرات لصيحته ولشتيمته:-

- ماذا جرى؟ لماذا تسب الجندي؟

لم يرد. كان يتطلع ليده التي يسيل الدم منها غزيرا، لاحظ رجل المخابرات الدم فاقترب وامسك بيده يتفحصها ثم تفحص حاجبه المدمي ايضا. تحدث للجندي ثم توجه لكنعان:

- انا آسف لما فعله الجندي فهو لم يقصد ان يجرحك. عندما تصل للسجن اعدك بعلاج طبي لعينك ويدك. طبيب السجن سيفحصك فهذا هو القانون. كل ما حدث معك منذ وجدناك في مخبأك تطورات لا نريدها.
- اعتذاراتك لا تخفي حقيقتكم عني كما انها لا تعيد الدماء التي تسيل. جنديك ربيتموه كفاشي وهو مخلص لتربيتكم.

لم يبد عليه انه سمع ما قيل او انه تعمد ان لا يسمع ما قيل!

- ما اسمك؟ لماذا لا تريد آن تقوله لي؟.

استفز كنعان لهذا الاسلوب الساذج، مقدمة مليئة بوعود واعتذارات ملحقة بسؤال عما يريد معرفته: اسمه. وبنفس الوقت امتعض لان رجل المخابرات اعتقد ان هكذا اسلوب ينطلي عليه (لم يعرفني كفاية حتى اللحظة) حدث نفسه فيما كان رجل المخابرات يحمل بيده بطاقتي هوية شخصية، الحقيقية تحمل اسمه كنعان صبحي والثانية مزورة فيها اسمه المستعار عادل امين. كان كنعان يدرك ان معرفتهم لاسمه الحقيقي ليست بالمهمة الصعبة، اتصال لاسلكي كفيل بكشف الحقيقة فمخابراتهم تبرمج عملها وفق الكمبيوتر وبطرق علمية لكنه قرر ان لا يعطيهم الاسم وعلى سبيل التحدي.

- مرة اخرى لن اقول اسمي لك!
- لماذا؟. قالها محاولا ان يظهر بمظهر هادئ الاعصاب.
- اولا لان بيتي ليس غرفة تحقيق حتى تسألني وثانيا لاني اريد هذا!.

ابتلع اهانه الاستعلاء الكامنة في الجواب.

- نحن يمكننا بسهولة معرفة شخصيتك عبر الاتصال بالمقر من هنا. نستطيع حل المشكلة بثوان لكن القضية لا تستحق كل ذلك. اعتقلتك واريد ان اسجل اسم من اعتقلت يعني محضر اعتقال أتفهم؟ يعني هل أنت كنعان صبحي كما هو في هذه (ولوح بيده ببطاقة الهوية الصادرة منذ ١٥ عاما) ام انك عادل امين كمافي هذه (ولوح بيده الأخرى ببطاقة الهوية المزورة منذ عام) كل ما اريده الاسم. المسألة بسيطة.

لكنه قرر ان لا يجعل منها قضية بسيطة.

- لن اعطيك اياه وعندما تشرع بالتحقيق قد اقول او اترك لك حل هذه المشكلة!.
- نحن من يقرر الان لا انت. عليك ان تفهم ذلك جيدا والا ستتعب دون فائدة. انت الان معتقل. افهم ذلك جيدا.
- سنرى من يقرر!
- سترى ذلك انت!. غير ملابسك الان فهي ناقعة بالدماء.

القميص الداخلي اصطبغ بالدم وبقع اخرى تظهر على بنطال منامته، خرج رجل المخابرات وأبقى حارسا يشهر سلاحا بوجهه. تحرك في الغرفة للبحث عن بنطال وقميص يلبسه. كان يتحتم عليه ان يبحث عما يريد اذ لم يبق شيئا في الغرفة على ما كان عليه فمعالم طقوسهم البدائية تظهر جلية على محتويات غرفته، انهى تغيير ملابسه وربط خرقة من القماش حول يده ليمنع استمرار نزفها، اعاد التأمل في غرفته مستغلا فرصة عدم ربط عينيه.

هاهي النافذة، نافذته على العالم. كم قضى من وقت هنا واقفا او متمشيا بينها وبين الجدار المقابل، جدار وكره الحجري المعتم. كان ينظر لعمال المصنع المقابل، مصنع الشكولاته وهم يتمشون عند الظهر يقضون ساعة الغداء. كان سمع ان متوسط اجورهم لا يكفي العامل ثمن التدخين واجرة المواصلات ان كان من ساكني الريف فيما المصنع مشهور بجودة انتاجه وتوزيعه الواسع ودخوله للسوق الاسرائيلي. اما في الانتفاضة فقد كسبها صاحب المصنع مرتين: تزايدت مبيعاته نتيجة وقف استهلاك المنتوج الاسرائيلي وقام بخفض اجور العمال استغلالا للبطالة الواسعة!. ومع ذلك يصرخ صاحبه كغيره من الرأسماليين (تضررنا من الانتفاضة، نريد دعما...). من نافذته نقم على عمال معمل الطوب وعلى ماكيناتهم الصاخبة التي كانت احيانا توقظه من النوم في الرابعة صباحا حين لم يكن قد نام ساعتين او ثلاثة ... من نافذته تلك كان يغذي ناظره من فتاة تسير في احد الشوارع المؤدية لبيته، من المترددين على المشاغل القريبة، من الحركة الحثيثة نهارا امام المطعم المجاور، من سيارة يتكرر ظهورها او اخرى تقف على مبعده من الطريق تثير التساؤلات.... من نافذته تلك كان يصب سيلا من الشتائم على اليوم الذي ظهر فيه نوع الكلاب على وجه البسيطة عندما تبدأ بمعزوفتها الليلية دونما مناسبة وبعزف يستمر احيانا لساعات! من نافذته وفي يوم من ايام الاضرابات الشاملة الانتفاضية رأى مرة شاب وفتاة يدخلان ممر البيت باتجاه الباب، لم يقرعا الجرس الكهربائي او يدقا الباب كما لم يعودا ادراجهما. استغرب سلوكهما، كانت الشوارع خالية من المارة والحافلات. انتقل للشرفة التي منها يمكن رؤية الباب الذي تحتها مباشرة، تطلع خلسة دونما ضجة فاذا بهما يتبادلان القبل ساترين نفسيهما بالحائط القائم عند الباب، تراجع بهدوء دونما ضجة تاركا لهما فرصة اقناص لحظات سعادتهما التي يضطرون لسرقتها خلسة وبهذا الوضع المنفر!. مسكينان فقد اعتقدا ان البيت خال من السكان فهكذا كان يظهر، لا بأس قال حينها ليعتقدا ما شاءا مع ان ذلك مضر لسرية البيت، المهم انهما فازا بلحظة سعادة!. من نافذته تلك كان يرقب هند عندما يحين موعد قدومها وعندما تنحرف يمينا فتعبر من الشارع الرئيسي للشارع المؤدي لبيته... كان يقفز فرحا وما هي الا ثوان حتى يفتح لها الباب منتظرا ان تدلفه!. عند تلك النافذة وقف هو وهشام ينظران خلسة الى الشارع المؤدي للبيت، الى مدخل البيت عندما سمعا حركة مريبة قبل اكثر من ساعتين ليكتشفا اشباحا لم يتحققا منها جيدا!

حالما انهى تغيير ملابسه قام الجندي بتقييد يديه وقدميه من جديد وبعصب عينيه واقعده على الارض. كان كنعان يتأمل سحنه وملامح الجندي وهو يبحث عن ملابس يرتديها. كان جنديا صغيرا بالكاد جاوز الثامنة عشرة، غرّا بكل ما في الكلمة من معنى، ضعيف البنية وصغير الحجم، وجهه ذو ملامح طفوليه، أنفه

صغير لا يكاد يظهر في وجهه، فمه تحسبه خرما صغيرا منسيا في وجهه وليس فما. باختصار كان كل ما فيه يذكر بكل شيء صغير. الانطباعات على وجهه تنبيء عن انسان لا يفقه شيئا مما يجري حوله بل اكثر من ذلك تنبيء تقاطيع وجهه بانه مرتعب لسبب ما، ربما ما جرى بعث الرعب في قلبه: ابواب تخلع، دماء تسيل، مخبأ ونيران ودخان واحتكاك بالايدي، جندي كهذا كما قدر كنعان من الصعب ان يكون قد شارك بقتال حربي. فقد بدا وكأن مداهمة البيت معركته الاولى في حياته العسكرية: "أي جندي هذا انه طفل". حدث كنعان نفسه وهو يرتدي ملابسه ويصوب نحو الجندي نظرات قاسية استفزازية تحمل طابع التهديد. لقد تملكته رغبة جامحة لاهانة الجندي بطريقة ما. كان جنديا يجسد التناقض بين الدور الذي رسم له كجندي احتلالي قمعي وبين وجهه ذي الملامح الطفولية التي تنبئ عن رعب وجهل بما يجري. (هل هذا الجندي هو من كان قبل اكثر من ساعتين يمارس الطقس الوثني، الجماعي، البدائي، ويرقص رقصة آكل لحوم البشر على باب بيتي؟ هل هذا من انهى حياتي السرية الليلة؟ من دنس عذرية بيتي، اغتصبها). شعر بالامتعاض والنقمة اذ خطرت له تلك الاسئلة حالما قعد مقيدا معصوب العينين.

بدأ هذا يمارس صبيانيته كان يريد ان يقنع نفسه بانه يمتلك قوة لا يمتلكها كشخص في الواقع امام قوة "المخرب الارهابي" الذي يجلس امامه. لقد لاحظ قوة "المخرب الارهابي" منذ ان بدأ يمارس كجندي طقسه حتى اشتباكهم معه بالأيدي. كل ما رافق المداهمة وتخللها من مواجهة سريعة مع رجل المخابرات، اظهرت للجندي قوة من يجلس امامه فتحركت عقده النقص لديه فاخذ يعبر عنها بحركات صبيانية استعراضية استفزازية ليقنع نفسه بقوته. تناول الجندي قرصا من الحديد يستخدم في رياضة رفع الاثقال وزنته ١٥ كغم ووضعه على راس كنعان. تنهد الاخير متأففا بصوت مسموع وحرك راسه ملقيا بالقرص على الارض، عاد الجندي وكرر فعلته. (يريد ان يتسلى ابن العاهرة) حدث كنعان نفسه والقى بالقرص من جديد ارضا. ازاح الجندي حينها العصبة عن عيني كنعان وصوب بندقيته نحوه مقربا فوهتها من صدره حتى كادت تلامسه وتكلم بالعبرية بكلام لم يفهم منه سوى كلمة "خبلان" وتعني "مخرب" واعقب حديثه بصيحة "بوم" مقلدا اطلاق النار بحركة تمثيلية.

- اخرس وضع بندقيتك في مؤخرتك.

قال بصوت اراده عاليا بعض الشيء. لم يفهم الجندي ما قيل له وحينها دخل رجل المخابرات الذي يبدو انه سمع ارتطام القرص الحديدي بالارض مرتين وكذا صوت كنعان.

- ماذا جرى؟ لماذا تصيح؟

- هذا الولد المنيك (واشار براسه ناحية الجندي) يريد ان يلعب، يضع القرص على رأسي والبندقية في صدري ويهدد باطلاق النار. انا لا احتمل حركاته الصبيانية، افهمه ان يتجنبني وان حركاته لا تخيفني.
- لا تتواقح عندما تتحدث عن الجندي. يبدو انك مثقف وبيتك مليء بالكتب ومع ذلك فلسانك وسخ جدا.
- صبري سينفد بعد قليل. احذر. الجندي ساطلب منه ان لا يقترب منك.

كان يتحدث وهو يلوح باصبعه مهددا.

- انتم تستحقون الشتائم لان سلوككم دموي وفاشي. هل تريد ان اشكره على زعرناته؟
- ساطلب منه ان لا يقترب منك. انتهينا.

وتحدث مع جنديه بلهجة آمره زاجرة، انكمش هذا الاخير كطفل عوقب. خرج الضابط بعد ان اعاد عصب عينيه. كان واضحا ان رجل المخابرات بدأ ينفذ سياسة التحقيق: يريد تهدئة الامور ما امكنه. وتعمد زجر الجندي امام كنعان كي يفرغ بطريقة ذكية شحنات الاحتقان والحقد داخله ولكي يمهد لمد جسور من الحوار المتعقل يعتقدها ستخدمه في التحقيق. الفرق واضح بين رجل المخابرات والجندي. الاول يفكر بمهمته المقبلة وبدأ منذ اللحظة الاولى للاعتقال بالقيام بها، فيما الجندي انتهت مهمته بانتهاء عملية الاعتقال.

مكث في غرفة النوم مقيدا معصوب العينين جالسا ربع ساعة اخرى ولم يقترب الجندي فيها منه. بعد ذلك انهضه احدهم وسحبه سحبا وهو مقيد اليدين يجرهما خلفه حتى الواسعة والقاه ارضا ممدا على بطنه ووجهه معصوب العينين، يلامس أرضية الغرفة لتبدأ مرحلة الانتظار الاكبر داخل وكره المنتهك. ■

الفصل السادس

الفصل السادس

حك عصبه العينين بالارض فازاحها قليلا لاسفل، مع الاحتكاك اصطبغت بقعة البلاط الملاصقة لجبينه المدمي بدماء كثيرة سالت منه. كان الان بتحريك طفيف لرأسه، لبؤبؤ عينه اليمنى يستطيع ان يرى من خلال العصبة المنزاحة قليلا أرجل الجنود المتحركة. لا يمكن ان تكف عين معتقل عن محاولة القيام بوظيفتها سواء كانت بين ايدي جنود او في ساحة الشبح في اقبية التحقيق. دائما تسعى العين لكسر الطوق وللنظر وليست بحاجة لتدريب لتقوم بذلك فما ان تعصب او يغطيها كيس حتى تجد طريقها.

يعبثون ببيته، عالمه. بيته الذي استعصى عليهم سنين وسنين اضحى ارضا تستبيحها احذيتهم الثقيلة بشعة الهيئة. حياته التي بقيت سرا مكتوما حتى عن أقرب المقربين اليه تتكشف الان امامهم وهاهم يهتكونه. اينما تحركت ارجلهم كان يستشعرها تتحرك فوق سنينه الماضية، سنين عاشها خارج قيدهم، خارج إجراءاتهم التي تكبل يديه، ملك للحزب والنضال. اما الان فقيودهم تلتف حول معصمه الذي كان لسانه وقد نطق عملا وجهدا، تلتفان حول قدميه لتمنعانه من التمشي بين جدار وجدار يفكر ويحيا تجربته. عصبة العينين تحرمه من رؤية أصدقائه، كتبه، اقلامه، الابواب، الجدران... بيته كان بقعة مجررة وسط ارض محتلة مارس فوقها سلطته، انتشى يوما اثر يوم وشعور بالتحدي يغمره وهو يحيا فوقها.

بتمزيقهم للارائك والفرشات كان يراهم يمزقون روحه وجسده، بعبثهم بمحتويات مكتبته كانوا كمن يعبثون بزاده اليومي، يدوسونه بأقدامهم كي لا يتزود منه ليوم جديد. اينما تحرك بؤبؤ عينه رأى احذية عسكرية- بساطير باللونين المعهودين الاحمر المائل للبني والاسود الغامق. تتحرك البساطير يمينا ويسارا، تذهب لتعود تتوقف لتتحرك من جديد، عيناه لا تريان سوى مجموعة كبيرة من البساطير بينهما عدد قليل من الاحذية المطاطية الخفيفة التي يرتديها رجال الشرطة، والاحذية الرياضية التي يرتديها رجال المخابرات. السيادة كانت للاحذية الرياضية، هي تفكر، تخطط، تتخذ القرارات، تصدر الاوامر وتقود الحملات ليلا فيما على البساطير ان تطيع وتتصاع وتنفذ الاوامر. اما الاحذية المطاطية فلا أكثر من اضفاء الشكل القانوني المزيف على السلوك الاحتلالي العسكري القمعي. نظام عسكري مراتبي، الحذاء الرياضي على رأسه والبسطار في قاعه وما بينهما كل انواع الاحذية والنعال كل حسب رتبته ونوعه ولونه يتدرج في الهيكل.

ما بين الحذاء الرياضي والمطاطي والبسطار اختزلت عيناه المتلصصتان الاحتلال لمجموعة من البساطير والاحذية. ابشعها كانت البساطير، جلدية، خشنة، متربة، ثقيلة، متسخة ووحشية الهيئة، مغبرة وفوق ذلك مدججة بالسلاح من اعلى عنقها حتى اسفل كعبها الثقيل والسلاح المحبب لديها كبساطير احتلال هو الامريكي وبندقية "ام١٦" تحديدا. البساطير هي تجسيد لوحشية وعدوانية الاحتلال. الاحتلال نفسه ليس سوى بسطار يقرر ويسن قوانينه، يقمع، يعتقل، يشرد، يقتل ويحكم. اينما وجد بسطار وجدت الوحشية والعدوانية وهذا مغزى عالمي يتخذه هذا الحذاء العسكري يقابل المغزى الذي تتخذه حمامة السلام.

رأت عيناه الاحتلال باكمله نظام ودولة وسلطة وقوانين كلها تتكثف بالاحذية. غابة من الاحذية ومن لا يعرف الاحتلال فلينظر لتلك الغابة فليعرفه على حقيقته كما رآها كنعان وهو ممدد على بطنه يتلصص مختلسا النظر مقيد اليدين والقدمين. كان يتأمل المشهد كمخرج سينمائي يدقق النظر في حركة ممثليه عبر عدسة التصوير، لكنه مخرجا لا يصدر الاوامر والتعليمات والتوجيهات، فقط يراقب، يدقق النظر ويتأمل. كان في الواقع متفرجا لا مخرجا، المخرج هو الحذاء الرياضي والممثلون بساطير (المشهد يصلح لفيلم سينمائي حول القمع والنضال) قرر وهو يتأمل غابة البساطير ويرى جسده نعشا كما رآه مرة في تأملاته ملفوفا بالاعلام محمولا على اكتاف اعضاء الحزب والجماهير!.

لكنه ليس مشهدا سينمائيا ذلك الذي تراه عيناك. انه حقيقة واقعه تدوس بثقلها حياتك ومستقبلك. ان بساطير مشهدك ايها المخرج-بل المتفرج قلبت حياتك راسا على عقب، انتزعتك من حزبك ورفاقك ومهامك في لحظة حساسة وحرجة من عمر حزبك. البساطير الان تقرر مصيرك بعيدا عن الشمس ستأخذك، لزنزانتك النتنه او لقبرك المعتم او لغربتك القاتلة. من حضن جدران بيتك وابوابه ستحملك والى قلب المجهول تقودك، أنهت حياتك السرية ومعها ما اعتقدته اقنوما "ثالثا" انتظرته يكمل دينك. قبل ايام انسل الاقنوم الثالث من بين يديك كمياه تحملها راحتك تحتضنها فتنخل سائلة تحت قدميك. المستقبل فقط يحمل في احشائه الاجابة حول اقنومك الثالث كما يحمل الاجابة حول حياتك كمناضل. ارقب ودقق وتأمل بعين مخرج او متفرج لا فرق! مارس هوايتك في التأمل كما اعتدت في سنينك الماضية. لا يتاح التأمل بعمق وسعه الا لمن يحيا حياتك، تأمل غابة البساطير الان كما سبق وتأملت كل شيء. تأملت وانت تسير بين جدار وباب، تأملت وانت تجلس على الشرفة وكأس العرق برفقتك والسيجارة تتدلى من فمك، تأملت وانت مستلق على السرير تدخن في عتمة الليل، سرح بك تفكيرك فتأملت وانت تطهو فوضعت سكرا عوضا عن الملح فوق الارز فالقيته في سلة النفايات شاتما تأملاتك وحياتك!. لقد

وصلت تأملاتك حدود المقبرة، كنت جثة مزقها التعذيب او الرصاص ملفوفا بعلمين، علم الوطن وعلم العمال محمولا على النعش ورفاقك يؤبنوك ويهتفون باسمك، وصلت تأملاتك حدود انتصار الاشتراكية، فهل نجحت تأملاتك-احلام يقظتك بان توصلك لما انت عليه الان ممدا على بطنك مقيد اليدين والقدمين معصوب العينين ومدمي الجبين وسط غابة من البساطير؟ هل نجحت عدسة احلام يقظتك طوال تسع سنين بأن تلتقط مشهدك السينمائي الان؟ احلام يقظتك قصرت عن واقعية الحياة، خذلتك، لم تسعفك بكنوزها عن التصورات والاحلام والتأملات... لا تسارع فتلعنها فقد كانت ممتلئة بالخيال محدودة بالمتغيرات اللانهائية. الحياة اوسع بكثير من حدود الخيال واحلام اليقظة.

- اعترف ، اعترف. لكن لا لوم على احلامي، قصرت ولكنها كانت متفائلة جميلة.
- أي تفاؤل هذا؟ رأيت جسدك نعشا عندما راقبت البساطير.
- كيف تتفاعل احلامي والبسطار فوق رأسي؟ اين البسطار وغابته من التفاؤل؟]
- اذن لم تكن احلامك دائما متفائلة. ان تحول جسدك في خيالك لنعش ليس تفاؤلا وليس تأملا متفائلا.
- الاستشهاد نهاية مناسبة للمناضل. البطل من يمت في الزمان والمكان المناسبين. نعشي كان باسما يسخر من القتلة.
- دعك من فيلسوفك هذا فقد مات غرقا في حفرة امتصاصية.
- ولكني اسعى لميته شريفة وهذا حلم متفائل، مسعى متفائل.
- التفاؤل في السعي للانتصار لا في السعي للموت حتى لو كان الموت استشهادا. تمسك بالحياة تنتصر في صراعها، الم يقل لك مهدي عامل ذلك ؟.

سمع حركة قدرها آتية من الغرفة المجاورة للباب الحديدي فتذكر هشام. **ماذا يفعل هشام الان؟ هل يتأمل البساطير مثلي؟ آه يا هشام يا رفيق زمن القوة والتحدي، يا رافعة حقيقية استمتعنا الليلة الفائته بالفيلم السينمائي؟ ادخل المعركة يا رفيق متمسكا بالحياة، منتصرا لها كي تنتصر في صراعها. متى نلتقي لا اعلم ولكننا سنلتقي حتما وقد انتصرنا في صراع الحياة.**

هشام مثله كان ممددا على بطنه مقيد اليدين والقدمين ومعصوب العينين يعيش هو الآخر تأملاته. احد البساطير يذهب ويعود، يتوقف عند رأس كنعان يشتمه وينصرف. حجمه الكبير يؤكد انه يحمل فوقه كتلة من اللحم الخنزيري. بين ذهاب واياب قرر البسطار ان يعرف على نفسه جيدا وبصورة جليه. توقف عند رأس كنعان وارتفعت احدى قطعتيه وحطت على رأسه ضاغطا اياه للارض، قاصدا ليس فقط ايذاءه بل والتلذذ بتمريغ وجهه بالدماء التي تسيل من حاجبه والتي

تجمعت على بقعة كبيرة من الأرض عند موضع راسه. اشتعل الحقد في قبله، رفع راسه بصعوبة لأعلى والبسطار يرمي بثقله ضاغطا لاسفل. راس يجاهد ليرتفع والبسطار يضغط. الرأس يجاهد فيرتفع ليضغط عليه من جديد وهكذا لدقائق حتى تراجع البسطار ذو اللحم الخنزيري. اخيرا ورحل من عنده لمهام اخرى عليه ان يقوم بها. ليس الحقد على الاعداء يولد مع الانسان او يرضعه مع حليب امه. جينات الوراثة لا تتضمن الحقد، حليب الام يمتزج به حنانها ودفؤها وقبلاتها لا حقدها، الحقد على الاعداء يولده عدوانيتهم ووحشيتهم كرد فعل طبيعي وانساني، لذلك من لا يرد بالحقد على العدوانية والوحشية فانسانيته ناقصة بل تكاد تكون معدومة. بازدياد العدوانية والوحشية يرتفع منسوب الحقد، تلك معادلة رياضية في العمل الثوري. كان البسطار في غرفته الواسعة بعد منتصف الليل بقليل قد اضاف لكنعان درسا جديدا في الحقد، اضاف له جرعة اضافية على حقده.

اينما تحركوا في بيته عبثوا في عالمه-ماضيه وذكرياته. ذاكرته تستعيد تفاصيل ماضيه كشريط سينمائي وتنزف احداثه مجبولة بالقسوة والحرمان والنضال، ذاكرته تصر على ان تبقى قطرات احداث ماضيه ندية، تروي حاضره، تقويه، تحفزه لمعركته المقبلة. حاضره المقيد يتقوى على القيد بماضيه المتمرد، المتحدي، ينهل منه كالبدوي "الممعن بالهجرات" (يتزود قبل الربع الخالي بقطرة ماء)[1]. ماضيه قطرات ماء لرحلته وقد شرعوا منذ خلعوا خزانه الوكر الحجري بتلك الرحلة نحو الربع الخالي وصحراء المجاهيل-صحراء التجربة الجديدة، التحدي الجديد والمواجهة الجديدة.

كانت المواجهة بين المحتلين ومنظمات الحزب قد اتسعت عام ١٩٨٥ لتشمل حتى كانون الاول غالبية منظمات الوطن، اجواء الاعتقالات تهيمن على المنظمات بأخبارها ونتائجها الحزبية. قرارات وتوجهات واجراءات تطال الجميع من رفح للناقورة . من إجراءاتها انتقال كنعان لوكر جديد بعد ان مكث يومين فقط في بيت سكينه. توقف عن القيام بمهامه مؤقتا زيادة في التحوطات.

صباح يوم من ايام كانون الاول قرع باب بيته بالايقاع المتفق عليه. كان انهى افطاره وجلس على شرفة بيته الغربية يخطف بعضا من اشعة الشمس

---

[1] الشاعر العراقي مظفر النواب: الوتريات الليلية.

الكانونية التي تظهر عادة على. استحياء وما ان تفعل حتى تحتجب سريعا خلف الغيم المتراكضة تباعا:

- احمل معي خبرا سيئا!
- منذ اسبوع وانا احيا بمزاج جيد رغم ما نواجهه كحزب. البيت رائع فأنساني المصيبة المسماه "بيت سكينه" وسقفه عالي اسير دون ان احني راسي والاهم انه اتاح لي فرصة الحياة خارجه، فهل تتآمر على مزاجي لتأتيني بخبر سيئ؟
- ستضطر لأن تترك البيت سريعا. (احتبست انفاسه ترقبا لان يتابع رفيقه كلامه). البيت هذا غير آمن والاصح انه لم يعد آمنا بعد الان نتيجة تطورات الهجمة. الخطر اقترب اكثر.
- اشرح. استحث رفيقه على التحدث، شرح هذا تفصيليا ولكن بسرعة. ادرك فعلا خطر الموقف.
- الليلة اذن؟.
- بل الآن فالوضع لا يحتمل، جهز نفسك خلال ربع ساعة!.

شرع يعد حقائبه ويجمع اوراقه وحاجياته. اهم ما كان يتناوله في لحظاته تلك والتي تكررت كثيرا، ثلاثة اشياء ظلت ترافق جيب بنطاله اينما رحل، اوراقه السرية والسجائر والسبحة الحمراء "الشيوعية كما كان يسميها مازحا"! وضع أشياءه الثلاثة قبل ان يفعل اي شئ آخر.

كان فعلا بيتا رائعا ذاك الذي جاءه منذ اسبوع، من شرفتيه الاثنتين، من نوافذه كان يرى ويسمع كل ما كان يشتهيه منذ ثلاث سنوات؟ اصوات الباعة الذين ينغمون مناداتهم على بضائعهم، الشوارع تعج بالماره، الفلاحات يحملن سلال الخضار على رؤوسهن بعد آن يتسوقن، هدير الحافلات وزعيق سائقي عربات الجر، الطلاب يملأون الشوارع صباحا وما بعد الظهر بضحكاتهم الصاخبة وضجيج اصواتهم متناقشين ذهابا وايابا الى مدارسهم بينهم ارتاب الطالبات بملابسهن المدرسية الخضراء، لقد اعتاد واقرانه وهم على مقاعد الدراسة الثانوية آن يسموا كل الطالبات هذا بـ"الكتيبه الخضراء" على سبيل المداعبة والتغزل. منذ سنين لم ير الكتيبة تلك وهي تشيع الجمال في شوارع المدينة.

بيته اتاح له ان يعيش خارجه، فمن جهته الغربية يطل على ازدحام الشوارع وضجيجها ومن جهته الشرقية على الساحات الخلفية لبيوت متلاصقة بعضها ببعض... الاطفال الذين يلعبون بالساحات، النساء يعلقن الملابس المغسوله للتو على الحبال، يغسلن الساحات الخلفية للبيوت، صياحهن وثرثراتهن بسبب او

بدونه كل ذلك كان يأخذه خارج الوكر ويخفف من وطأة الهجمة الاحتلالية على مزاجه ونفسيته، تلك الوطأة التي تتيخ بكللها منذ شهور الصيف.

- الخبر السئ لم ينته بعد!

قالها رفيقه يهيئه لما هو اسوأ. كان يتحدث والخجل والتردد يطبع ملامحه كأنه هو المسؤول عن منغصات الحياة السرية. كانت حروف كلماته ذات وقع خاص.

- توقفك المؤقت عن اداء مهامك يتضمن قرارا حزبيا بتجميد وضعك الحزبي لمدة ثلاث شهور، اي اخراجك من الوضع واتصالاته ومهامه والهدف حمايتك كي لا تتولك رشقات هذه الهجمة، اذ ربما تقود التطورات الى ان يشتموا رائحتك!

بلغ السيل الزبى. كاد كنعان ينفجر في وجه رفيقه لكنه ضبط انفعالاته في جوفه.

- هجمة واعتقالات وخطر يحيط بالحزب من كل ناحية وانا مجمد اقضي وقتي في مرحلة المواجهة في الطهي ومتابعة التلفزيون مثلا؟ الا استشار من قبل هكذا قرار؟
- القرار كان سريعا، المسألة لا تحتمل النقاشات والاستشارات، انه امن الحزب. هل تحتاج لان اشرح لك ذلك؟!

نطق جملته الاخيرة بنبره استنكارية فكنعان لم يكن بحاجة للشرح. عندما يغدو الموضوع مرتبطا بأمن الحزب، أمن التجربة فلا مجال للاخذ والعطاء، للتداول والنقاش الواسع خاصة اذا كانت الاعتقالات كالسيف مسلطا على الرؤوس، حينها تصبح الرغبة بالنقاش محض رغبة بالترف لا تتسع لها ظروف المواجهة. كان يدرك ذلك جيدا. تطورات الهجمة التي شرحها له وما استجد منها نزلت على راسه كالصاعقة، اضطراره لترك هذا البيت الذي خفف عليه بعض الشيء من كآبه الشهور التي يعيشها منذ ابتدأت المعركة زاد الطين بله على رأسه. جاء القرار الاخير بتجميده ليكون الطامة الكبرى.

أشعل سيجارة واخذ يتمشى وأصابعه تطقطق بحبات السبحة حتى هدأ. تساءل دون انفعال:

- الى اين الرحيل هذه المرة؟

رد رفيقه بكلمات متلعثمة:

- الى بيت "اللعينه سكينه"، هو الأنسب الآن.

قعد على اول كرسي قريب منه. أطفا السيجارة دون ان تصل نارها عقبها كما اعتاد وتنهد. تناول سيجارة ثانية واشعلها. كان لا يدري ماذا يفعل فالامور باتت تسير من سئ الى اسوأ. احنى راسه واسنده الى راحتي يديه فيما كوعاه ينتصبان فوق فخديه كامرأة بائسة فقدت زوجها لتوها. السيجارة متدلية من فمه ودخانها يؤذي عينيه فاغلقهما.

- انها القسوة بعينها، كيف يمكن العيش قرب هذه المراة الكارثة لثلاثة شهور؟.
قال محدثا نفسه بصوت مسموع فيما رفيقه ينظر اليه لا يتكلم. كان يحس بان كل امتعاض العالم تجمع بداخله، كل الضغوطات والتوترات التي عاناها في شهوره الأولى عادت لتطحن رأسه من جديد.
- لكن القبر اهون من الاقتراب من هذه اللعينه المسماة تجاوزا امراة!.
ضحك رفيقه ملء شدقيه.
- اضحك، اضحك فلست انت من سيقيم عندها. اتمنى ان اراك مكاني لارى ماذا ستفعل. مزاحه يعبر عن مرارته.
- اعرف تماما ما سيواجهك. ولكن عليك ان تحتمل يا رفيق، يجب ان تسرع علينا ان نرحل.

ورحل بسرعة قاصدا بيت اللعينة سكينه ليعيش قريبا من صنف بشري غريب. صاحبة البيت امراة رآها مرتين وحدثه رفاقه عنها مرارا. ما قصد بيتها الا للاقامة لايام قليلة في ظرف طارئ او لسويعات يقضي عمله ويخرج، اما ان يقيم ثلاثة شهور في بيتها فما كان سمعه عنها سيلمسه على جلده يوميا.

كل شيء الان يذكره ببدايته الاولى كأن الزمن ما سار سنيه الثلاث. كانه يخطو نحو بداية حياته السرية، "كانون" هو هو بامطاره، ببرده وبالكآبة التي يبعثها في النفس. "اجواء" الرحيل للبيت هي هي، هجمة مكثفة واعتقالات تطال لا العشرات كما ١٩٨٢ بل المئات من الاعضاء والانصار والمنظمات متحفزة للمواجهة. بعض الاعضاء يدنسون الراية واخرون يصونوها بدمائهم، الإبعاد يطال بعضهم هذه المرة. اجواء المواجهة تلف الجميع، اعضاء واصدقاء الحزب وعائلاتهم من اقصى شمال الوطن الى جنوبه. "الطريق" الذي سلكه في الليلة الكانونية الماطرة سنة ١٩٨٢، الاشجار الجانبية تصطف على جانبيه، المارة يتلفعون بمعاطفهم الشتوية الثقيلة وهو بكوفيتة الرقطاء تغطي وجهه عدا عيناه ويدقق النظر في المارة، بمن يسير خلفه، بمن يتجاوزه. ذات الطريق، ذات الاشجار، ذات العينين الحذرتين. هل هم ذات المارة؟ حدث نفسه. والمراة؟ هي هي، بدل ام عيسى هناك اللعينه سكينه. وتشابه الجوهر قائم: كلتاهما لا يمكن احتسابهما على صنف النساء!. كأنه موعود في حياته السرية بالعجائز الشمطاوات اللواتي يضفين مسحه من التكدر بين فترة واخرى على حياته.

ما ان دخل الممر الترابي الفرعي المؤدي للبيت حتى اكتمل تشابه العامين الكانونيين-المرحلتين: في اخره انتصب البيت من طبقة واحدة تحيط به الاشجار الباسقة وسط الامطار والبرد، الريح تحرك اغصان الاشجار وسط عتمة الليل الذي افتقد قمره، بدا البيت البعيد عن ضوضاء المدينة مطوقا بوحشة ما، برهبة ما، كان

اشبه ببيت في اسطورة خرافية تمتلئ بالجن والاشباح والسحره. ماذا يريد الزمن ان يقول حين يكرر نفسه؟ أيريد آن يذكره بايامه وشهوره- المتوترة المتعبة والمرهقة حيث تمكنت منه الذات المتمردة والمنفلتة من قيد العقل والحسابات الحصينة المتزنة؟ أيريد آن يبلغه رسالة ما: [حياتك هذه سيظل عنوانها اللا استقرار والهجمات المتلاحقة وانت تسعى لان تهرب من شباكها تباعا كي لا تقع فيها. قسوة حياتك اليومية وحرماناتها لن تنتهي، المعركة مع المحتل تتصاعد يوما بعد يوم وانت في قلبها جندي مجهولا]! ام تراه الحزب يستثمر كانون الماطر، رياحه، الاشجار الباسقة، البيت السري، وحشية الليل وقسوة الظروف ليعجنه أكثر، ليصقله اكثر بماء صعوبات الحياة اذ يعيده لبداياتها ليحرمه نتف استقرارها اللحظي؟.

وصل بيت اللعينة سكينة عند السابعة مساءا، فتح الباب الحديدي الضخم الذي ينتمي لطراز ساد منذ قرون، دخل واقفل الباب خلفه. احس بالزمن يعود سنينا للوراء عندما دخل بيته الأول بيت ام عيسى. **أقدري آن اعيش في بيوت تمتلكها حيزبونات ينتمين بالصدفه للجنس الذي يفترض فيه الرقة؟ هل هي من عوامل تجربة التخفي؟**. علق ساخرا عندما الفى نفسه داخل البيت المعتم وسط هدوء مطبق مخفي وصوت المطر وحفيف الاشجار المتحركة يحمله بعيدا نحو عالم الاسطورة الخرافية. اشعل ولاعته واخذ يتفحص غرف البيت. الآن عليه ان يعاشر جدرانه، اثاثه، بابيه الحديدين، بلاطه ... وكل ما فيه لشهور.

كان يتكون من ثلاث غرف ومطبخ وحمام، اثنتان من غرف البيت خارج الايجار أغلقتهما اللعينة سكينة بقفلين صغيرين وخلف البابين تحتفظ بالاثاث الجيد من ارائك وفرشات محشوة بالقطن وأغطية صوفية خفيفة وثقيلة ووسائد ... أي كل ما حرصت اللعينة سكينة على آن لا تجعله قيد الاستخدام داخل الغرفة المفترضة كغرفة نومه!. سريران مهترئان عليهما فرشتان متعفنتان، ضغط بيده على احدى الفرشتين يبغي التعرف على جودتها فاذا به يشعر بما هو غريب: كانت يده تصطدم بنتوءات كبيره داخل الفرشة، صلبة وغير مستوية ومن مختلف الاحجام. قرر تأجيل مهمة الفحص للنهار وقصد المطبخ. كان اسما لا يعكس مسمى، بعض ادوات قديمة لا تصلح للاستخدام البشري تتشكل من كاسات واطباق واوعية واوان، ثلاجة صغيره بالكاد تعمل بعد العمر الطويل الذي انقضى عليها، طباخ باربع عيون اثنتان معطلتان وكذلك تنور.. تلك كانت اللعينة سكينة وقد قدمت امام مستأجرها بيتا مفروشا.

سمع عنها الكثير، عن جشعها وتدخلها في كل صغيرة وكبيرة في حياة من يسكن عندها، عن تفقدها اليومي لبيتها المفروش الذي كانت تعتقده لا اقل من "فيلا"

على ساحل الرفيرا الاوروبية. سمع عنها الكثير، انها حديث احياء باكملها وان من يتورط معها بطريقة ما، بأية قضية ومهما كانت تافهة، بالكاد يخرج من ورطته تلك دون ان يناله لسانها تشهيرا على مستوى المدينة فيخرج من ورطته متمنيا لو يستطيع اعدامها!.

كان يجوس البيت على ضوء ولاعته الخافت فمن اجراءات التمويه وحتى لا يعرف جيرانه بوجوده كان يتوجب عليه ليس ان لا يظهر عند النافذة فقط بل وان لا يشعل الضوء في البيت او يخرج لالقاء النفاية في حاوية الحي. على ضوء ولاعته وجد كيسا وضعه رفاقه في البيت فيه اغراضا: اكثر من ثلاثين علبة سمك من نوع التونا، رطلين او يزيد من التفاح ومثله من الليمون وعشرات الارغفة، كما حوى الكيس على كمية من الجرائد والمجلات وأربعين علبه سجائر من النوع الذي يدخنه. غير ذلك كان يوجد في المطبخ زيت زيتون بكمية وافرة وزعتر وبصل جاف وزيتون مخلل. [هذا جيد. يعلمون ان امكانيات الطهي شبه معدومة طالما يوجد زيت وزعتر وزيتون فكل شيء بخير]. حاول ان تعبث في نفسه بعضا من سكينه يفتقدها منذ هاجمه رفيقه بجمله الأخبار السيئة حتى وصوله البيت.

عاد لغرفة النوم او ما يفترض انها غرفة نومه وتفحص على ضوء ولاعته ما يوجد على الطاولة الموضوعة فيها، كانت طاولة بالكاد تسند نفسها فقوائمها مخلعة وتتحرك وتنوء ان مسها اصبع، كان عليها حفنه من الكتب والدراسات: كتاب عن الثورة في عمان للباحث البريطاني فرد هوليداي، آخر في نقد علم الاجتماع البرجوازي، ثالث حول موقف ماركس وانجلز ولينين وماو وغيرهم من تحرر المراة وغيرها من الكتب. اما الدراسات فاكثرها حول جماعة الاخوان المسلمين في الاردن فترة الخمسينيات والستينيات [وهذا جيد يوجد ما يقرأ]. توجه لنافذة الغرفة المطلة على الشرفة وعلى البيت المقابل، تفحصه كعادته في التدقيق في ما يحيط بالبيت الذي يقطنه. بيت من طبقتين تضمان اربع سكنات احداها الارضية من الجهة الشمالية لا يوجد فيها مطبخ فقد شاهد وهو يقف عند النافذه عجوز ترتدي ثوبا شعبيا باليا تدخل وتخرج من غرفة جانبية ملحقة بالبيت تحمل طبق الاكل وابريق الشاي. كانت الغرفة الملحقة تقوم مقام مطبخ البيت (يبدو جيراني فقراء، مطبخهم خارجي والارجح حمامهم وهذا يعني حركة كثيرة بما لا يبشر بخير).

كان يكتشف تفاصيل ما اتيح له التدقيق فيها سابقا او ما كانت تعنيه في زياراته السريعة. ظل واقفا عند نافذة الغرفة يرقب المراة العجوز، تخرج بين حين لآخر تتوجه لمطبخها لتعود لمنزلها مسرعة لتتجنب البرد والمطر الذي كان يتساقط

رذاذا خفيفا. تناول من حقيبته مذياعه الصغير الذي لم يبارحه مذ انتقل لحياته السرية وادار مفتاحه فجاء صوت عبد الحليم يغني من قصيدة نزار قباني **"فحبيبة قلبك يا ولدي ليس لها ارض او وطن او عنوان"** تنهد وانهى تنهيدته بابتسامة ذي معنى [صلي عالنبي يا عبد!!] ادار مفتاح المذياع ليبحث عن محطة اخرى فجاءه الصوت الملائكي لفيروز **"انا عندي حنين ما بعرف لمين، ليلي بياخذني من بين السهرانين"** اخرس المذياع بحركة عصبية وشتم كل المغنين [هل هي مؤامرة على اعصابي]. نام على السرير كيفما اتفق متدثرا بغطاءين صوفيين دون ان يبدل ملابسه.

اذ نام ليلته الاولى مبكرا فقد افاق عند الساعة السادسة صباحا. افاق وكل عضله في جسمه تؤلمه كأنه نام على كومة حجارة وحصى!! ما هذا اين نمت؟ كان هذا اول ما خطر في ذهنه عندما فتح عينيه واحس بالالام في كل انحاء جسمه. نهض وجلس على السرير وكان ضوء النهار الخجول قد دخل الغرفة. كان يتحسس النتوءات في فرشته كخوازيق حادة تتخزه في ظهره وفخذيه وخاصرتيه... نزل عن السرير وقرر مباشرة فحص الامر. أعاد الضغط على الفرشة يتحسسها: نتوءات اينما ضغط، خوازيق بمختلف الاحجام [سافتح هذه اللعينة لارى اية مصيبة هي] قرر سريعا وتوجه للمطبخ وعاد بسكين، مزق الفرشة من احدى أطرافها ودس يده فيها، كانت المفاجئة صاعقة!. عثرت يده على حجارة بمختلف الاحجام. مزق الفرشة أكثر وبدأ باخراج كل محتوياتها: حجارة بمختلف الاحجام، قطع من الخشب وبين هذه وتلك قطع من الاسفنج (يا فتاح يا عليم بدأت الالاعيب العجائزية. كيف سأنام على هذه الفرشة شهورا؟). قرر ان ينتقم منها، احضر سكينا صغيرا ذا راس مدبب وعالج قفل احدى الغرفتين المقفلتين فخلعه من خشب الباب واقتحمها مستشعرا الانتصار وحلاوة الانتقام (سأقوم بتأميم ملكيتها الخاصة، ساضع محتوياتها غرفتها في خدمة حزب العمال ونضاله) بدأ يتناول من الغرفة ما يحلو له ويضعه في غرفة نومه، فرش الغرفة بسجادة عجمية فاخرة وعليها فرش فرشتين سميكتين محشوتين بالقطن نجدتا حديثا، احضر وسائد لمزيد من تلبية الرغبة بالانتقام علما انه ما كان يستخدم الا واحدة!! احضر اغطية وبياضات من كل الانواع، اريكتين واحدة لجلوسه والاخرى ليمدد قدميه عليها! كانت رغبة الانتقام تحركه بعد ان حقق رغبته وفرش غرفته الجديدة تناول افطاره بسعادة، زيت وزعتر وزيتون وأربع كؤوس من الشاي، تناول كتابا وأخذ يقرأ فيما المذياع بجانبه يبث تقارير اخبارية لا يعيرها أهمية.

ما بين القراءة وسماع المذياع، بين الوقوف عند النافذة والتمشي بين جدار وباب او بين جدار ونافذة والسبحة تطقطق بين اصابعه. كان يقضي نهاره منذ

الخامسة صباحا-حين يفيق وحتى التاسعة مساءا حين يتدثر مستشعرا الدفء في ليالي الشتاء الباردة. لم يكن اعداد طعامه يستغرق وقتا، فالطعام البسيط لا يحتاج لاعداد اصلا. عشاؤه مثل افطاره اما الغذاء فعلبة سمك محفوظ يعصر عليها حبة ليمون ويضع قليلا من الزيت ويتغذى. ما ان ينتهي من شرب ابريق الشاي حتى يعد الاخر. لا تلفاز لديه فللتلفاز ضوء يرى من خارج البيت ويمس ذلك بالاحتياطات المقرة. كان يقضي ليله دون ضوء منذ الرابعة تقريبا حين تغيب الشمس حتى ينام، كان يحيا دون ضوء حتى حفظ خط سيره في انحاء البيت، موقع كل شيء فيه غيبا كضرير لا يحتاج من يقوده داخل بيته. لا احد يأتيه سوى مره كل عشر ايام يحضر كيسا من الطعام مع الجرائد وبعض الكتب، يمكث لدقائق، يتحادثا سريعا عن اخبار الحزب والمواجهة يعبر عن تضامنه ويرحل. كان لا يستطيع الخروج لالقاء كيس القمامه في حاوية النفايات ففتح الباب واغلاقه يحدث ضجيجا سيسمعه سكان البيت المقابل الذي لا يبعد عن بيته سوى امتار قليلة، سور فقط يفصل بين البيتين. اكياس القمامة تتراكم لايام في مطبخه فتعبق رائحتها في البيت كله. يتمشى لساعات ما بين الجدار والباب او بين النافذة الشرقية والجدار المقابل في غرفة نومه، يتوقف عند النافذة يرقب ساكني البيت المقابل لدقائق ثم يعود للجدار. يستمع للمذياع، اغان وبرامج اخبارية وتمثيليات اذاعية حتى حفظ برامج محطات البث جميعها. كان يفتتح يومه باقوال الصحف العربية من اذاعة صوت العرب عند الساعة الخامسة وعشر دقائق صباحا ليختتمه ببرنامج بانورما الاخباري من اذاعة "مونت كارلو" وما بينهما ام كلثوم عند الظهر والمساء من اذاعة الاحتلال وسماع فيروز عندما يلتقط صوتها من اية محطة تبث اغانيها.

كان التوتر يسيطر عليه والوحدة تصرعه لكن توتره الان ليس كتوتر الشهور الاولى حيث الذات تواجه "المتطلبات والاحتياطات والاجراءات والقواعد" انه توتر من نمط اخر لان ذاته غدت من نمط اخر لها مطالب اخرى: اين وصلت الهجمة؟ ما اخبار الرفاق في اقبية التحقيق؟ من صمد منهم ومن خان حزبه ورفاقه؟ كيف تصرف من بقي خارج القيد؟ ايرتبكون فيشيعون اجواء التشكيك والضعف والانهيار المعنوي ام يتماسكون يتحملون برباطة جأش ويدافعون عن حزبهم ويحمون ما تبقى منه؟ كيف تتصرف الخلايا والمنظمات لحماية نفسها ومواصلة نشاطها لتعويض الخسائر؟ ماذا اصدر الحزب من رسائل وماذا تحوي وكيف يتقبلها الاعضاء؟. أسئلة كهذه وغيرها سيطرت عليه، ينتظر وينتظر وما من اجابة. كان "الانتظار" سيد الموقف. الموقف صعب وهو يفهم ذلك بل ويتفهم ان تقديم اجابات نهائية مستحيل الان، لكنه لا يفهم ذلك، يريد ان يروي ظمأه يشعر انه جزء من المعركة، في صلبها ولو بالتفكير والاهتمام وهذا يتطلب اجابات ومعطيات لا ترد. ينتظر وينتظر وغليله لا يشفى، ينتظر رفيقا، خبرا، أي شيء يأتيه، ولا يأتي

شيء... غدا مثل "كولونيل" غابرييل غارسيا ماركيز ينتظر تلك الرسالة اللعينة ولا تأتي.

انفعل مع بداية الهجمة على حزبه شأنه شأن أي عضو شعر انهم يدمرون ما هو عزيز عليه ساهم مع رفاقه ببنائه. كان يرى كأن اباه او امه او ابنه يتعرض للذبح دون ان يتمكن من نزع السكين من يد القاتل، فقط يرقب المعركة من بعيد!!

ابق حيث انت واقرأ ! المواجهة مستمرة والامل في الصمود وتحديدا صمود الكادرات واجراءات التحوط لمن بقي هي صمام الامان. اهم شيء الان هي ان تحافظ على نفسك فصورتك شوهدت مع الجنود عند حاجز على طريق رام الله- القدس. الصمود الان ان تنقذ ذاتك من الوقوع بين ايديهم في زمن الهجمة اذ لا يجب ان تحشر طاقتك في الاكياس الحجرية. المطلوب الان منك شيء واحد لاغير، السكون لحين الانطلاق اللاحق. اسكن ولا تتحرك.

هكذا خاطبه الحزب. اخيرا جاءته رسالة شرحت بعض الشيء، قدمت بعض الاجابات، نقلت ما قاله محققو جهاز المخابرات "الشاباك" في اقبية التحقيق (هذا العام عامكم. سنصفيكم ولن يبقى منكم احد . ذلك قرار حكومي. يجب ان تنتهوا) كانت رسالة تظهر حجم المعركة والمواجهة والخسارة، مئات الاعضاء والانصار في زنازين التحقيق، في ساحات الشبح والكيس النتن يغطي رؤوسهم والقيد الرصاصي يدمي لحم معاصمهم، فيما وجبات الماء البارد تلسع اجسامهم العارية في شهور الشتاء ببرده اللاسع وريحه الصرصر . انها المواجهة التي لا تعرف الحل الوسط، جسد عار ضعيف يرتعش لكنه يكتسي بارادته وثقته بحزبه وعدالة قضية وطنه، مقابل جهاز استخباري قوي ومتمكن يمتلك كل الاساليب العصرية والعلمية لتحطيم الانسان الذي يقع بين يديه. جاءت الرسالة على تفاصيل كثيرة عمن يتحدون وعمن ينهارون اما النتائج فلم تستخلص فالمعركة ما فتأت في اوجها انما ينبغي التفاؤل بأن النبت الذي غرس طوال سنين تربية وتصليبا وتشريبا حتما سيطرح ثمارا يانعة وان من البدهي ان كل شجرة تطرح بعض الثمرات العفنة. ثم جاءت الرسالة على ما وقع على رأس كنعان كالصاعقة "وخسارتنا الاكبر هي نجاحهم بالوصول الى بعض كنزنا الذهبي- رجال التخفي واعتقال الرفيقين البطلين فنون والنحاس".ما تمكن من متابعة القراءة. جلس على الكرسي لا يقوى على مغالبة شعوره بأن عظامه انتزعت منه. لم يكن التفاهما ولم يكن الحزب ليصرح باسميهما لرجال التجربة ولم يكن هو ليسأل ايضا فأصول اللعبة مفهومة له اذ لا يجوز السؤال عمن ترك بيته ولم يظهر لكنه كان يحس بكيانه الداخلي ان له "زملاء مهنة" اناس يعيشون مثلما عاش يناضلون في مواقعهم كما يناضل في موقعه، يحيون حياة القسوة والتحدي يتمشون داخل اوكارهم، يفرحون ويغضبون

ويهزمون ذواتهم. يوميا اذا طلت مناكفة! لذلك كان يشعر باسنادهم فدائما رفقة التجربة والحياة، اية تجربة واية حياة تشعر من يخوضها ويحياها بالاسناد. *الكل في خضم المعركة الا انا ، ان ، ان أسكن حتى يحين اوان الانطلاق اللاحق.*

ما تمكن من مغالبة شعوره بالعجز كأنه يتمنى اعتقاله ليكون هناك وسط المواجهة! هي الرغبة في الدفاع عن الحزب في لحظة الاشتباك متناسيا في لحظة الانفعال الانساني ان الصمود في تلك اللحظة هو السكون لحين الانطلاق لاحقا. جاءته رسالة بعد شهر من سكونه في بيته هذا، اراحته واشعلت بداخله نار الرغبة بالنضال لسنين وسنين، فيها كان صوت الحزب نبضه واصراره. ظهرت امامه صعوبة الموقف من كلمات الرسالة: (العضو الذي يستمر معنا بعد هذه الهجمة سيستمر طويلا) كانت جملة تعكس حدة الهجمة وتأثيراتها، لذلك تركت مواجهة ١٩٨٥ تأثيراتها عليه مثلما على غيره من الكادرات، صلبتهم، عززت انتمائهم اكثر فاكثر مثلما دفعت آخرين للانهيار، كان يتحسس تأثيرات المواجهة يوميا تنمي بداخله بواطن القوة، تعززها.

لم يعد يحمل الان تلك التصورات الرومانسية الجميلة عن العمل الثوري والتي حملها في مقتبل شبابه ايام الخلايا السرية اليسارية في المدارس وطباعة البيانات والجرائد السرية في بيوت وسخة يقطنها طلبة الارياف وعلى آلة طابعة مصنوعة يدويا... ان التصورات الرومانسية عن العمل الثوري تصلح لتضمينها اغنية ملتهبة او قصيدة جميلة لكنها لا تصلح لتربية انسان سيتخذ من الثورة مهنة له لانه سيكتشف عاجلا ام اجلا ان الثورة شيء والرومانسية شيء اخر. ان تلك التصورات لا تنشأ لدى من يغرق في العمل الثوري ويعيش تضحياته ويدفع "فاتورته" كاملة: التخلي عن ابسط احتياجاته الانسانية، بل تنشأ لدى حديثي العهد بالنضال- وان ليس كلهم- الذين ينخرطون في النشاط الثوري دون استشعار كامل لما ينتظرهم وما يجب عليهم ان يدفعوه في سياقه وعندما تشرع التجربة باعادة صقلهم وتغيير جلدهم حينها وحينها فقط اما ان يتطبعوا ويغيروا تصوراتهم وينسجمون بتفكيرهم واستعدادهم مع ما تطرحه متطلبات النضال واما يهجرونه دون رجعة فتتقوى الحركة الثورية برحيلهم.

من يتطلع لحياة كنعان من خارجها ويسمع عنها لا شك يرى رومانسيتها، طابع المغامرة فيها، الغموض والسرية اللذان يكتنفانها، العيش طويلا يتقافز كالذئب من جحر لآخر متنكرا مغيرا من ملامحه، لقاءاته السرية، سيره الحذر في الشارع يدقق بالمارة، ذلك في عين المراقب عن بعد. اما في عين كنعان فهي لم تكن كذلك وعلى الاقل بعدما طوى اكثر من ثلاثة سنين من حياته السرية. ملامحها

الرومانسية موجودة ولكن قسوتها تبدو في عينه وتسكن يومه وان تراجع تأثيرها في سلوكه اليومي وانسجام تفكيره. كان بدأ يعتاش متصالحا مع قسوة حياته. العيش طريدا يتضمن حرمانات لا حد لها والتطلع يمنه ويسرة والتدقيق بعابر سبيل يسير الهويني امام بيته، يعني التيقظ والحذر الدائم يعني استنفار الجهاز العصبي كل ذلك ليس بالعيش الطبيعي.

يتحسس متعة تحدي المحتلين بأن يحيا ويناضل رغما عنهم. كان ينتشي فرحا كلما فكر بذلك، كان يقول (هأنذا ان كانوا فعلا يملكون جهازا مخابراتيا نشطا فليصلوا الي) يتحسس انه بنجاح تجربته انما يؤكد عجز دولتهم وجبروت جهازها. كان يشعر بكل ذلك يتحسسه ولكنه يدرك اكثر، يقتنع اكثر فاكثر ان تلك الحياة "ضرورة" اكثر منها "متعة". ضرورية لنضال حزبه وشعبه لطرد المحتلين وبناء حياة سعيدة ممتعة حقا، فالتخفي خيار نضال لا خيار حياة، وان شاء ان يعتبر احدا حياة سرية بكل حرماناتها وقسوتها حياة رومانسية فله ذلك من باب المجاز لا الحقيقة باعتبارها تكتسب رومانسيتها من كونها تساهم بخلق حياة ممتعه رومانسية حقا لا بكونها رومانسية بذاتها، باعتبارها رومانسية بالقوة لا بالفعل.

ليست المتعة في الغاء الايفاء بمتطلبات الطبيعة الانسانية بل العيش وفقها ببساطة وتلقائية دوما دون قيود وانظمة وممنوعات وسلطة تصدر وتسن محظوراتها. كل يوم كان يمر عليه كان يؤكد له ان المتعة المطلقة، السعادة المطلقة هي في التحرر من كل كابح للعيش وفق الطبيعة الانسانية ولكنه يقتنع اكثر فاكثر ان الوصول لذلك يتطلب نضالا جديا من مستتبعاته اجراءات، تحوطات، تطلبات وقواعد. نضاله بات يتطلب بان لا يستقبل احدا، بان لا يزر احدا وان لا يفتح شراعة باب لعجوز بيراوية. اضحى الان يحاكم الامور بطريقة ناضجة ولنقل يتنامى نضجها بتراكم التجربة نفسها. بات يعرف تماما ما له وما عليه، ما يستطيع وما لا يستطيع ضمن نظام حياته. التجربة تصنع رجالها وتجربته آخذة بصنعه تماما كما النضال يخلق محترفيه والتعذيب وتحمله يخلق الصامدين والمعركة تخلق بطلها. (كل الجنود قبل المعركة شجعان وربما ابطال) حكمة روسية أعجبته كثيرا حين قرأها في رواية- ملحمة "الاحياء والاموات" تمعن بها كثيرا، قاربها كثيرا مع تجربته وحياته. **انخرط اكثر واكثر في تجربتك وفي حياتك، دعها تغسلك بمائها، تدعك جلدك بالفرشاه والصابون، تعجنك بخميرتها، تحميك بكورها وبعد ذلك، بعده فقط فلتقل انا صاحب تجربة.**

يتجاوز عامه الثالث في تجربته وفي ظروف المواجهة مع المحتلين، يكتشف كنعان حياة الجنون والمغامرة التي يحيا. وهل الثورة غير فعل جنون

ومغامرة؟ النضال بجدية وجذرية يتطلب عيش حياة النضال بجنون، عيش الثورة بجنون. يدفع الثوري ثمنا غاليا جدا ليدرك فكره، محض فكره، وقد دفع كنعان ودفع ليدرك فكرة الثورة. كان يبلور فكرته-رؤيته لفكرة الثورة ولتجربته كما رآها. أن نعيش الحياة بجنون يعني أن نقتحم تجاربها، صعوباتها، مغامراتها فالتجربة الحياتية تصقل وتعلم، تنفض البلادة والكسل والروتين البائس، تزودنا بالدراية والتجربة لنخوض غمار تجربة اخرى لننصقل ونتعلم من جديد وهكذا دواليك، تعاش الحياة بجنون اقتحامها واخضاعها، بجنون الغوص في بحر الجديد من تجاربها. اذ نغوص بتجربة الحياة وجديدها وغريبها نكون قد منحناها تصريحا بان تغير جلدنا، تصقلنا تقول أنها قد اذنت لنا بان نركب بحرها ونخضعها... كان يرى تجربته، حياته السرية هكذا: تجربة جنون تطحنه، تمزجه بمائها لتعجنه من جديد، يسبح فيها ويتعلم منها، فيحياها بجوارحه فالنضال يتطلب ذلك. وبذلك تكتسب الثورة معناها الحقيقي، فعل وجنون ومغامرة.

جنون الثورة ان نحترفها، نحترق في اتونها يوما بيوم، نهبها حياتنا لا سويعات يومنا، ننتمي لصانعيها فكرا وسلوكا. انتصارها او الموت دونه لا ثالث بينهما. ليست بثورة تلك التي نحياها ونصفنا لها ونصفنا لغيرها فالثورة لا تعيش داخل الثوري مع ضره لها. ليست بثورة تلك التي تقبل القسمة على اثنين. جنون الثورة احترافها كما احتراف الثورة عيشها بجنون. مصلحة الثورة كما بات يكشف تحتاج لاحتراف كهذا.

كان اذ بدأ يمتلك هذا الفهم وتلك القناعة للحياة والثورة، يشكل دينه الخاص- عقيدته في النظر للحياة السرية التي يعيش، للنضال الذي يخوض. من ثلاثة اقانيم كان دينه: الحياة-المرأة-الثورة يجمع ما بينهم الثلاثة قاسم مشترك واحد، حبل سري واحد، فعل الجنون والمغامرة، الحياة باقتحامها، الثورة باحترافها، والمرأة بعيشها. **والمرأة يا كنعان؟ كيف تعيشها؟ (كانت ذاته تحاججه) حلما، صوره، خيالات، غرائز مكبوتة تعيش المرأة؟!! أي عيش هذا؟ أمخصي انت ام عنين؟! عندما تغدو المرأة لديك حقيقة، واقع، حياة يومية، تجربة مشتركة، رفقة وانتشاء ولذة، حينها فقط يمكنك القول اعيشها. عندما تنتشي وتلتذ بها ومعها، تنتشي وتلتذ هي بك ومعك، كمن تلعب الخمر برأسيكما، حينها فقط يمكنك القول: اعيشها بجنون! فهل وجدتها لتعيشها وليكتمل دينك باقانيمه الثلاثة؟.** لم يكن دينه قد اكتمل، أقانيمه تبحث عن ثالثها، ذاته تسجل نقطة لصالحها في نزاله الطويل معها فينسحب وينكتم!.

وتمضي ايامه واسابيعه في بيت اللعينة سكينه والوحدة تصرعه. أيام وأيام اشتهى ان يحادث انسان أي انسان، كان يرى الانسان من نافذته الشرقية بعيدا اما امام البيت المقابل او ابعد من ذلك، يعبر الشارع الذي يقود لمنزله ويفصله عنه ممر ترابي بطول عشرات الامتار. بعيدا جدا كان الانسان! في مرحلة ما من اقامته لدى اللعينة سكينه مر احد عشر يوما دون ان يحادث انسان ويجالسه، كان الانسان بعيدا بعيدا وحتى لو اقترب لسبب ما ودق باب بيته لسبب ما فلن يتصرف بحماقة الهاوي ليفتح له. كانت وحدته تلك ليست فقد وحدة الذات التي تفتقد الاخر والتي بافتقادها له تفتقد انسانيتها، تحسها غائبة بل كانت حتى وحدة من لا يجد من يتحدث معه، كأنه الكائن البشري الوحيد على الارض، كان مثل آدم قبل ان يخلق الخالق حواء من ضلعه في الاسطورة الدينية، لكن ليس في جنة الخالق، بل لدى كائن غريب اسمه اللعينة سكينة. كان مثل روبنسن كروزو في الادب الانجليزي، حتى هذا الاخير كان لديه حيوانات يستأنس بها ان لم تنطق مثله. لاول مرة منذ سنينه الثلاثة حدث الجدار، كان يتمشى ويفكر بصوت مسموع فوجد نفسه يخاطب الجدار! قادته محاورته مع نفسه، مع ذاته الى ان يحاور جدار غرفته ولكن انى له ان يجيب ذلك الجدار الاسمنتي الاصم، الاخرس، كان بدأ يرى فيه صديقا منذ تصالح مع ذاته قبل اكثر من سنتين ولكنه الان يفقده صوابه فلماذا لا يجيبه؟!

والرسالة من الحزب لم تشف غليله. يقتنع آن عليه آن يسكن حتى ينطلق لاحقا ولكنه لا يتمكن من تسريب قناعته تلك لمزاجه المتوتر. أي بطالة كان يعيش زمن الاشتباك؟ هل يستمر بالتمشي وسماع المذياع والقراءة والحزب في ساحات الشبح، تحت التعذيب؟ يخاطب نفسه فيشتد توتره. احس وحدته وتوتره الناتج عن عزله هائلا وفظيعا فظاعة شهوره الاولى من تجربته لا بل اكثر هولا وفظاعه.

اللعينة سكينة أبت الا ان يكون لها دورها في تنغيص ساعاته وايامه، ابت الا آن تمارس هوايتها للتنغيص عليه وتكدير ايامه اكثر. كانت تأتي يوميا مرة او اثنتين واحيانا ثلاثة للتفقد والعناية اليومية. تأتي وتبدأ بالطرق على الباب الشرقي بقوة كأنها تريد اقتلاعه.

- افتح افتح.

يحبس انفاسه ويتوقف عن اية حركة فيما تستمر بالطرق على الباب.

- لماذا لا يفتحون؟ افتحوا انا سكينه صاحبة البيت.

كل يوم تعرف على نفسها وكان هناك احد في الحي لا يميزها من صوتها. يشتمها باقدع الشتائم التي يكتنزها ثم تبدأ جولتها المعتاده: تتوجه للباب الثاني وتكرر طرقها وصيحاتها وهو مستمر يحبس انفاسه لا يصدر عنه أي حركة او صوت. يحشر سعاله وحشرجة حلقه ثم تنتقل للمرحلة الثالثة، الدوران على النوافذ

نافذة نافذه، تنظر من خلف زجاجها وتتقر عليه محاولة آن ترى آن كان احد في البيت. ومع المرحلة الثالثة يبدأ كنعان بالتقافز من الغرفة للممر للمطبخ متداريا عن عينيها المتبجلقتين من خلال النوافذ. بعد الانتهاء من النوافذ تبدأ بممارسة هواية غريبه عجيبة: جمع والتقاط كل ما تقع عليه عيناها ولا يمكن آن يلتقطه احد الا هي ولا يمكن لأحد آن يقدر أهميته او لماذا يلتقط ؟ مسمار صدئ اعوج، قطعة من سلك مهترئ، قطعة خشب او حديد، كيس نايلون، علبة فارغة رقيقة من الصفيح... أي شيء لم تكن لتهمله. في احدى المرات سألتها المرأة العجوز من البيت المقابل وقد رأتها في حديقة البيت تمارس هوايتها:

- ماذا تفعلين يا سكينة في هذا البرد؟
- جئت اتفقد البيت. لم اجد احدا. وتستمر بالتقاط تحفها!
- ماذا تجمعين، ماذا؟ بماذا تفيدك هذه العلبة؟

تسألها وقد تملكها العجب مما تلتقط بلهجة من ترى للمرة الاولى اللعينة تمارس هوايتها.

- كل شيء يلزم خسارة ان تبقى هذه الاشياء ملقاة هكذا.

وعادة يدوم طقسها هذا في تفقد "فيلتها" والتقاط تحفها ما بين ثلاثين وخمس واربعين دقيقة يضبط خلالها ان لا يصدر عنه أي صوت حتى لا يلفت انتباهها. لم يكن يمنعها من القدوم سوى المطر الشديد فكان هذا امنية كنعان اليومية، لكم تمنى ايضا ان يراها امام عينيه جثة هامدة ليريح اعصابه وايامه منها.

قرأ الرسالة من الحزب مرة ثانية وثالثة واشعل النار فيها وهو يفكر: **للنضال فاتورته التي ينبغي دفعها عن طيب خاطر وللحياة السرية اشتراطات ينبغي مراعاتها، وللثورية طريقتها في غسل الذات وهاهي تفعلها بقسوة الوحدة. السكون لحين الانطلاق.** يخاطب نفسه يعيد بناءها. بناء الذات لا ينتهي مدى الحياة. الذات كالثعبان تحتاج لتجديد جلدها (على المثقف ان يغير جلده باستمرار) مرة اخرى تذكر نصيحة المفكر الشهيد مهدي عامل. كان يلمس اكثر فأكثر تراجع الذات المهتاجة، بقيت تطالبه لكن دون اهتياجات، دون ان تطلق النار، فقط عجزه عن فعل شيء ثقيل، وحدته وعزلته عن الانسان تصرعه، يتفهم ضرورة ممارسة واتقان التوجيه (السكون لحين الانطلاق) لكن انى له ان يتفهم، ان يتصالح مع مطلب فيه، ان تنفك وحدته، عزلته عن الانسان.

تمضي ايامه، يتمشى ويأكل، يسمع المذياع ويغني للشيخ امام ولمارسيل خليفة، يقرأ وينام. الجدران تسمعه وتحاوره، لم تعد صماء خرساء، يناقش ذاته ويتفهم احتياجاتها ورغباتها فهي تريد اقنومها الثالث فهل يملك ان يقول لها لا حق لك؟ كان يقول تحملي. لم تعد تطلق النار فقد هزمت وانزاحت جانبا، غدت ثورية

تدرك ما لها وما عليها، تجد نفسها ضمن النضال وحياته السرية لا مقابلها، عجنت هي الأخرى، غسل جلدها بالفرشاه والصابون، غدت ذاتا ثورية ولكنها لا تكف عن المطالبة.

ولن تكف. تستصرخك طالبة المرأة، تعبر عن حنينك لملاعبه طفل، تعكس توقك لسهرة ليل مع اصدقائك حيث الضحك والغناء يزعج حي باكمله. تجعلك تستشيط غضبا وحرقة لانك لست مع رفاقك في مسيراتهم واحتفالاتهم بذكرى تأسيس الحزب، لست بينهم تشد من من أزرهم في مواجهة الهجمة. حملتك ذاتك بعيدا فتصورت نفسك جالسا على عتبه بيت العائلة تدخن وتشرب الشاي وتلاعب الحلوة الصغيرة في حضنك. لن تكف ذاتك عن المطالبة، ان مطالبها بالذات تؤكد انسانيتك، حرماناتك، تنمي احاسيسك. الرجعيون فقط من ينشرون الافكار السخيفة الساقطة مثلهم عن تحجر الثوريين وبلادة مشاعرهم الانسانية. دع ذاتك تطلب ولا تقمعها، هي مفتاحك الذي يفتح باب الخارج، خارج بيتك ولو في خيالك المتأمل الحالم. مهما تأخر فتح الباب فهو قادم لا محالة فقط لا تدعها تركبك كما الفلاح يركب حماره، لتكن انت الفلاح وهي الحمار، اركبها عندما تطالب، حتى بعدما غدت ثورية فهي قدمت الآن مطالبها في بيت اللعينه سكينة، مطلب واحد فقط، ان تنفك عزلتها، عزلتك، وحدتها، ووحدتك عن الانسان!!.

اخيرا قدمت له السماء هديتها، الانسان بصورة الفتاة من البيت المقابل. من النافذة الشرقية في غرفة نومه رآها، بالكاد جاوزت العشرين بقليل من عمرها، طويلة وهيفاء، شعرها اسود فاحم وطويل وفي وجهها ملامح تريح الناظر اليه لبراءة ينطق بها لا لجمال صارخ فيه، وجه طفولي وكذلك صوتها، ناعم، رقيق سمعه اذ كانت تنادي أمها، كأن وجهها وصوتها اجتمعا ليؤكدا انتماءها للطفولة البريئة لا للأنوثة الناضجة، كان يتمشى بين النافذة والجدار المقابل لها، أصابع يده كعادتها تعبث بحبات سبحته الحمراء مفكرا. ما ان يصل النافذة حتى يقوده الفضول للبيت المقابل يشغل وقته ويلتزم بعاده رجل الحياة السرية الذي يظل يكتشف محيط وكره من نوافذه وشرفاته.

كان يوما صحوا بل ان الشمس ظهرت منذ الصباح تنشر أشعتها على بقع المياه المتجمعة في حاكورة المنزل وعند مدخله وعلى حجارة المنزل المقابل فتلمع بقع المياه لتلتمع الحجارة. كان فصل الشتاء يمخر عباب أواخر شباط الذي يقول عنه التوصيف الشعبي [شباط الخباط يشبط ويخبط ورائحة الصيف فيه] كانت تلك الأشعة الصباحية هي رائحة الصيف ولدت من رحم الكآبة الشتوية القاتلة متحدية،

فتبعث السرور في قلب كنعان الذي طالما تمنى الشتاء في حياته السرية رجلا ليخنقه بيديه. تطلع من نافذته للحظة خاطفة هي اللحظة التي يستغرقها دورانه عائدا على اعقابه للجدار وهو يتمشى، في تلك اللحظة رآها خرجت من الباب الخلفي لمنزلها قاصدة المطبخ. توقفت قليلا لتنعم بأشعة الشمس الدافئة التي تسقط على مدخل البيت وانطبعت على وجهها ابتسامة فرحة، كانت ابتسامة حالمة بريئة تعتقدها للوهلة الأولى بلهاء. ابتسمت مثل طفل فرح لهدية يوم العيد لكنها لم تقفز مثله فرحا، فقط توقفت مبتسمة وهي تتطلع للشمس كأنها تشكرها!!

كنعان أيضا شكر الشمس على هديتها فهي مع الشمس ظهرت، فمن سيقنعه بعد ذلك بأنها ليست ابنة الشمس، وجهها ابيض مثلها، باسمة مثلها، تشع نورا مثلها، هي كانت الشمس ذاتها. تسمر مكانه دون ان يتزحزح، هي واقفة تتطلع وهو واقف يتطلع أيضا، هي للشمس وهو لها ولا فرق بين الشمس وبينها. كانت شمسه على مبعده أمتار قريبة جدا، تحركت متوجهة للمطبخ. تذكر نفسه التي نسيها للحظات، تذكر انه سيقف أمامها مكشوفا تماما، فقد كانت ستارة النافذة منزاحة تماما فلو تطلعت للنافذة لرأته مسمرا عندها، يلتهمها بنظراته. كان ينتظر خروجها من المطبخ والفرحة بادية في عينيه، **شكرا للسماء على هديتها، شكرا للشمس على وليدها. العزلة عن الإنسان تنتهي، أمنيتي الآن ان تظل الشمس مشرقة فهي تأتي معها** وتذكر سريعا ان اللعينة سكينه تأتي مع الشمس أيضا للتفقد. من يتمنى بعد اليوم، بعد هذا الصباح، المطر المنهمر ليريحه من رؤية وجه اللعينة سكينه وصوتها القبيح! يتطلع الآن لأيام مشمسة تلد كل صباح الفتاه الشمس أمام نافذته الشرقية. انتبه فجأة لتتابع أمنياته فشعر بالامتعاض لمجرد المقارنة بين ظهورين مع الشمس. مجرد المقارنة المعنوية تزعج وتؤلم وتثير الاشمئزاز، فأين وحيد القرن من الغزالة بل وأين الخفاش الليلي من الكناري الأصفر الجميل الرقيق!!

بعد عشر دقائق خرجت من المطبخ تحمل طبقا من القش وعليه أطباق الطعام ودخلت منزلها. كان هذا طعام الإفطار فالساعة لم تتجاوز الثامنة صباحا لذلك كانت تلبس منامتها الشتوية. ملابسها تشي بفقرها. أسعده ان تكون الفتاة – الشمس فقيرة من معسكره الطبقي **[لماذا تأخرت أيتها الفتاة – الشمس حتى تظهرين؟ هل كان يجب ان تنتظري شباط بشمسه ورائحته الصيفية حتى تولدين؟ هل انتظرت ان تكمل (كوانين) البرد والريح والمطر والكآبة حملها فتولدين؟ لماذا لم تولدين قبل شهر كي احدثك بدلا من الحائط الأخرس؟]**

رسالة الحزب التي شرحت وقدمت بعض الإجابات، وظهور الفتاة – الشمس في يوم شباطي، بعث الراحة في نفسه والهدوء والسكينة في ساعات يومه.

غدا يعيش مع دينه القائم على اقانيمه رغم كل الصعوبات للأيام والشهور فالزمن كفيل بتوفير نهايات جميلة ان احسن الإنسان التصالح مع ضغوطاته واستيعاب توتراته. مع دخوله الشهر الثالث من اقامته في بيت سكينه كان بدأ يلحظ أيامه تتساب بروتينية ولم تعد تحمل احتقانا أو توترا في ساعاتها. جاءت رسالة ثانية من الحزب ، كانت هذه المرة تفيض باستنتاجات المجابهة. اعتبرتها المواجهة الأشرس منذ الهجمة على الحزب سنة ١٩٧٦ وفي المحصلة النهائية استنتجت [فان المظهر الابرز هو صمود قيادات المنظمات وكادراتها الرئيسة] مشيرة بالاسم لبعض نماذج الصمود البطولي (فنون) كأبرزهم، اما من حيث نتائجها المباشرة فقد جرى تصفية بعض المنظمات وخرب هيكل بعضها الآخر فيما السياج الحلقي والجماهيري المحيط وبقاء حفنة من الكادرات كفيل ليس فقط بإعادة بناء ما تهدم فقط بل الاستناد لما سبق للقفز للأمام خاصة ان التجربة الوليدة [منظمة حزبية موحدة] والتي صارعت بشراسة وبالكاد كانت تقف على قدميها تقرر ان لا عودة عنها كبنية وكمحصلة نهائية كما جاء في الرسالة *[فإن التبجح الاحتلالي بتصفيتنا سقط وهم يدركون ذلك جيدا]* من ناحية أخرى فقد أكدت الرسالة ان المواجهة الشاملة ككل المنعطفات الهامة في حياة الحركة الثورية تكون مثابة الغربال الذي يفرز القمح عن الزوان، فالحزب سيقوى بتساقط من امتحنته المواجهة وكان هشا سريع الكسر فيما سيتفولذ اكثر من كان قد قد من حديد. أخيرا أعادت الرسالة ذات الاستنتاج الذي جاء في الرسالة السابقة [**العضو الذي يستمر معنا بعد هذه الهجمة سيستمر طويلا**].

ولتأكيد النهج الذي خطه الحزب بعد الهجمة وحوته الرسالة بان التجربة جرى التأكيد عليها وبان لا تراجع عنها، قام الحزب مطلع سنة ١٩٨٦ أي في اوج المواجهة، بإصدار رسالة حملت عنوان [رسالة جيفارية]. كانت تلك محاولة اولية متروك للزمن وخبرة الممارسة لبلورتها نهائيا – لتحديد خط الحزب لبناء حركة عصابية سرية في الوطن. لقد قرأت الرسالة تجارب عسكرية ثورية عديدة، روسية، صينية، فيتنامية، بلغارية، وكوبية وابرزت ملامحها كما قرأت خصوصيات الوطن الديموغرافية والجغرافية فاستخلصت التكتيك القتالي الملائم للوطن القائم على بناء حركة عصابية سرية في المدن والأرياف، والحركة كما جاء في الرسالة قوتها الأساسية في سريتها فيما قائدها وحاضنها وسياجها بنية تنظيمية صلبة لها امتداداتها السياسية والجماهيرية، بنية تبلغ من التراكم بحيث تتمكن من إطلاق الحركة واستمرارها وحمايتها، وأخيرا فان الرسالة قد ركزت على النموذج الجيفاري الثوري وسماته الأساسية التي تخلق مقاتل ورجل العصابات.

كان الربيع قد بدأ يطرز حاكورة المنزل بحشائشه الربيعية اليانعة وحنونه الأحمر. ستارة النافذة المنزاحة قليلا أضحت جزءا من روتين أيامه ورسالة جديدة ثالثة تشير لتوقف الهجمة. رفاقه يرسلون كميات كبيرة من الكتب والروايات وبضمنها الأعمال الكاملة لغسان كنفاني ورغم قراءته السابقة لروايات كنفاني وقصصه ودراساته النقدية فقد اعاد قراءتها جميعا في زمن قياسي، أربعة أيام. بين قراءة نهمه وسعاده بايقاف الهجمة على الحزب والتمشي بين النافذة الشرقية والجدار وغرس نظراته بالفتاة – الشمس وسماع المذياع، جرت أيامه المشبعة بحلاوة الربيع وحشائشه الخضراء التي تبعث راحة وفرحا في النفس. أي معنى تتخذه النظرات عن بعد بين شاب وفتاه؟ أي قول تبثه الابتسامات السرية الخجولة غير المباشرة أحيانا بين شاب يرى في ابتسامه فتاه فكا لعزلته ووحدته عن عالم الإنسان وفتاه تنتظر طوال سني مراهقتها وعلى عتبة نضجها آن يبتسم لها شاب ما، يخترق بابتسامته جسدها الذي اكتملت انوثته؟ أي صداقة تنشأ دون حديث، مجالسة، رفقة مشتركة، يد تحتضن يد الآخر؟ كان في تمشية بين النافذة والجدار بدأ يرى الفتاة – الشمس يوميا منذ الصباح الباكر حتى الظهر تنتقل بين البيت والمطبخ. بعد الظهر كان لها عادتها اليومية، تغير ملابسها وتتهندم قياسا بفقرها، تخضب شفتيها بأحمر الشفاه وتجلس على كرسيها عند الباب الخلفي مقابل نافذته وتأخذ بالتطريز لساعات حتى تبدأ شمس آذار بالمغيب. كان ينتظرها من خلال ستارة نافذته المنزاحة قليلا، بات ينتظرها كأنه على موعد معها، ما ان تظهر حتى يفرح ويبتسم ويتأملها عن بعد، مكتفيا بهذا الحد من المتعة التي تتيحها حياته دون ان يخرق ضوابطها، الا ما اكثر ما تقزم حياته متعته ورغباته؟ من نافذته كان يمكن معرفة ان خرجت من البيت ام لا، مدخل بيته وبيتها ذاته، الممر الترابي يقود للبيتين. لم تكن تبارح البيت حتى قبل ان تلدها شمس شباط، ما رآها مرة تسير في الممر الفرعي ذاهبة أو آتية، لقد اعتاد النظر للمارة منذ انتقاله للبيت إما إضاعة للوقت أو فضولا يستوطن حياة من يحيا حياته، لمراقبة المارة أو تدقيقا تتطلبه حياته السرية.

أضحت جزءا من حياته وداخل بيته تلك التي تقضي نهارها في المطبخ أو خارجة منه، داخلة اليه أو جالسة تطرز. اصبح يعرف نظام حياتها وهو ذاته نظام حياة الأغلبية الساحقة من فتيات شعب بأكمله. الآن تظهر ذاهبة للمطبخ لتعد طعام الإفطار، بعد قليل سترجع حاملة طبق القش للبيت. عند التاسعة تقريبا، تدخل مطبخها لتعد طعام الغذاء، يستغرق ذلك ساعتين تقريبا، الآن تسرع لتكنس وتنظف البيت. بعد الظهر اما وحيده واما ضمن جلسة نسائية عجائزية تجلس أمام الباب تطرز على قطع القماش، الأشكال الجميلة الملونة. بل عرف اكثر من ذلك؟ اسمها عبير اسم الطفلة الصغيرة التي تلتصق بها اينما ذهبت روزان، عرف آن الصغيرة

ابنة شقيقها. عرف كل شيء عن عائلتها، أي عمل يمارسه والدها العجوز، ماذا يعمل اخواها الاثنان، عرف حتى بعض خصوصيات عائلتها وهمومها فالأحاديث الخصوصية عند عائلة تتجمع على مائدة الطعام باب البيت جريا على العادة الشعبية، يسمعها سكان البيوت المحيطة. اعتاد آن يغفر لنفسه التصنت على أحاديث جيرانه، كان يعزي نفسه برغبته بان يكون جزءا من الحياة خارج البيت باهتمامه وبمتابعته لأحاديث من يحيون تلك الحياة، كان يفيده آن يعرف آن كان جيرانه يثيرون أسئلة ما أو يتناقلون أخبارا تتعلق بهـجارهم الذي لا يرونه. لكنه الآن أضاف سببا اخر وجده وجيها: رغبته بالتعرف إلى الفتاة – الشمس عن قرب، عن طريق معرفة كل شيء عنها ومن بعيد طالما الاقتراب خطرا. كانت أنهت دراستها الثانوية وجلست شانها شأن أترابها من الجنس اللطيف تنتظر الانتقال من بيت والدها إلى بيت زوجها على فرس بيضاء يحملها فوقها فارسها الرجل. كانت تنتظر تلك البائسة وتحلم وتعتقد أنها ستحقق حلمها وبالتالي السعادة، فيما اهلها ينتظرون على أحر من الجمر ذلك الفارس بلهفة توازي لهفتها وان لم تزد عنها. **متى سأتخلص منك وازوجك، زوجك حينها يهتم بأمرك.** هكذا خاطبتها امها العجوز يوما في مجادلة تتكرر يوميا حول امور المطبخ. كان الفتاة – الشمس عبئا على أكتاف عائلتها تنتظر بفارغ الصبر ان تزيحه عن ظهرها.

في يوم آذاري جميل مشمس، عند العاشرة صباحا حينما كانت عبير تنهمك باعداد طعام الغذاء كان كنعان يقف عند نافذة مطبخه يقضم تفاحه ويتطلع للحاكورة الخلفية الممتلئة بالحشائش البرية الخضراء اليانعة وبورود الحنون الأحمر الجميل، كان يتطلع ساهيا، شارد الذهن لا متأملا الحشائش والورود ذاتها، ذهنه يسرح بعيدا. فجأة وكانما من وسط الورود الحمراء والحشائش الخضراء، ظهرت الفتاة – الشمس واقفة أمامه. كانت لا تبتعد عنه سوى مترا واحدا، تنظر اليه دهشة من ذلك الوجه الغريب الملتحي الذي لم تره يوما، تنظر وعلامات وامارات التعجب بادية على وجهها ليس فقط لانه لم يحس بوجودها الا اخيرا بل وعجبا من أنها لم تره يوما عن قرب خارجا أو داخلا. عجبه هو الآخر لم يقل عن عجبها. **هل ولدت من بين الحشائش والورود للمرة الثانية بعد ان ولدتها الشمس في المرة الأولى؟؟** عيناه قابلت عينيها، تسمرا لثوان ينظران لبعضهما مندهشين ومتعجبين، ابتسم لها والفرحة بادية على وجهه الذي غادرته ملامح التعجب، بادلته الابتسامة بابتسامة مرتبكة خجلة، فيما اصطبغ وجهها بالاحمرار حياءا، فرحة، دهشة، وتعجب. لم يدم تلاقي العيون وتبادل الابتسامات سوى ثوان معدودة، اجمل ثوان مرت عليه منذ ثلاثة شهور، عيناه ووجهه اظهرا فرحة اما هي فابتسامتها الطفولية الخجلة والمرتبكة كانت تشي بأنها ما رأت شابا يبتسم لها من قبل، كانت ابتسامته حدثا غريبا يدهمها تلك التي تنتظر فارسها فشعرت بالارتباك والخجل، ولكن ذلك لم

يمنعها من ان تترك العنان لانوثتها بان تعبر عن نفسها، عن فرحها ولو بسرعة البرق، فللطبيعة منطقها الذي لا يعمل الا وفقا لمتطلباته.

بنفس السرعة أدارت وجهها وانسحبت متوارية عنه. انتقل سريعا إلى نافذته الشرقية ليرقبها تخرج من مدخل بيته، أدارت وجهها عندما صارت عند المدخل ونظرت إلى النافذة وابتسمت ابتسامتها المرتبكة من جديد. كانت تدرك بكل جوارحها ان ابتسامته وعينيه تلاحقانها من النافذة، أسرعت في مشيتها تقطع المسافة بين مدخل بيته ومطبخها الذي وصلته سريعا تحمل بيدها-لاحظ ذلك أخيرا!! – قطفة من نبات الخبيزه الذي ينتشر بكثرة في الحاكورة.

جلس على الكرسي في غرفته **[جميلة هي لكن ابتسامتها المرتبكة اجمل. احمرار وجهها خجلا أضفى عليها مسحة طفولية حين ضبطت متلبسة بالنظر اليه، حتما ستتساءل الفتاة – الشمس أسئلة مربكة لها اكثر من ارتباك ابتسامتها:- من أي ظهر هذا؟ انني في المطبخ منذ الصباح، ستقول، وبين مطبخنا ومدخل بيته ليس اكثر من ثلاثة أمتار، كنت سأسمع وقع خطواته وان لم اسمعها كنت سأسمع صوت الباب وضجيجه عندما يفتح ويغلق، متى جاء؟ ستسأل، البارحة؟ لكن الباب لم يفتح سوى منذ إسبوعين وفي الليل. من هو هذا؟؟ من يسكنون هنا، اعرفهم واعرف ما يعملون، كنت أراهم صباحا يخرجون ويعودون بعد الظهر، اما منذ ثلاثة شهور فلم أر واحدا منهم، الآن أرى هذا الغريب الملتحي وهو ليس واحدا منهم، واقفا أمامي شارد الذهن فهل نبز من الأرض ام هبط من السماء؟]**

انتزعه من تأمله طرق شديد على الباب. كان يعرف تلك الطرقات ومنذ ثلاثة شهور. **لن افتح ولتتردد الأسئلة المحيرة في رأسها، لتؤكد لها غرابة حياتي وسلوكي. لا خيار!** بدأت اللعينة سكينة تمارس طقسها المعهود، طرقت على الباب الأول وصاحت بصوتها القبيح ولم يرد. كانت الفتاة-الشمس تراقب المشهد. انتقلت إلى الباب الثاني وكررت صيحاتها المجنونة ولم يرد. كأنه لم يسمع الطرق على الباب الأول لتنتقل إلى الباب الثاني!! توجهت للنوافذ تتقرها وتحاول فتحها، تلصق وجهها بزجاجها محاولة رؤية أحد ما. كان يداري نفسه خوفا من أن تراه. بذات الوقت لمح الفتاة – الشمس تقف عند باب مطبخها تنظر وتضحك بمتعة واضحة، كانت فرحة للعذاب الذي تعانيه اللعينة سكينة! فهمت أن الغريب الملتحي لا يريد أن يفتح الباب فأسعفته:

- خالتي سكينه ليس من أحد في البيت، لقد خرجوا عند الصباح.

قالت تؤكد وقوفها لجانبه في محنته مع الحيزبون.

- أين هم؟ ماذا يفعلون في البيت؟ لا افهم شيئا. منذ ثلاثة شهور لا أرى وجه أحد منهم.

كل يوم يأتون للبيت بعد الظهر ويخرجون صباحا. أنا أراهم.

أنها تؤكد من جديد تضامنها العفوي معه فتستمر بالكذب على شرفه.

كل أسبوع آتي مرتين وأحيانا ثلاثة ولا أحد يرد علي!

- عندما تأتين يكونون هم خارج البيت صدفة.

قالت ذلك ولم تستطع أن تكتم ضحكتها. كانت سعيدة سعادة طفولية اذ تساعده على تحقيق هدفه-رغبته بعدم فتح الباب ولان اللعينة سكينة تتعذب هكذا. تعبيرا عن تذمرها وغضبها ثرثرت هذه الأخيرة بكلمات لا يفهمها كعادة العجائز في هكذا مواقف يتحدثون بتبرم فلا تفهم شيئا، ثم ذهبت.

[شكرا لك أيتها الجميلة يا ابنة الشمس والحشائش الربيعية و الحنون الأحمر! كنت وفية للابتسامة التي تبادلناها فرحين، لقد أنقذتني من ورطة اذ أنكرت وجودي، لن انس ذلك، ولكن ماذا فهمت من كل ما جرى؟؟افهمت ان غريبا ملتحيا شارد الذهن لم ترينه من قبل ولا يفتح الباب، لا يخرج ولا يدخل، هل أدركت حقيقة ذلك الإنسان – الذئب القابع في وكره؟ ام ان ضيق آفاق حياتك ومحدودية تجربتك بها لن تسعفك بالاستنتاج. لا شك تعتقدين ان كل ما جرى هو مجرد هروب من رؤية وجه اللعينة سكينه لا باس بل جيد ان تعتقدين ذلك – فقد حافظت على سري. مرة أخرى شكرا لك ايتها الوفية لابتسامتنا الفرحة]

بعد ذلك كانت الفتاة – الشمس قد تعودت ان تتصدى هي لجولات التفقد بتأكيدات كاذبة [انهم ليسوا بالبيت! خرجوا قبل ان تأتى بنصف ساعة!]، * حين تكون متأكدة ان الغريب الملتحي خلف ستارته يبتسم لها شاكرا فرحا.

منذ لقاء نافذة المطبخ والحديقة غدت عيناها تنغرسان بنافذته الشرقية متى اتيح لها ذلك. أخذت تقضي اقصر مدة ممكنة في البيت أو المطبخ فيما ساعات تظل جالسة عند الباب أو تتمشى مع الصغيرة روزان لتقترب معها من السور الفاصل بين البيتين بحيث يمكنها رؤيته عن قرب، وهو خلف الستارة المنزاحة قليلا. كانت تجلس وتطرز وعيناها تنظران للنافذة اكثر مما تتابعان حركة يديها والإبرة. باتت تدرك الآن ان الغريب الملتحي لا يبارح بيته، الباب لا يفتح، لا يسمع ضجيجه، لا صوت أقدام تدوس الحصى المنتشرة عند مدخل البيت، باتت تدرك اللعبة وان لم تدرك سببها، ولكنها مثله لم يعد يعنيها سوى التطلع وامعان النظر، كانت ترى الستارة منزاحة قليلا فتحس بنظراته تنغرس فيها، بوجهها الطفولي، بشعرها الأسود الفاحم، بعينيها، بجسدها، كان يعلم أنها تعلم فاستمر بالوقوف خلف نافذته

يرقبها، يتأملها ومشاعر عديدة تنتابه كأنهما كانا يتواعدان. منذ الصباح ما ان تخرج متوجهة للمطبخ حتى تلتفت وهي تخطو نحو جهة النافذة وتبتسم لذاك الواقف خلف ستارتها. ما ان تعود من المطبخ حتى تلتفت سريعا فتخطف نظره للنافذة وابتسامة سريعة تنطبع على شفتيها، زادت من تمشيها عند السور القريب من نافذته، غدت لا تفارق كرسيها عند الباب طوال ساعات بعد الظهر وحتى مغيب الشمس الا اذا ناداها احد أفراد الأسرة، تطرز وتنظر وتبتسم، لم تعد ابتسامتها مرتبكة غدت منطلقة جريئة كأنها تقول:- من حقي ان ابتسم له وهاأنذا افعل.

لقد تصادقا دون ان يتحادثا، دون ان يتجالسا، الابتسامات والنظرات كانت جسر علاقتيهما، أدركت سره وان لم تفهمه على حقيقته فكانت ابتسامتها له ابتسامة تعاطف وتضامن وصداقة. وقف على حياتها فاسف لها واشفق على فتاة نافذته، الفتاة – الشمس.

عند عصر يوم دافئ من أيام آذار نهضت عن كرسيها وأخذت الصغيرة معها وتوجهت نحو مدخل بيته، عبرت المدخل وهو يرقبها ويتابع سيرها ودخلت الحاكورة وأخذت تلتقط باقات من ورد الحنون الاحمر، انتقل للنافذة الثانية ليرقبها جيدا، كانت تلتقط الورود وتسير نحو الجهة الخلفية للبيت، سارع للذهاب للمطبخ وتوقف عند النافذة – فظهرت تواصل التقاطها للورود والصغيرة روزان تتقافز من حولها كالأرنبة فرحة بالشمس والورود الحمراء والرحلة حول البيت والفراشات الملونة الطائرة. لاحظ خط سيرها، كانت تسير باتجاه نافذة مطبخه تنحني تلتقط وردة وتسير، تطلعت في لحظة حين اقتربت من النافذة فرأته واقفا عندها يتأملها فابتسمت له فابتسم، استمرت بسيرها نحو النافذة واقتربت حتى أصبحت لا تبتعد سوى مسافة خطوة واحدة تفصلها عنه، عندها تناولت حنونه وألقتها باتجاهه وأخذت بيد الطفلة تحمل باقتها وابتعدت عن النافذة مديرة ظهرها له، التقط وردتها التي مرقت من بين قضبان النافذة فرحا وقال بعفوية يخاطب نفسه بصوت مسموع:-

- اجمل وردة من اجمل وردة.

سمعت جملته، أدارت راسها نحوه، ابتسمت ابتسامة راغبة دون ان تفارق وجهها حمرته ومضت بطريقها بسرعة نحو المطبخ.

[إيه ايتها المسكينة، يا ذات الوجه الامغر خجلا مثل وردة الحنون! أيتها المولودة من الشمس وتظهرين من بين الحشائش الربيعية اليانعة الخضراء والحنون الاحمر، لا يمكن للغريب الملتحي ان يخطو نحوك خطوة واحدة! هذا افضل لك، ليس خوفا من ممارسة التجربة لا يقترب ولا يتنازل عن حق له بك ولا لك به لا يخطو، انما هي الحياة السرية وقواعدها، هل يمكن ان تفهمي قانوني

حياتي (إجراءات، تحوطات، تطلبات، قواعد) (لا تزر احدا، لا تستقبل احدا، لا تفتح شراعة الباب لعجوز بيراوية)؟؟ هل يمكنك ان تتخيلين، مجرد تتخيلين انسانا لا يزور احدا ولا يستقبل احدا؟! انى لك ان تفهمين ذلك انت الجميلة التي حشي رأسها بثقافة المطبخ واللغو الفارغ للثقافة المدرسية؟ لمن تتهندمين يوميا؟ للفارس الذي سيأتي على فرسه البيضاء ويأخذك للسعادة؟ مسكينة اذ تتمسكين بسعادة هي وهم. هل تتقنين دورك كعروس أمام النساء اللواتي يزرن بيتك؟ يأتينه بمئة حجة وحجة والهدف واحد، معاينة البضاعة! هل تستعدين جيدا للقيام بدور كنة عجوز خرفة في أواخر عمرها؟ إيه ايتها الجميلة ستخرجين من مطبخ وتذهبين إلى آخر – ولدت من الشمس ولا مكان لك تحتها فمكانك خلف الجدران خضوعا مستكينا لعرف بال ونظام مقرر. شتان بين جدرانك وجدراني، كلانا يعتصم خلفها، انما انا تمردا وانت خضوعا، التمرد والخضوع لا يلتقيان يا فتاة الشمس والربيع! أنا امتلك قراري ومصيري فيما أنت لا تملكين حتى الابتسام الا مرتبكة وخجلة وربما خائفة. الهذا الحد ارتبكت ابتسامتك الأولى، وعندما خطوت كانت خطوتك تخطيء اتجاهها [اعرف لقدمك قبل الخطو موضعها] ألم تقرأي لنجيب محفوظ؟ انني يا فتاتي لا املك حتى حمارا آتيك على (صهوته) فكيف بفرس بيضاء. الاقتراب مني اقتراب من جنون الثورة، جنون الحياة فتغدو المجنونة المقتربة مجنونة مثلي يركبها عفريت الثورة، أو عرفت طريقها للجنون قبلي فنحيا ونناضل ونحب وقد ركبنا عفريت مشترك؟! هل سمعت عن عيش الحياة والنضال والحب والجنون؟ لا تصلحين اقنوما ثالثا لديني بل أيقونة جميلة تعلق على الحائط!، طموحي اقنوم وليس أيقونة! بائسة أنت. جميلة وبائسة. طيبة وبائسة، لا تدرين كيف تحبين ولا ماذا ينتظرك. تعيشين الانسحاق والدونية ولم تتعلمي بعد (ان تدقي على جدران الخزان). كل ما حولك يسحقك وأنت لا تدرين. الشرائع الرجعية، المدرسة، الرجل، الطبقة، العائلة، الاحتلال، كلها تسحقك. فمنذ قرون وقرون يضحكون على ذقنك اذ يقولون لك [أنت مصنع الرجال ومربية الأجيال] فيما دورك تحدد عندهم، من السرير للمطبخ وبالعكس، ارضاءا للفارس على فرسه البيضاء، ترضين معدته وشهوته الكامنة بين فخذيه! حملتك الأسطورة مسؤولية إغواء آدم، تدنيسه، تدنيس نفسك رغم انك بإغوائه منحته المعرفة والمتعة والحياة! أجدادنا الأولون كانوا اكثر انصافا لك من كل الأساطير والتشريعات فالبابليون منحوك شرف تحويل الكائن نصف الحيوان – نصف الإنسان إلى إنسان كامل بعد ان اغويته، ضاجعته، امتلكك وامتلكته، انتشى بك وانتشيت به فمنحته انسانيته ليعود ذلك الرجل فيسحق انسانيتك]!

حادثها طويلا منفعلا وهو يتمشى وحيدا بين النافذة والجدار ويفكر. قدم لها باقة ورد احمر [خذي فلا اجمل من الورد الأحمر، انه كل شيء جميل، من الثورة

إلى المرأة وما بينهما] رآها تبتسم لباقته لكن دون ارتباك. غرست وردة في شعرها الأسود الفاحم، كان وجهها الطفولي يصطبغ بذات حمرة الوردة حتى ليصعب التمييز بينهما، أدهشه التشابه فابتسم فرحاً ومتعجباً!

في أواسط نيسان يتقرر الرحيل من بيت اللعينة سكينه. لقد أحدثت ضجة في الحي بتساؤلاتها حول غرابة مستأجريها الذين لا يظهرون. الهجمة انزاحت نهائياً والترتيبات الجديدة تحفر طريقها. كان متعطشاً للعمل، لاعادة بناء ما تهدم. سيعود وقد تركت مواجهات سنة ١٩٨٥ على نفسه تأثيرات عميقة في اتجاه تعزيز انتمائه اكثر، تعزيز قناعته بأهمية الحفاظ على ذاته خلف جدران وكره، سيعود وقد أسس دينه الثالوثي، شرّع لنفسه اقانيمه الثلاثة، انتهى السكون وحان أوان الانطلاق. قرر ان يترك تذكاراً للعينة سكينه قبل الرحيل وبعد ان أعاد لها ملكيتها الخاصة لداخل الغرفتين وأقفلهما من جديد، اخذ رماد سجائره، مزجه بالماء وغمس إصبعه بالمخلوط الأسود، كتب على الباب الشرقي من الداخل [الموت للعينة سكينة – ك] فتح الباب وخرج يحمل معه ما جاء يحمله قبل اكثر من ثلاثة شهور، أوراقه، علب سجائره، سبحته الحمراء وحقيبة ملابسه، غير ذلك كان يحمل ذكرياته.

كانت الساعة السابعة مساءاً. شمسه دخلت بيتها لا تدري أنها صباحاً ستفتقد تلك الستارة المنزاحة والابتسامة خلفها، نظر جهة مطبخها عندما عبر المدخل المغطى بالحصى باتجاه الممر الفرعي الترابي المؤدي للشارع:

[لمن ستبتسمين بعد اليوم يا فتاة الشمس والربيع؟ الواقف خلف الستارة يرحل فالرحيل حياته ودائماً سأحمل ابتسامتك ووردتك الحمراء معي فاحملي صورة (الغريب الملتحي)، يقف عند نافذة مطبخه، مجرد صورة لا اكثر].

سار في الممر الترابي تاركاً خلفه بيت اللعينة سكينه وابتسامة فتاة الشمس والربيع. حدث نفسه مجدداً وهو يسير وبصوت يسمعه: **إيه يا فيّاض أي تشابه بيني وبينك؟ لقد غدا لي فتاة نافذة مثلك! هل ستكون نهايتي كنهايتك أيضاً: الاعتقال مع مطبعة الحزب؟** وسار لا يتطلع للوراء. فقط للأمام! ■

الفصل السابع

الفصل السابع

حذاء

رياضي أبيض يتوقف عند رأسه. من خلال عصبة العينين المنزاحة قليلاً، يرى كنعان مقدمة الحذاء باتجاه رأسه.

- الأرجح ينظر اليّ فليس هنا ما يبحث عنه.

كان هذا من نوع (اديداس) الجيد. لم يكن الحذاء يتحدث بل ينظر فحسب، يبدو انه كان يُرضي ساديته بالاستمتاع ناظراً لكعنان ممدداً على بطنه. غابة البساطير والأحذية الرياضية والمطاطية تجوس عالمه – بيته، غرفة غرفة، ركناً ركناً، كانوا يفتشون. لا زال يسمع أصوات العبث المنفلت:- خزائن تتحطم، طاولات تتكسر، أرائك وفرشات ووسائد تتمزق، جدران تهدم وبلاطات تخلع. يهدمون الحائط في غرفة نومه الذي يفصله عن بيت جيرانه، كان يسمع مهداتهم تدكه ويرى عدة بساطير من موقعه تتجمع عنده. ماذا يقول جيرانه الذين يحيون في عالم غير عالمه؟ عالمهم لا يعرف مفرداته؟ أوراق، جدران، أبواب، عمل سري، خلايا، منظمات، حزب، تنكر، مخابرات، حرمان وقسوة، تمشي بين جدار وباب، عالم لا يرى الاحتلال الا من بعيد عند حاجز تفتيش أو عند سماع الأمر بمنع التجوال أو من على شاشات التلفاز، لا يعيش الصراع معه ساعة بساعة، تمرداً عليه. كانوا شان الجميع يجمعون المال، ينامون، يتناسلون، ويأكلون، يُزارون ويزورون، لا جامع بين عالمهم وعالمه. دائماً تأمل حياتهم التي يراها من نافذته، شرفته. العديدون يرونها طبيعية الا انه لم يكن يراها هكذا، أنها حياة استثنائية في ظل الاحتلال. حياته هي ما كان يراها طبيعية عندما يقارنها بحياتهم. ليس من الطبيعي ان يعيش شعب تحت الاحتلال عيشة طبيعية فذلك لا يناقض منطق الأمور فحسب بل ومع الزمن يتحول هذا لخطر على الشعب ذاته. كان جيرانه يمتازون بتلك اللباقة الاجتماعية المهذبة التي تتسم بها الأوساط البرجوازية المدينية في وسط الوطن، لا يعملون قصاصي اثر خلف مَنْ يجاورهم شأن من ينحدرون من أوساط شعبية. لا يدسّون أنفسهم في شؤون مَنْ يجاورهم ولا يرصدون الداخل والخارج، لا يتلصصون من النوافذ. كانوا جيرانا نموذجيين لبيت سري لذلك سيظل طوال حياته مديناً لهم وللباقة تصرفهم.

- الشكر لكم على لباقتكم. اعتذاري للطفلتين الصغيرتين اللتين دبت البساطير الرعب في قلبيهما الصغيرين وانتزعتهما من أحلامهما الجميلة. حتماً ستعقد الدهشة ألسنتهم عندما يفيقون من رعب هذه الليلة الفريدة في حياتهم، ماذا سيقولون عندما يعلمون أي سر كان بين الجدران الملاحقة لجدران بيتهم؟

- غير معقول! كل هذه المدة بين الجدران بقربنا ولا نعرف كنعان اياه الذي اختفى منذ سنين يظهر الآن بجوارنا! هل هذا معقول؟ ما هذا؟ معقول؟ ما هذا الذي يجري؟
- بل معقول ومعقول! للخلاص من غابة البساطير التي أرعبت طفلتيكما فكل شيء نفعله نحن الثوريين معقول. اذا كان ترحيل شعب ممكن فكل ما من شانه ان يضع حداً لهذا المزاح السخيف من التاريخ بحقنا يغدو معقولاً مهما بدا مجنوناً.

بل ماذا سيقول كل جيرانه؟ العمال خلف ماكيناتهم يصنعون طوب البناء. العربة الحديدية التي تحمل الحجارة الصغيرة من كل نوع في معمل البلاط الأرضي. عمال معمل الألبان، الكلاب المزعجة في مطحنة الشعير، البيت غير المكتمل أمام بيته، عمال وعاملات مصنع الشوكولاته الذين كانوا يقضون ساعة غذائهم يتمشون في الباحة الخلفية للمصنع وهو يرمقهم. ماذا سيقول كل مَنْ عرفه، اهله، معارفه، زملاء الدراسة، رفاقه، رفيقاته، أصدقاؤه، سكان مدينته، بل ماذا ستقول أمه؟؟

زارته قبل أسبوع تحمل صررها، اشتياقها، قبلها، سيل من أسئلتها الاستجوابية وزجرياتها!!
- لماذا لم تنظف الثلاجة؟ يا بنّي منفضدات السجائر مزابل، تنظيفها لا يستغرق دقائق، لماذا ليس لديك لحمة؟ احسب حساب أي طارئ! منذ متى لم تنظف زجاج النوافذ؟ كيف ستدخل الشمس عليك؟ اسكِت وناولني (القرفة) لاصنع لك (هيطلية)!

خذ وانظر لكنعان الصغير ما أحلاه. تعلم ان يقول (انا مثل عمو كنعان).

نقلته لعالمها، فرح لذلك باستسلام لذيذ خدر لامومتها. تغذيا ورحلت بعد ان أكدت على حفنة توجيهات عند الباب. ماذا ستقول امه؟ ستخاف وتفرح لاعتقاله! تخاف عليه بين أيديهم وتفرح لانه سيظهر وقد تفرح أخيرا به ابا لأطفال، لا فرحها سيزيح خوفها جانباً ولا خوفها سيطغى على فرحها، ستعيش هي الأخرى تناقضاتها.

[انكشف السر الآن ونزع الحجاب، ستارة المسرح رفعت والنظارة سيشاهدون الممثل الذي تساءلوا طويلاً عن مصيره!

- قبل ذلك ليتذكر كل واحد ماذا قال حينها قبل تسع سنين حين أدرت ظهرك للحياة واخترت النضال ولم تظهر. أتذكر ما كنت تسمع وكيف رددت؟

- هذا مجنون، انه مجنون.
- الثورة هي الجنون. دون جنون الثورة ومغامرتها لن تتحرروا!
- يترك امه، خطيبته، وجامعته، هل تستحق المسالة كل ذلك.
- تستحق وتستحق. الوطن قبل نفسي وضعته، أفلا أضعه قبل أمي وخطيبتي والجامعة؟
- سنة، سنتان، ثلاث، يقضيها في السجن ويخرج وينتهي كل شيء فما الداعي لكل ذلك؟
- انتم لا تدركون الجوهر، لا تتقنون سوى القبض على القشور. تعلموا الغوص عميقاً وستفهمون، تعلموا النظر حيث يشير الاصبع لا إلى وسخ الظفر! انظروا ابعد من أرنبات انوفكم!
- لا شك الآن دبر لنفسه منحة دراسية ما في دولة اشتراكية.
- الصغير لا يرى غيره الا صغيراً مثله. القزم يصعب عليه ان يتخيل مشروعاً كبيراً!
- لا شك انه في لبنان عند الفدائيين أو في موسكو عند الشيوعيين.
- خيالكم أوسع من رحمة الله!
- ظهر على حقيقته محرّض الثانويين ومسيّر التظاهرات. ادار ظهره للنضال وفر للخارج.
- أغبياء ومحدودو التفكير، مقاييسكم ضيقة، سجن أو فرار اليس هنا غير ذلك؟
- هل هذا صنع رجال، يخطب بنات الناس ثم يتركهن ويهرب؟ اراد السياسة فلا يورّط بنات الناس معه اذن. امّا سياسة وامّا زواج!
- لم يبق عليّ الا هذا! ان اسيّر حياتي، احدد خياراتي بناء على تحليلات واستنتاجات وتوجيهات العجائز!! لو اتبع الثوريون الرأي العام الساذج والأحمق – في كثير من الأحيان – لما سار التاريخ ملمتراً واحداً للأمام. الطالب عليه ان يهتم بدراسته، المرأة بمطبخها ومتعة زوجها، الأب بقوت أبنائه، الام بضم أبنائها تحت جناحها، كل حدد له الرأي العام وظيفته. من سيصنع الثورة اذن؟ مَنْ سيدفع التاريخ للامام؟ سكان المريخ مثلاً؟!

كنت هزمت ذاتك حينها اذ رددت هكذا على تقولات مَنْ عرفك. قليلون أولئك الذين ربما، ربما فحسب فهموا لعبتك ولعبة حزبك فكتموا فهمهم في قلوبهم] اشد ما ازعجه حينها سلوك العجائز والثرثرات الذي لم يتوقف طوال السنين الخمس الأولى، لم يظهر فلاكوا اسمه وهذا كان مفهوماً. فسخت منى خطبته لها رسمياً فعادوا لاسمه بعد ان كادوا ينسوه. ما ان توقفوا عن الثرثرة حتى بدأوا من جديد منى خطبت (صاحب المركز) فتذكروا قصته معها وعادوا يلوكون اسمه. تزوجت فكرروا ما اعتادوا عليه حتى كتموا اخيراً. لم تزعجه

تقييماتهم لما جرى بقدر ما أزعجه ان يظل اسمه ينطرح في مجالس القيل والقال. كانت امه تنقل له ما يقال وفي داخلها تقول بنفس ما يقولون امام أمامه فتنقل بحيادية مصطنعة فحسب. قاعدته السرية كانت شطب اسمه من التداول نهائياً كعملة قررت الدولة سحبها من السوق. الحزب عمل بذات القاعدة، من يسأل عنه من الأعضاء شفاهة أو كتابة كان يأتيه الرد [هذا الاسم لا نعلم عنه شيئاً] ابلغه الحزب بذلك فسّر له.

الآن اعتقاله يغيّر، يكشف ويكشف، يزرع موقفاً ظل (شتله) بين يدي الحزب، يرسخ مفهوماً ظل مكتوماً، يربي بتجربة ظلت سرية، [ربما تلك وتلك فقط فائدة اعتقالي الوحيدة].

منذ ترك كنعان بيت اللعينة سكينه انتقل إلى بيت عند الطرف الجنوبي لمدينة البيره متاخم لاراضي قرية ومخيم قلنديا. كان بيتاً في حي جديد شوارعه لم تُعبّد بعد، فيما البناء يغزوه حديثاً، حثيثاً. اتخذ لنفسه شقة في الطبقة الثانية في مبنى مكوّن من طبقتين يملكه رجل كان وعائلته نموذجاً مناسباً لصاحب البيت الذي يريد لمواءمته المواصفات التي تتطلبها الحياة السرية. فصاحب البيت اهم من مواصفات البيت نفسه فأم عيسى واللعينة سكينه مثلاً تحولا حياة المتخفي لجحيم مما يؤثر على استقراره وهدوئه النفسي، فيما رجل كصاحب كرم التين أو كصاحب الشقة التي انتقل اليها حديثاً فهما من النوعية التي يخيل لرجل التخفي ان الحياة فصّلتهما بالضبط ليناسبا التجربة، يساهمان بنجاحها اذ يخلقان بسلوكهما ما يريح صاحبها. كان صاحب البيت عجوزاً جاوز الستين يستعمل نظارة طبية سميكة سمك قاع كوب الشاي، يسير محدودباً نتيجة كبر سنه على الأرجح فيما الكوفية البيضاء التي يرتديها صيف شتاء تغطي جبهته لتصل نظارته. كان بالكاد يميز مَنْ سيستأجر منه بيته، مَنْ يقف أمامه، يمر بحذائه، وهو يجلس أمام بيته، يصعد أو ينزل درجاته. ان نجح ان يرفع رأسه فعينيه لا تسعفانه. زوجه فيها من الطيبة الفلاحية ما لا يمكن في يوم من الأيام ان تتلوث بوضعية "الملكية الخاصة" علماً ان تلك الملكية كانت عبارة عن أربعة شقق مؤجرة هي بمقاييس مدينة البيره جيدة نوعاً ما.

كانت العجوز تعامل ساكني شققها كما تعامل ابناءها اذ لا يكاد يمر أسبوع الا وتضع أمام كل شقة ما تيسّر من إنتاج حقلها الصغير الواقع خلف البيت:- نعناع، بقدونس، فجل، بصل اخضر. كان كلما سمع صوت جلبتها عند باب الشقة نظر من العين السحرية فرآها تضع هديتها فيتذكر أمه وصررها، اذ كانت هي الأخرى تجلب بين فترة وأخرى صررها:- بعضاً من نعناعها البلدي نافذ الرائحة الذي لا يلذ الشاي الا معه.

عندما دخل بيته الجديد سنة ١٩٨٦ كانت العجوز الطيبة قد نظفته جيداً، ابوابه، ارضيته، حمامه، زجاج شرفته، ما ان اكتشف سجايا العجوز من اليوم الأول حتى اكتشف حقيقة غابت عنه في شهوره الاربعة الماضية:- ان في العالم نوعية من العجائز غير صنف اللعينة سكينه. سارع يطوف الغرف ليتعرف على بيته محيطه، في الجهة الشرقية بيتان واحد مؤلف من ثلاث طبقات والآخر من طبقة واحدة، على الجهة الشمالية تظهر من نافذة المطبخ الشرفة الصغيرة للشقة المجاورة.

صباح اليوم التالي وما ان تطلع صدفة من نافذة مطبخه وهو يعد افطاره حتى هاله ما رأى، وجه نسائي يتميز بقبح لا نظير له، بدا وجه من رأى كأنه مكون من كتل من اللحم الصقت على عجل دونما مهارة وصنعه فجاء دون تقاطيع تميز بين اجزائه، المنخار، الانف، الفم والذقن كلها متداخلة دون فواصل تميزها، وجهها كان لا اكثر من رطل لحم! **الا ما اقطع ما تصنعه الطبيعة أحياناً؟ أي وجه هذا؟ كأنه تعرض لتفجير نووي.** سارع الوجه اللحمي للابتعاد عن الشرفة، ربما خشية من الحسد!! شعر بالأسف **تركت وجه فتاة النافذة، فتاة الشمس والربيع فيكون صباحي مع هذا الوجه النووي؟** منذ ذلك الحين اصبح اسم جارته في الوكر [ذات الوجه النووي] فلا تذكر في وكره الا بلقبها هذا! رآها للمرة الثانية ايضاً صباحاً، كانت هذه المرة وعند الثامنة صباحاً قد طلت وجهها بكمية هائلة من المساحيق. كان الوجه اللحمي قد اصبح كحائط تلهت حفنة من الأطفال المشاغبين برشقه بألوان الدهانات كيفما اتفق. ما ان رأته حتى توارت استحياءً. تبسم كنعان **لن تكوني فتاة نافذتي حتى لو كنت كحواء لا ثانية لك!**

بعد هذين اللقاءين اصر كنعان على عدم سلوك طريق اللباقة معها فقد قرر ان يُبقي نافذته مشرّعة دون ستارة ولتمتنع هي عن الخروج لشرفتها استحياءً فلن يحرم نفسه من الشمس مراعاة لاستحياها. اما الشقة الثانية بجانب شقته فكان يقطنها شقيقان متزوجان من شقيقتين مع أبنائهما. ما تصادف ان رأى اياً من العائلتين حتى كانت ليلة شتوية عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وبينما كان يشاهد فيلماً سينمائياً عربياً اذ بقرع شديد على باب الشقة وصوت يعلن مكرراً:-

- افتح جيش، افتح، افتح.

ما هي الا ثوان حتى كانت نيران المدفأة قد التهمت أوراقه القليلة حينئذ. توتره بلغ اشده وفي رأسه تصحن الأسئلة خلايا دماغه :ماذا جاء بهم؟ لم اسمع صوت سياراتهم وشاحناتهم. آن كانوا جاءوا راجلين فلا صوت حول البيت. الطرقات على الباب تتكرر وكذلك الدعوة لفتح الباب. تسمّر مكانه برهة ثم انتقل

للشرفة الزجاجية ونظر خلف البيت فلم ير لهم اثر. توقف الطرق والنداء : ماذا يجري؟ ما قصتهم؟ هل ذهبوا؟ ما ان توقف الطرق حتى سمع جلبة ما، أصوات لم يفهم منها شيئاً، باب يفتح ويغلق، ازدادت حيرته وان خف توتره، انتقل يسير على رؤوس أصابعه نحو باب الشقة والصق اذنه للباب فما سمع أي صوت، نظر من العين السحرية فكان المصباح الكهربائي مضاء وما رأى اثراً لهم. **أموت الآن واعلم ما يجري!، ما هذه الألاعيب؟ يأتون، يطرقون الباب، يصيحون ثم يرحلون هكذا في اقل من خمس دقائق؟ هل اخذ الاحتلال يلعب مع الشعب؟.**

قتلته أسئلة لا يملك الإجابة عنها. لا أقسى من تسلل المجاهيل إلى راس الثوري، يشعر كأنه لعبة في قدر سخيف يتلاعب به دون ان يدري ما يجري. عاد وقعد أمام التلفاز، كان الشهر شهر رمضان فيستمر البث التلفزيوني حتى الفجر وكعادته ما نام قبل ان ينتهي البث بل كان ينتظر رمضان سنوياً ليتابع مسلسلاته، أفلامه، وبرامجه بفرحة طفل. ما عاد يتابع أحداث الفلم وان نظر للتلفزيون تفكيره قلق مضطرب ويتجه اتجاهات شتى دون ان يستقر. عند الخامسة صباحاً غفا قلقاً، ونهض عند السابعة والنصف **يجب ان أتقصى حقيقة ما جرى البارحة، لا بد من طريقة للحديث مع إحدى الشقيقتين.** كان يسمع وتقريباً كل يوم مشمس صوت إحدى الشقيقتين وهي تصعد لسطح البيت لنشر غسيل العائلة. اخذ قطعاً نظيفة من ملابسة وبللها بالماء وجهزها في طست الغسيل. عند الثامنة سمع صوت باب شقة الشقيقين يفتح. كان صباحاً يبشر بيوم مشمس فتطلع من العين السحرية فاذا بإحداهن تصعد للسطح فتحرك سريعاً، لحقها فاذا بها تنشر ملابس الأطفال.

- صباح الخير جارتنا. أنا اسكن بجانبكم.
- صباح النور.
- ردت ومفاجأة رؤيتها لجارها لاول مرة منذ شهور تظهر على محياها. لم ترتبك حياءً وهذا ما سره اذ يمكنه استجوابها.
- لنرجو فقط ان يظل النهار مشمساً حتى يجف الغسيل في الأخبار قالوا ان اليوم سيكون الطقس صافيا. العائلة التي فيها أطفال مثلنا تحتاج يومياً لان تغسل. ماذا نفعل؟ هذا حال الدنيا.

كانت منفتحة بالحديث على غير عادة المرأة التقليدية التي تقابل رجلاً لا تعرفه.

- بالأمس ليلاً صحوت على أصوات صياح لم افهم منها شيئاً، أرجو ان يكون خيراً هل الصوت كان عندكم ام في الشقة الأخرى.

كانت لحسن حظه مخلصة للعادة المتأصلة في المرأة التقليدية، عادة الثرثرة. أفرغت ما في جعبتها سريعاً وهي تضحك محاولة ان تعتذر عما ستكشفه.

- آه أنت سمعت الصوت. حقك علينا يا جار، الله يلعنه الشقيق الصغير لزوجي، جاء لايقاظنا من النوم كي نتناول السحور معاً، احب ان يمازحنا بان يقلد

صوت قدوم الجيش. آه أنت سمعت، حقك علينا يا جارنا (وضحكت) نحن لا نهتم بالسياسة ونعرف انه سيأتي عند الواحدة تقريباً. الحق علينا يا جار. كان الولد يصيح (افتح جيش افتح) حتى ازعج العمارة كلها، ضحكنا كثيراً، طيب نحن أيقظناك على السحور معنا!! لازم تفطر عندنا يوم. حقك علينا.

وضحكت من جديد فيما كنعان يسحق في داخله رغبة جامحة بان يحملها ويرمي بها من أعلى البيت فيهشم عظامها! تصنّع ابتسامة بصعوبة وقال:

- بسيطة يا جارتنا كل ما هنالك أنني أردت الاطمئنان عليكم فالجار للجار.
- يخلف عليك، حقك علينا، احنا ما خفنا. كانت تتابع نشرتها الإخبارية فقاطعها:
- بسيطة يا جارتنا، ما صار شيء.

أدار ظهره سريعاً وهبط الدرجات لشقته. الآن يمكنه فهم ما جرى فشقته كبيرة وفقيرة الأثاث، الغرفة التي يستخدمها لعمله ونومه يشتري لها أثاثاً وغيرها تبقى فارغة. من الطبيعي ان طرقاً شديداً على باب الشقة الملاصقة لباب شقته سيجد صداه في بيته كأنه طرق على بابه. هو أضاع اوراقه واستقرار ليله وهدوء أعصابه، كل ذلك لان الشقيق الصغير يحب ان يمازح اشقائه، عبثهم ومزاحهم كلفه الكثير، مرة أخرى يتذكر دعاء امه الذي يحمله منذ سنة ١٩٨٢ ويسمعها تكرره كل يوم [رح يا بني الله يرضى عليك!]. للجيران، للناس حياتهم، لهوهم، عبثهم، وهو له حياته وما فيها لهوٌ أو عبثٌ!

ظلت الهجمة على الحزب ومنظماته متواصلة حتى نيسان سنة ١٩٨٦ حيث اختتمت بنهش المنظمة الحزبية في جامعة بيرزيت ، تلك المنظمة التي احتلت مكانة اثيرة لدى الحزب. حتى ذلك الحين لصلابة بنائها وانتاجيتها وحسن تربيتها لحفنة من الكادرات الثورية واحتلالها مع منظمتها الديمقراطية الصديقة موقعاً مؤثراً في العمل السياسي والنقابي الطلابي، وقد كان تأثير تلك المنظمة بارزاً خارج الجامعة ان كان على صعيد التحريض والدعاية باصدارها لاكثر من ثلاث سنوات جريدة "التقدم" كجريدة شهرية طلابية متخصصة توزع على المؤسسات التعليمية أو بتشكيلها لفروع وامتدادات جماهيرية وسياسية للحزب في مواقع عديدة في الوطن وليجري فيما بعد الاستفادة من تلك الامتدادات من قبل المنظمات الحزبية لمزيد من بناء الخلايا والتوسع الحزبي.

أما الحزب فقد شرع بضخ الدماء من جديد في شرايين العمل الحزبي. كانت سنة من الاشتباك اليومي مع الاحتلال وجهاز مخابراته قد صلبت عود العديد من الكادرات والأعضاء فكان هؤلاء التربة الخصبة لاعادة بناء ما تهدّم. اعيد تشكيل اللجان التي اعتقل أعضاؤها وأفرزت كادرات جديدة لبناء المنظمات التي

صُفيت. لم يتضرر سياج الحلقات الصديقة ولا المنظمات الديمقراطية للعمال والطلاب فشرع الحزب في حملة توسع جديدة لاعادة بناء المنظمات الحزبية فينهل مادتها الأساسية من الأصدقاء في الحلقات والمنظمات الديمقراطية فيما قدمت المنظمات الديمقراطية فائدة أخرى للحزب، ففي المواقع التي صُفيت فيها المنظمات الحزبية تماماً أو بشكل يشل دورها السياسي والجماهيري، أخذت المنظمات الديمقراطية على عاتقها هذا الدور بحيث تحولت لاداة الحزب في نشاطه والناطق باسمه بين الجماهير.

كان التوسع يستند لتوجيه ينص على ان **الرد على الاعتقال يكون بمزيد من التوسع الحزبي!** كما ورد في العديد من الرسائل والتعميمات الصادرة والموجهة للجان ومنظمات وأفراد، وقد استهل الحزب مرحلة ما بعد الهجمة بإصدار أربع رسائل ستلعب منذ ذلك الحين دور البوصلة في مجمل النشاط الحزبي، وتلك كانت الرسائل السياسية والتنظيمية والأمنية والجماهيرية. لقد عالجت الرسائل بالتحليل المسهب ظروف العمل في المجالات الأربعة المشار اليها ووحدت المهام الملموسة لكل مجال بحيث ستنصب كل جهود منظمات الحزب نحوها.

من الطبيعي ان تفاوت تطور تجربة وبنية ونضج كل منظمة قد عكس نفسه على أدائها لمهامها في المرحلة الجديدة ناهيك عن مدى استجابتها الذي يعكس إلى حد ما تلك التجربة والبنية ومستوى النضج. كانت منظمة غزة لم تحسن الوقوف على قدميها بعد، فكل محاولة شجاعة وجريئة كانت أجهزة المخابرات تنجح بتصفيتها سريعاً، فيما منظمة رام الله فقد كانت في المقدمة كتجربة وبنية ونضج. انتهت الهجمة وسقطت معها صيحات محققي جهاز المخابرات داخل غرفة التحقيق بان عام ١٩٨٥ سيشهد تصفية الحزب، اما زئيف شيف- المعلق العسكري الإسرائيلي البارز- فقد اعترف بأوهام الاحتلال الذي كان هو ذاته يأخذ بها مع بداية الهجمة، فقد ذهب للقول [اعتقدنا ان ضربة ١٩٨٥ ستصقي الجبهة الشعبية لكننا الآن نكتشف ان نفوذها يزداد].

كانت تقديرات الحزب في أوج الهجمة ان الضرر الواقع قد أعاد تجربة الحزب لعامين للوراء، لكن ما ان انتهى عام ١٩٨٦ حتى اتضح ان البنية أعيد بناؤها بسرعة اكثر من التقدير الأول بل وتمتلك من عناصر القوة والديناميكية ما جعلها تدخل معارك سنة ٨٧ بفاعلية واضحة على مستوى الوطن. ففي موسم انتخابات المؤسسات المحلية لعام ١٩٨٧ ، حافظ الحزب على نفوذه كقوة مهمة وفي بعض المؤسسات حقق الحزب مكاسب هامة :- عاد ليؤكد كونه القوى الثانية في جامعة بيت لحم فيما انتزع لقب القوة الأولى في انتخابات شركة الكهرباء، أمّا في

انتخابات الهلال الأحمر الفلسطيني في الخليل فقد حصد الحزب ١٧٠٠ صوت انتخابي أي بما يعادل ٣٧% من عدد الأصوات التي تعد بالآلاف. اما المعركة الأبرز على صعيد جماهيري فقد كانت انتخابات مجلس الطلبة في جامعة بيرزيت والتي جرت مطلع ١٩٨٧ .

للمرة الأولى في تاريخ تواجد الحزب في الجامعة يضطر أمام تكتل موحد ضده، التقدم للانتخابات بكتلة منفردة امام تكتل موحد من ثلاث كتل وطنية، وكتلة إسلامية منفردة. كان القرار الحزبي بالعمل على إثبات هيبة ونفوذ المنظمة وكتلتها وهي لم تلحق بعد أنْ ترمم نفسها بعد الضربة الموجعة لها منذ حوالي ثماني شهور. كان واضحاً ان لا إمكانية لفوز كتلة الحزب ولكن هناك إمكانية لاثبات نفوذه وهيبته لما لذلك من تأثير معنوي كبير على نفسية القاعدة الحزبية والصديقة بعد هجمة احتلالية طويلة ومريرة. دائماً كانت انتخابات الجامعة تملك من التأثيرات ما يجعلها تتجاوز حدود الجامعة . لقد جرى اعتبارها دائماً باروميتر لقياس مزاج الشارع رغم عدم دقة المقياس بالعموم، وكذا مدخل لتحديد التحالفات والتكتيكات في مؤسسات أخرى كما للصدى الإعلامي الذي تحوزه هذه الانتخابات نظراً لعراقة الجامعة في المجتمع الفلسطيني، لدورها الوطني البارز وللمكانة التي تمثلها في شبكة واسعة من العلاقات مع مؤسسات دولية لذلك رمى الحزب بثقله منظمات وافراد وكنعان واحد منهم.

اعتبر المعركة معركته فتراث الحزب في الجامعة جزء أساسي منه. أحس ان الرد الانجح على الهجمة على المنظمة ينبغي ان يكون برسالة صريحة للمخابرات عنوانها: لم تؤثر علينا هجمتكم!. كتب باسم الحزب العديد من الرسائل والتعميمات للجان والأعضاء، للقاعدة الصديقة. قال لرفاقه في رسالة يمازحهم ويظهر مدى جدية المعركة: وعدتم الحزب بأن يتجاوز ما تحصدونه ٤٠٠ صوت انتخابي فلا اقل من ذلك صوت واحد وإلا فارحلوا للأردن ولا تعودوا للوطن !!. كتب وكتب دون أن يمل. صاغ عشرات التوجيهات والإرشادات والنصائح، عصر كل تجربة احتكاكه بالعمل الطلابي لسنوات وسنوات ووضعها أمامهم. ناقشهم في التكتيك، التعبئة، التحريض والمغزى السياسي- الحزبي وحتى في المسائل الفنية للمعركة الانتخابية ، وفي شعاراتها وملصقاتها ومهرجاناتها ودعايتها، كان يدرك أن شعور "الأقلية" يخلق طاقة ونشاط وديناميكية هائلة لمن أحسن تعبئة تلك "الأقلية". قبل رفاقه التحدي وخاطبوا الحزب فزادوا على التحدي تحدياً: بل ٤٣٠ صوتاً وإلا سنقدم استقالتنا من الحزب. وكنعان يوم المعركة لا يستقر على حال. لم يستطع عمل شئ في وكره. يتمشى ويقعد، يسعى ليشغل وقته بأي شيء ولكن ذهنه هناك في الجامعة. طلب من رفاقه أن يرتبوا أمرهم بحيث تصله النتيجة ساعة

صدورها وهو يعلم بأنها لا تصدر إلا بعد الحادي عشرة ليلاً ! كان ينتظر والقلق يصرعه.

عند الساعة الثانية عشر ليلاً جاءه الخبر: حصدت كتلة الحزب ٤٨٠ صوتاً فيما خسرت ٢٠ أخرا لاسباب فنية وهذا شكل ما نسبته ٢٤% من مجموع الأصوات. كان نتيجة ساحقة هلل لها الحزب في الوطن. ما ان انتهت معركة الجامعة وانتخاباتها حتى وجدت المنظمات الحزبية نفسها في معركة من نمط آخر ، معركة إسناد نضال الأسرى في سجون الضفة الغربية الذين أعلنوا الإضراب عن الطعام لتحسين شروط اعتقالهم في آذار سنة ١٩٨٧.

لنضال الاسرى وقع خاص. انه نضال يكلف دماء من أجل ابسط ما يتمتع به الإنسان العادي، الهواء، الماء، الغذاء، الدواء .... يسقط الشهيد من أجل نصف ساعة زيادة عن الفترة المخصصة لنزهة الساحة، تتلوى أمعاؤه من ألم الجوع أياما وأياما من أجل زيادة دقائق على فترة زيارة الأسير لأمه، لزوجته، لابنه .... تفتك أمراض الإضراب بالأسرى الهزل، ضعف العظام، تساقط الشعر والأسنان... من أجل ضمان الماء الساخن للاستحمام، من أجل ان يتمكن الأسير من تقبيل طفله واحتضانه في الزيارة نصف الشهرية، من أجل ادخال الزيت أو الصابون أو الدخان، من أجل ان يحتفظ بكراريسه الثقافية، من أجل ان يحصل على الكتب، من أجل ان لا يُعزل لمطالبته بحقوقه الانسانية. كل ما هو تافه، حقير، اعتيادي جداً بحيث لا يلحظه من هو خارج الاسر، يتحول في الاسر لأمنية وهدف ينبغي ان تستحصله بنضال يتطلب البطولة، التضحية، والشهداء. الأسر والتخفي يلتقيان هنا بأنهما يحولان ما هو اعتيادي لمطمح عزيز المنال، في الحالة الأولى باكراه السجان وقمعه، وما على الاسير إلا ان يسلك الطريق المجرب لانتزاع مطمحه- النضال. أمّا في الحالة الثانية فبإكراه ضرورات السرية "متطلباتها، قواعدها، إجراءاتها وتحوطاتها". وما على المناضل إلا ان يسلك ايضاً ذات الطريق المجرب "إخراس الذات واحتياجاتها ورغباتها".

ما ان أعلن الإضراب حتى انهمكت الحركة الوطنية مجتمعة ومنها الحزب بتفرعاته وامتداداته في الجامعات والمدن والأرياف والمخيمات بحملة تضامن واسناد للأسرى، وهي تدرك كحركة وطنية وكحزب أنها ومهما قدمت لن تفي الاسرى حقهم ولن تنهي التقصير التاريخي الذي طالهم. فعاليات نضالية ضد الاحتلال واعتصامات في مقار الصليب الأحمر، مظاهرات، مسيرات، اجتماعات عامة ومهرجانات، مناشدات لمنظمات حقوقية تعمل في مجال حقوق الإنسان... كل ذلك تواصل على مدى أيام الإضراب (٣٠ يوماً) حتى حقق بعضاً من مطالبه.

كانت المنظمات تتقوى في معارك الشارع عبر النشاط اليومي – النضالي والسياسي والجماهيري، تتوسع وتكسب أعضاء جدد فتنشئ خلايا جديدة لتتوسع تلك وتبني كادراتها فتغدو منظمة حزبية. وعلى جبهة أخرى كانت المنظمات الديمقراطية تنمو وتفتتح مواقع جديدة، تطور من بنائها وتعقد مؤتمراتها حتى غدت شبكة هي بمثابة ذراع للحزب الذي رمى بثقله في معركة هامة استمرت تقريباً عام ١٩٨٧ فيما كانت بدأت منذ مطلع عام ١٩٨٦، نعني الحركة الشعبية ضد حصار حركة امل المذهبية ضد الشعب والمقاتلين في لبنان.

الأرض المحتلة كانت تغلي سنة ١٩٨٧! ما ان تخرج من معركة حتى تدخل في أخرى. المعارك مع الاحتلال يومية والثورة تستعيد وحدتها بعدما هتك اتفاق "شباط/ ١٩٨٤ تلك الوحدة فينعقد المجلس الوطني التوحيدي لينتعش المزاج الجماهيري اكثر فتشتد المعارك اكثر فيما يستشعر هذا المزاج الإهمال العربي والدولي للموضوع الفلسطيني الذي تجسّد في مؤتمر القمة العربي في عمّان "مؤتمر الوفاق والاتفاق" وفي لقاء العملاقين السوفييتي – الأمريكي في سيدني باستراليا. لكل ذلك فقد كان التعميم السياسي الصادر في شهر تموز ١٩٨٧ عن فرع الحزب في الوطن يرى بان الوطن "بات يجلس على مرجل يغلي يمكن ان ينفجر في اية لحظة".

وكنعان وسط هذا الغليان وتلك المتغيرات تتوسع مهامه وتتشعب ويناضل وينتقل من هنا إلى هناك، يجتمع، يتصل، دون ان يعكّر صفو عامه الا ما صادفه ذلك اليوم من ايام تشرين الثاني سنة ١٩٨٧. في ليلة ماطرة كان ينتقل من بيت سري لآخر وبعد انتهائه من عقد اجتماع خرج لاجله. كان ينتقل بسيارة تضطر للسير بطيئة في الشارع الرئيسي رام الله – القدس عند حي "الشرفة" بسبب ازدحام السير والأمطار الغزيرة. عند تقاطع الشارع الرئيسي مع شارع فرعي يؤدي إلى بيت عائلة منى، رآها!! كانت جالسة بجانب "صاحب المركز" الذي يقود سيارته منتظراً دوره للعبور للشارع الرئيسي. اوقف زوجها سيارته ينتظر دوره لعبور الشارع. كنعان كان يمعن النظر بالمارة، بالراكبين، بمن يقف أمام محله يمعن ويمعن علّه يرى من يعرفه فيفرح برؤيته. في تلك اللحظة رآها بجانب "صاحب المركز" في سيارته المتوقفة، كانت ترتدي معطفاً شتوياً، ثقيلاً وتمسح انفها بورقة تنظيف ونظر للأمام. نظر اليها لثوان ونفسه منقطع فاغراً فاهه. غرس نظراته فيها كأنه يلتهمها، توقفت يدها التي تمسح انفها عن العمل وتطلع اليها [هل ميزت مَنْ

تنظر اليه؟ ميزتني، عرفتني؟] تساءل لاهثاً، فرحاً بينه وبين نفسه وهو لا يشيح بوجهه عنها ولو للحظة من ثانية!!. كان ملتحيا ويرتدي نظارة طبية غير التي عرفته بها، فهل ميزته؟ لا يعرف. كانا يتطلعان لبعضهما البعض فيما "صاحب المركز" يتطلع جهة اليسار عله ينجح بالتسرب للشارع الرئيسي. نظر اليها وقلبه يكاد ينخلع، رغب ان يفتح باب السيارة، يقفز منها يتوجه للسيارة التي تقلها، يهشم راس "صاحب المركز" ويخطفها لبيته السري، لعالمه! تنهد اذ لا يستطيع تنفيذ رغبته الحمقاء تلك. سارت السيارة التي تقله فانقطع المشهد.

لأيام بعد تلك الليلة وشعور بالغضب يلازمه يتمشى بين جدار وجدار لا ليفكر بقضية تشغله بهدوء وروية كما اعتاد منذ سنين بل متألماً ومقهوراً يشتم كل ما يواجهه، الجدران، الأبواب، الكراسي، والكتب... شتم كل مفردات عالمه! أخرجه وجهها عن اتزانه لأيام. أية صدفة تلك! لماذا تآمرت عليه كي لا يراها المرة الوحيدة منذ خمس سنين الا وزوجها بجانبها؟ كي لا يراها حبيبة بل زوجة آخر. لماذا لم تقدمها الصدفة تسير وحيدة امام بيته، ربما يكون خرق حينها كافة قواعد حياته... من يدري؟ ربما يكون وضع قانون "لا تستقبل احداً" على الرف واستقبلها لساعات، فهي بالنهاية ليست "احداً"، أنها منى! من يدري؟ اخر مرة رآها قالت له: انا لا أستطيع، لا أستطيع. والان عندما يراها معه كان يتساءل هل هذا ما استطاعته؟؟ وماذا استطاعت بالنهاية، زوجة فلان، ملحقة به بالتبعية الرسمية لعقد الزواج ولحدودية دورها في الحياة. لا مكانة خاصة بها بل أضحت مثل كل زوجة تعرف برجلها لا بما هي عليه، حرم فلان الفلاني حسب التعبير المصري. تذكر جملتها التي كادت تخرجه عن طوره: يجب ان تقرر اما انا أو الحزب. هل كان يمكنه ان يرد عليها بغير رده، رداً حازماً: لك خيارك ولي خياري. قطعاً لا. أجاب مستمراً بإعادة شريط الذاكرة لخمس سنين خلت. **ولكن الا يمكن تأجيل الرد القطعي؟ ربما امنح نفسي امنحها فرصة أخرى للتحاور؟ أليست قطيعتي تلك خبرة ما تعكس حدودية نضجي آنذاك؟ لو يدور الحوار اليوم، لو عدت للخلف بوعي اليوم هل سأعالج كما عالجت؟ هل كان يمكن افضل مما كان؟ هل منحت حبي لها فرصة ليستمر، ليحيا ام عاجلته بالضربة القاضية، برصاصة الرحمة، رحمة بي وبها؟.**

أسئلة كثيرة كانت تطن في رأسه كخلية نحل وهو يتمشى بين جدار واخر وهو مستلق على السرير وهو يأكل ... متذكراً وجهها، ملامحها، كل ما فيها في آخر لقاء، كلماتها قبل سنين وسنين. شتم مراراً ظروفه وتعقيدات نضاله وحاول جاهداً ان ينسى ذلك اللقاء ان كان يمكن ان ينساه!

بعد عام وجب الرحيل. توسع البناء في الحي الذي بات معروفاً باسم حي "عين ام الشرايط" للدرجة التي اصبح فيها الحي ملاصقاً لتخوم مخيم "الامعري" فانتقلت له عدوى شبان المخيم الكادحين؟ كمائن للدوريات تنهال عليها بالحجارة، والزجاجات الحارقة، شعارات جدارية، تجمعات هاتفة، اطارات مشتعلة، فاضحى الحي من انشط أحياء المدينة فغدت الدوريات العسكرية لا تفارقه ليلا نهارا، لكل ذلك قرر ان لا يمنح الصدفة فرصة الإيقاع به. ■

الفصل الثامن

الفصل الثامن

انتزعه الحذاء الذي يتحرك أمام وجهه من منى ولقائهما الأخير. دار الحذاء يميناً. أصبحت عيناه الآن تلمحان خلسة حذاء القدم اليسرى **[أين يتطلع؟ ماذا يفعل؟ ليس على الجدار سوى طبق قش صنعته فلاحة ماهرة من بقايا موسم حصاد القمح، فهل يتامله؟ ليس من اثاث في هذا الركن ليمزقه، يحطمه، فماذا يريد الحذاء من وقفته هذه عند رأسي؟]**

اعلن صوت صدر من فوق راسه عن هدف الحذاء الابيض؟ انه يعبث بشرائطه الموسيقية والغنائية التي رافقته طوال سنينه. لم يكن ليحيا دون موسيقى وغناء اذ لا معنى للحياة بدونهما، حتى الانسان البدائي ما ان دب على قائمين حتى اخذ يقرع الطبول ويحاكي الطبيعة غناءً. شرائط لموسيقى هادئة واخرى صاخبة، شرائط للشيخ امام، لمارسيل خليفة، لفيروز، ماجدة الرومي، صباخ فخري، وعبد الحليم حافظ، سمعها وغنى معها وهو يتمشى بين جدار وباب، وهو يستلقي على الاريكة في الشرفة وهو يتمشى على سطح المنزل ليلاً، وهو يطهو، يقرأ، يكتب، وهو يجلس على الاريكة، يسمع ويسمع فيسترخي فيطرد تعب الجسد والاعصاب. ما انقطعت الموسيقى والغناء في وكره وما تصور نفسه يحيا بدونها. الحذاء يفتح الشرائط ويغلقها: **هل يقرأ العربية؟ مستبعد. اذن ماذا يريد؟ هل يفتش هناك؟ هل يتوقع مثلا ان يجد مخزناً للسلاح داخل غلاف شريط؟ ام تراه سيجد رزمة من الصحف والمطبوعات السرية؟ ام لعل ثالثاً يختبئ في شريط بين عجلته والشريط الملتف حولها؟؟]**

فتح الحذاء الموضع المخصص للشريط في المسجلة. سمع كنعان صوت مفتاح التشغيل:

بين ريتا وعيوني بندقية، والذي يعرف ريتا...
ينحني ويصلي لاله في العيون العسلية

آه آه يا مارسيل – آه آه يا درويش يا هوميروس فلسطين

وانا قبلت ريتا عندما كانت صغيرة
وانا اذكر كيف التصقت بي وغطت ساعدي احلى ظفيرة
وانا اذكر ريتا مثلما يذكر عصفور غديره!

للمرة الأولى– والاخيرة حتماً- شكر كنعان ضابط المخابرات، ذاك الذي لا يعرفه بوجهه بل بحذائه!! شكره اذ حمله للعالم الشعري الساحر. اوقف الحذاء المسجلة، فشتمه. عبث الحذاء من جديد بالمسجلة. كنعان ينتظر انطلاق الصوت، ضغط الحذاء على مفتاح التشغيل:

كل قلوب الناس جنسيتي فلتسقطوا عني جواز السفر.

تهلل كنعان فرحاً ونقلته تلك الاغنية إلى يوم اخر وزمان اخر وظرف اخر، متناسياً الالم الناتج عن ضغط الحذاء الذي يتمترس عند وجهه والدماء تنزف من حاجبه الايسر فتبقع بقعة البلاط.

كانت الساعة العاشرة والنصف عندما انهى رياضته الصباحية وتناول افطاره؟ باذنجاناً مقلياً بالزيت البلدي ومغطى بطبقة من السماق ذي اللون النبيذي. جلس في الغرفة التي بحذاء الباب الحديدي، مادا ساقيه على الطاولة الصغيرة، تناول رواية "الدون الهادئ" لشولوخوف باجزائها الثلاثة المتوفرة لديه وغرق في عالم ابطالها، (غريغوري) ذلك المتمرد، المتنقل بين البلشفية والمنشفية ذي السجايا النبيلة، ولكن المتمسك بملكيته الخاصة الصغيرة، الفلاحية. اكسينيا المتزوجة من جار غريغوري والمتمسكة بحبها له لا لزوجها والمنقادة وراء جموح غلمتها. بيوتر وداريا المعاديان للبلشفية حتى النخاع دفاعاً عن قطعة الارض، ملكيتهما الخاصة. والد غريغوري وبيوتر، الفلاح الرجعي الذي يسري في عروقه الدم التركي والذي قادته فحولته إلى ان يراود كنته داريا على نفسها. دينا التي يعمر قلبها بحب جارف للشاب الشيوعي العامل والفقير فيكتور!

غرق في الرواية ومارسيل يغني بقربه اشعار محمود درويش، بصوته العميق الاخاذ. كان شرع يقرا الرواية للمرة الثانية مستمتعاً ومتألماً، المه نابع من انه لم يعثر بعد على الجزء الرابع والاخير من الرواية، رغم انه ينتظره منذ سنين وسال عنه دائماً رفاقه. كان يشغله سؤال: اين وصل غريغوري في تخبطه بين الثورة واعدائها؟. كان كنعان اذ يجوب في سهوب الدون الواسعة مع شولوخوف يقاوم كانون، أمطاره وبرده، وريحه العاتية. كانون هو هو بطقسه المعهود الذي كانت تكثفه امه بقولها [سقعة كوانين بتقص الحراذين غطي حالك مليح، دارك واسعة وباردة]. رغم جهوده الحثيثة ما نجح يوماً بالتصالح مع كانون، مع الشتاء عموماً في حياته السرية. كان يمقته اذ يحل. انهى ذلك المقطع حين سعد غريغوري واكسينيا بلحظات اللذة السرية فوق تبن العريشة متحدين سيف القوزاق الذي لا يثلم.

وضع الكتاب جانباً متاملاً وصوت حبيبات المطر المنهمر ينقر زجاج النافذة وتأخذه رغماً عنه لذكريات كانون.

[آه لكانون وما له من تاثيرات في حياتي. فيه سحبت القابلة الفرنسية راسي من رحم امي لتعلن ميلاد حياة جديدة – هل اصف هذا باعتباره حدثاً جيداً!!؟ أي سؤال سخيف وغير ذي معنى هذا! في كانون ولدت مرة ثانية حين عرفت طريقي للعمل السياسي الثوري – السري فبدأ مجرى حياتي يغير اتجاهه! فيه تاسس الحزب الذي وهبته شبابي! حياتي في كانون اعيد انجابها للمرة الثالثة حين دخلت الحياة السرية – حياة التخفي! فتغير مجرى حياتي مجدداً! فيه ايضاً سنة ١٩٨٥ وضعت مجدداً في امتحان القسوة والتحدي في شهور الهجمة الشاملة- شهور الاقامة في فيلا اللعينة سكينة فوضعت ديني الثالوثي –اقانيمي الثلاثة! هل أنا ابن امي وابي، ام ابن كانون؟ أ أكون ابن المطر والريح والغيوم والثلوج فأكون "هندياً احمر" اسمى باسمائهم؟ كأن "اللوح المحفوظ" سجل اسمي وحياتي في راس صفحاته تحت عنوان "كنعان صبحي – تغيرات هامة في كوانين!" فهل سجلت وفاتي أيضاً في اللوح المحفوظ في كانون أيضاً؟ كان كانون رحماً وضعه القدر في طريق حياتي، في ولادتي الأولى قدمني كانون نطفه، في الثانية علقه وفي الثالثة مضغة، وستتكفل كوانين المقبلة بأن تكسو عظامي لحماً. سيظل كانون يلدني. إلى متى يستمر في تشكيلي؟ متى يكسو عظامي لحماً؟ هل الحزب وكانون على اتفاق الأول يوجه والثاني يتولى التنفيذ؟]

رغم ذلك كان كنعان الدم واللحم المندس بين الجدران يمقت كانون وفصل الشتاء وله كرجل حياة سرية ما يبرر مقته هذا. ما آن يصحو من النوم عند التاسعة أو التاسعة والنصف مغالباً رغبة جامحة بان يظل متدثراً يتلذذ بالدفء، يتناول افطاره بعد آن يكون مارس بعض التمارين الرياضية على دراجته الثابتة. بعد الافطار يعمل لساعتين أو ثلاثة، يتناول غذاءه ثم يمارس عادته المتأصلة، النوم لساعة بعد الغذاء. ما آن يصحو مما يسميه "تعسيله" بعد الظهر حتى يعود للعمل فيكون النهار المزيف قد شرع بالانسحاب بعد آن يكون ليل كانون المبكر قد ركله بعجيزته. الشمس التي ما أن تظهر على استحياء في ساعة ما في يوم ما سرعان ما تحجبها الغيوم من جديد فتختبئ كلص كأنها عنصر غريب شاذ على عائلة الشتاء. نوافذ مغلقة ومدفئه، كاز، سجائر استوطنتها الرطوبة، ملابس ثقيلة مقيدة للحركة، أغطية صوفية ثقيلة، بيت واسع قليل الاثاث تعربد البرودة في جنباته، عذاب اعداد الطعام وغسل الاواني والملابس، عدم رؤية مارة يمشون، انمحاء اللون الأخضر من دائرة نظره، كل ذلك كان يشعره انه سجيناً مرتين مرة في حياته السرية ومرة في شتائها. كان يتلذذ لعادتين مستخبتين على قلبه شتاءً؟ ان يندس مبكراً تحت

أغطيته الصوفية ويقرا لساعات في رواية ممتعة فينسى عندها انه يحيا في الشتاء. اما العادة الثانية فهي تناول كاس من النبيذ اللطروني مع طعام الغذاء. الشتاء عنده ارتبط بالنبيذ، يتلازم الاثنان حتى يستحيل تصور أحدهما دون الآخر، كما ثديا المرأة يسبقانها ليعلنا قدومها وظهورها. ما ان يحل الشتاء حتى يعلن له [آن اوان النبيذ اللطروني] وما ان يتناول كاساً حتى يتذكر امه. يعود من الجامعة بين الخامسة والسادسة مساءاً ليجدها وقد وضعت طنجرة الطعام على مدفاة الكاز ليظل الطعام ساخناً كما يحبه، يتغديا معاً ويتناول النبيذ في كاس من الخزف كما في القرون الوسطى. كان تجدث دون قصد عن امتعاضه من ان يتغدى وحيداً فغيرت امه عادتها المتاصلة لعشرات السنين، توقفت عن الغداء عند الظهر واخذت تنتظر قدومه من الجامعة اول الليل. ما هي الام؟ انسان يصعب وصفه أو الحديث عنه مهما تسلحنا بكنوز اللغة والصياغات الادبية، انسان يحب دوماً دون مقابل، مجاناً، ما انقطع عن نبيذها شتاءاً فحصته منه محفوظة كلما زارته كانت تزوده به.

يتأمل كانون وهو جالس والكتاب مغلق في يده، يتذكر امه فيشتاق للثم تجاعيد خدها والعبث بشعرها، باستثناء هاتين العادتين ما احب الشتاء يوماً. **[لماذا لم تنظم الطبيعة قوانينها ونظام عملها بحيث تكون السنة كلها مثل نيسان وايار، هل كان لزاماً عليها أن تحول حياتي إلى سجن في سجن.** كان يحتج في لحظات نقمته على الشتاء ويبتدع "حسابات فلكية" خاصة به، يعزي بها نفسه. حساباته غريبة غرابة حياته.

[تشرين الأول رائحة الصيف فيه وهو غير منزعج، تشرين الثاني لا يحتسب من فصل الشتاء فلا امطاره كثيرة ولا رياح عاتية ويظل يحمل من رائحة الصيف اعقابها، حتى ان العديد من الفلاحين يقطفون زيتونهم فيه اما كانون الأول فهو شهر العمل والفرح بمناسبة انطلاقة الحزب، تمضي ايامه دون ان يشعر به، بقى كانون الثاني بضعة ايام تمضي منه حتى تحل نهايته اذ هو بالنهاية شهر لا يكاد يبدأ حتى ينتهي. اما شباط فصحيح انه "خباط" ولكن رائحة الصيف فيه، وما ان ينتهي حتى يحل آذار الربيع بشمسه وتفتح ورده وحنونه الاحمر، وبالمحصلة ينتهي الشتاء سريعاً]!!

كانت تلك حساباته الفلكية المضحكة يتقوى بها ضد الشتاء يدافع بها ضد نفسه الكئيبة شتاءاً. **[يعني لا شتاء في بلادنا حسب حساباتك الفلكية!] يعلق على حساباته تلك من يسمعها. [ان لم احسبها هكذا قتلني ابن العاهرة المسمى شتاءاً، الذي ما ان يقترب حتى يبدأ الاكتئاب يغزو مزاجي].** تبدأ ايام الشتاء بالزحف فتطرد حساباته، تنحيها جانباً، تركلها "المربعنيات" ومصائبها وشباط فيه رائحة صيف ولكنه بالاساس خباط يخاطب ابن عمه آذار: آذار يا بن عمي ثلاثة منك

واربعة مني، تتخلي العجوز وغنماتها في الواد تغني. كناية عن كثرة الامطار حتى في ايام اذار الاولى، اما هذا الاخير "بشمسه وتفتح ورده وحنونه الاحمر" فهو "اذار أبو سبع تلجات كبار".

لكن كانون ذلك العام قرر ان يبعث الفرح لا الكآبة في نفسه، واعده بالفرح منذ ايامه الأولى. كانون الأول هذا العام كان بنداً في سجل شعب في اللوح المحفوظ، في مكان ما لدى من يرقب البشر منذ الازل. اشاح بنظره عن زجاج النافذة الذي يتلقى حبيبات المطر، وترك غريغوري واكسينيا يفكران بحل لمشكلة حب بين قوزاق تعودوا مسح شفاههم بظبة السيف المغموسة بالدم، ادار مفتاح المذياع ليسمع الانباء من اذاعة مونت كارلو عند الساعة الثانية عشرة ظهراً... [مظاهرة ومسيرات حاشدة تضم الالاف من الفلسطينيين في قطاع غزة وتحديداً في مخيم جباليا منددة بالاحتلال، والقوات الاسرائيلية ترد على المتظاهرين بالرصاص وسقوط عدد من الضحايا لم يعرف عددهم بعد] هكذا اعلن المذيع بنبرته المعهودة التي يميزها من يتابع اذاعة مونت كارلو. [بالالاف، ماذا يجري؟ صحيح الوضع يغلي منذ بداية العام ولكن تظاهرات بالالاف وفي مخيم واحد فذلك شيء نوعي، تطور جدي]! علق على الخبر دون ان يفهم حقيقة ما يجري.

كانت الانتفاضة الشعبية قد اندلعت جبارة. المرجل الذي لمحه الحزب في تموز يغلي انفجر. كان ولد من جديد حدث بارز ليس في حياته فحسب بل في حياة شعب وهو يعيش تلك الولادة. بعد اسبوعين على اندلاعها تقرر الانتقال إلى وكر اخر. صعد للسيارة المعدة لنقله بعد الغروب بقليل، اغلق باب السيارة، تناول رفيقه السائق مفتاح التشغيل في يده وقال:

- قل ربك يسترها فالشوارع الفرعية مغلقة تماماً لا تستطيع السيارة عبورها والجيش لا يهتم كثيراً بفتحها. سنضطر لعبور الشوارع الرئيسة، فهي الوحيدة السالكة تقريباً، سترى الآن ما يجري في البلد.

ورأى ما يجري وهاله ما رأى!! المدينة خاوية كانها مدينة اشباح. سيارات قليلة تمرق في الشوارع بسرعة وباضطراب، تخيلها كلص يهرب متلفتاً حواليه خشية ان يقبض عليه. الحجارة الكبيرة والصغيرة فرشت ارض الشوارع، سوى مسارب في وسطها، فتحها الجيش ليسهل على آلياته التحرك وملاحقة المتظاهرين، ولكنها مسارب ليست نظيفة تماماً فكان على رفيقه ان يقود السيارة بمهارة البهلوان ليتمكن من تجاوز ذلك الحجر والالتفاف حول ذاك، مرة يصعد فوق حجر صغير واخرى يدوس عجل السيارة طرف حجر اخر. فينطلق هذا كالقذيفة، كأن رفيقه يشارك في مباراة غريبة لتخطي العوائق امام سائق اخر – متبار معه. ارضية

الشوارع اينما توجهت ملطخة بالسخام وبقايا اطارات السيارات المشتعلة والتي كان بعضها في رمقه الاخير، لم تات عليه النيران، جدران شرعت ايدي الشبان تخط عليها الشعارات السياسية والتحريضية. كان كل شيء رآه يشهد بتمرد احياء المدينة التي عاش شبابه فيها؟ دوار المنازه، سرية رام الله، الحارة القديمة، شارع ركب، محل أبو اسكندر للشاورما، دوار الساعة، سينما الجميل، مخيم قدورة، حي الشرفة، طريق رام الله – القدس. كلها كانت تنطق بمظهر شوارعها واحيائها وجدرانها برفضها للاحتلال.

كان صامتاً والسيارة تنتقل من حي لآخر محاولة ايجاد مسربها بين الحجارة. لم ينطق طوال الطريق بكلمة، صيحة تعجب أو تعليق كما تعود عندما كان يطلب من رفيق له كل بضعة اسابيع ان يطوف به بالمدينة في جولة في السيارة، جولة تسعده بقدر ما تثير لديه ذكرى الايام الخوالي، يغير ملامحه وينطلق لشارع بيت عائلته ليلمح والدته جالسة على الشرفة أو تعتني بورودها قبل مغيب الشمس. إلى مخيم قدورة يقف على اطلال الحب القديم، إلى مركز المدينة ليدور كما كان يفعل مع اترابه اواسط السبعينيات من الشارع الخلفي لبوظة ركب ثم يساراً لمحلات كرم الصوصو ثم يساراً ايضاً لشارع بوظة ركب فتكتمل الدائرة. كل ما يمكن ان يقال في عهد الشباب كان يقال في التمشي حول الدائرة تلك؟ يشترون الكعك بالسمسم من الخليلي عند دوار الساعة ويبدأون المسير، هذا يعقد لقاءاً تنظيمياً سريعاً – اخر يتمشى مع صديقته، اخرون يتناقشون، يتصايحون، يتضاحكون ... كانت المدينة تعج عادة بعد السادسة مساءاً نتيجة شغب الطوافين في الدائرة المشهورة في رام الله.

ما خرج في حياته السرية في جولة طواف وعرف الصمت طريقاً للسانه! كان كطفل يرى البحر اول مرة فيأخذ بالتقافز والصياح مشيراً باصبعه لكل ما يكتشفه:-

- هنا في هذا الشارع كانت لنا لقاءات سرية قبل سنين!
- هذا الحلاق (الحن) حطمت زجاج محله سنة ١٩٧٦ عندما اخطأ حجري الدورية، رفع شكواه لوالدي الذي صاح بي دون نتيجة!
- انظر، انظر، انه فلان. كان في الحزب، سقط قبل ان نبدأ! مُسِح الشعر عن رأسه تماماً. ويضحك بصخب.
- عرّج على شارع المستشفى لاقف على الاطلال. [يطلب وابتسامة اسف تنطبع على شفتيه!
- ها هي امي. انظر أنها تعمل في الحديقة. اين الصغيرة لماذا لا تظهر فجأة!

- الله الله هي رام الله! [يقول اذ يرى شاب وفتاه يتمشيان في شارع المكتبة المشجر الذي يصلح لكل علاقة سرية.
- يا الهي كيف اصبحت بعد الزواج، هل تذكرها؟ كانت في الجامعة محط مطاردة الشبان. هل هكذا يفعل الزواج بهن؟ أنها جرافة ناطقة!

ولا ينسى اذ ينسى جولاته تلك مداعبة رفيق له مرة وهو يطوف به:

- انظر هناك هذا الصنف البشري يسمى "نساء"! هل تذكره ام نسيته يا مسكين؟ صيفت وهو صنف ينتشر في الصيف!

يتطلع فاذا فتاة هيفاء تسير بثقة من تملكتها قناعة ان لا غيرها على وجه البسيطة! يضحك ويضحك حتى تؤلمه خاصرتيه.

- الشكر للحزب يا رفيق، التلفاز يقدم ما يكفي من هذه العينة حتى لا تندثر في الذاكرة!

لكنه اليوم ما تكلم وما صاح. فقط كان ينظر صامتاً للحجارة، للجدران، لبقايا الاطارات. فقط علق بينه وبين نفسه عندما التفت السيارة حول دوار الساعة. **هذا الطبيعي في مدينة تحت الاحتلال، غير ذلك مزيف لا يليق بنا كشعب.**

وصل بيته المطل على الشارع الرئيسي والقريب من مخيم الامعري في حي جديد عموماً اسمه "سطح مرحبا"

- هنا البيت ليس منة بالمنة ولكننا سريعاً سنجهز لك اخر. قال رفيقه يصف البيت وقد اوقف المحرك.

بدأت الانتفاضة تترك تأثيراتها على حياته اليومية ونضاله بفعل المهام والقرارات والاليات الجديدة التي اقتضتها، واستجاب الحزب لها. مُسّ نظام حياته بالكامل كانسان وكمناضل كما كل الشعب. كان الحزب اصدر اول تعميم توجيهي له في اواسط كانون الأول سنة ١٩٨٨ واعتبر فيه ان المهمة السريعة لمنظمات الحزب هي تطوير مشاركة المدينة وزج الريف في الانتفاضة، اذ حتى ذلك التاريخ كانت المخيمات تبدو وكانها المعقل الانتفاضي الوحيد فيما مساهمة المدينة غير مؤثرة والريف رابض كالاسد يحوي كل الطاقة الجبارة، العمال.

اما المهمة السياسية الاساسية فقد حددها الحزب بوضع برنامج مطلبي للانتفاضة كسياج يحميها وبوصلة لنشاطها وكمدخل لتعبئة كافة الطبقات وفئات الشعب في فعالياتها. وقد حوى البرنامج فيما حوى [انتخابات للبلديات، وقف مصادرة الاراضي، الغاء ضريبة القيمة المضافة، ارجاع الاموال المقتطعة من اجور العمال داخل اسرائيل، وقف التدخل في التعليم كسياسة ومنهاج وتوظيف، وقف اغلاق مؤسسات التعليم، الغاء القيود المفروضة على الاستيراد والتصدير،

اطلاق سراح المعتقلين...]. وغيرها العديد من المطالب، جرى طرحها كمطالب للانتفاضة ... اما الفكر السياسي فلم يكن قد استشرف افاق الانتفاضة وإمكانياتها ولم يطرح امامها مطالب سياسية عالية السقف من نوع الحماية الدولية، المؤتمر الدولي، تطبيق كافة قرارات الامم المتحدة، المتعلقة بقضية فلسطين وصولاً لطرح مطلب وشعار الدولة الفلسطينية المستقلة باعتبارها الشعار الناظم لنضال الشعب علماً ان اول بيان موحد بتوقيع القوى الوطنية وردت فيه عبارة [الحرية- والاستقلال] كعبارة مكثفة للهدف الاستقلالي وهذه العبارة سعى الحزب لتضمينها البيان مستفيداً من تجربة الثورة الجزائرية التي رفعت ذات الشعار في وجه ما تقدم به المستعمرون الفرنسيون – الحكم الذاتي.

اما المهمة التنظيمية التي رسمها الحزب فكانت الحفاظ على سريان وجريان الالية الحزبية باتصالاتها وتعويض الخسارة في التقطعات سريعاً مع رمي الثقل الحزبي في الشارع دون اعتبار المعركة اخر المعارك، والاهم التوسع السريع ببناء الاشكال التنظيمية التي تكفل تعبئة الجماهير المقبلة على الانتظام السياسي بشكل مندفع اشبه بالسنوات الأولى لانطلاقة المقاومة المسلحة في غزة والاردن بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ واخيراً جرى التاكيد على ان يصار لتقييم الكادر بمدى استجابته السريعة للمهام التي تطرحها الانتفاضة.

كل مفردات مهامه وحياته اليومية مسها التغيير بفعل الانتفاضة مقاطعة البضائع الاسرائيلية، تشكيل لجان المقاومة الشعبية ولجان الاحياء واللجان الشعبية، بناء منظمات وخلايا جديدة، تنظيم الاقتحام التنظيمي والجماهيري لمواقع جديدة، برنامج فعاليات القيادة الوطنية الموحدة الذي حددت التوجيهات اعتباره موجهاً فعاليات المنظمات، تنظيم المسيرات والتظاهرات وكافة انشطة المقاومة كلها تحولت ومنذ الاسبوع الثالث لمهام واليات وقرارات جديدة تتحول إلى واقع سياسي – تنظيمي – جماهيري وكفاحي جديد يطبع عمل المنظمات والاعضاء وكنعان منهم.

ما تهلل ولا فرح كما تهلل في شهور الانتفاضة الاولى، لقد كان وجهاً لوجه امام حقيقة إن جهد سنوات وسنوات من العمل التنظيمي والجماهيري والسياسي والنضالي المنمنم بين الشعب، سنوات وسنوات من التعبئة والتنظيم وبناء المنظمات باشكالها كل ذلك افرز قدره سياسة على قيادة الشارع. ما يزرع يحصد ولو بعد سنين اما [الحجر الذي رفضه البناءون فقد تحول ليصبح هو راس الزاوية] حسب التعبير البليغ للسيد المسيح، فالاختفاء والمطاردة كانت فعل جنون غير مفهوم عند انصاف الثوريين نهاية السبعينيات واوائل الثمانينيات تحولت لتصبح فعل جنون

شعب باكمله. شعب يفر من الاحياء والارياف للجبال والازقة حالما تدهم البيوت رافضاً تسليم نفسه!! اضحى خيار التمرد خياراً شعبياً لا خياراً لهذا الطليعي أو ذاك.

كان كنعان يعيش احداث الانتفاضة في صفوفها الخلفية من حيث جسده القابع بين جدران وكره، لكن مهامه ونشاطه والقرارات التي ساهم بها وضعته في مواقع متقدمة في فعلها. اصبح يدرك في الانتفاضة اكثر من أي وقت مضى جدوى دوره وتاثيره المباشر بحيث تتحول القرارات والتوجيهات إلى فعل في الشارع يضاف لفعل الشعب ضد الاحتلال. في احيان كثيرة كانت الانتفاضة تدخل وكره اذ لقربه من مخيم الامعري لم يكن يسمع صوت المتظاهرين فقط ولا رصاص المحتلين يطاردهم لقنصهم بل ويشتم رائحة الغاز المسيل للدموع يغزو رئتيه ويحرق عينيه فيدمعهما. كان يقف عند الشباك يسمع الهتافات ويرى دخان الاطارات المشتعلة الاسود واللون الابيض للغاز وما هي الا لحظات حتى يشعر بالحرقة في حلقه وتدمع عينيه فيفرح: الرائحة افضل من العدم. بالنهاية هي مشاركة في الانتفاضة.

في الموعد المحدد ظهرت. تطلعت عبر الشارع بحنكة كانت اتقنتها كروتين بفعل سنوات الحياة السرية. تأكدت ان لا احد يعرفها فولجت مدخل البيت وما كادت تشرع بقرع الباب حتى كان فتحه لها. كل مرة تاتي اليه كان يتلذذ وهو يراقبها تمارس (العمل السري) تدقق قبل ان تدخل، تلبس نظارات شمسية، تلف راسها بمنديل يغطي معظم اجزاء وجهها، استقبلها وهو يضحك:-

- بعد تجربتك لسنين مع بيوتي السرية، تصلحين عضو سري في الحزب!
- الله يلعنك ويلعن حزبك! اين كان هذا مخبأ لي آخر عمري!

وضحكت وعانقته بحرارة وشبعت منه تقبيلاً. تذمراتها في اللقاءات الأولى–وهي تذمرات خجولة على اية حال– ما عادت تعبر عنها الا عندما يشرع كعادته يمازحها ويداعبها.

- ليست كل الامهات مثلك. انت ام مناضل في الجبهة الشعبية!
- الله يقطع الجبهة ويومها، حبش ما اسسها الا ليتعب بالي.

كان يضحك وتضحك هي لضحكه ومزاحه، تخيل ان قرار تأسيس الحزب حسب وجهة نظرها قد اقترن بسبب رئيسي "تكاية بام كنعان ولارهاق حياتها معه فقد قررت حركة القوميين العرب تاسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين"!!.

بدأت تتقن تعاملها مع حياته، مع بيوته عندما تأتي مع من يتكفل باحضارها. ما تحضره من صررها، ما يحتاجه وما لا يحتاجه... وضعت كيس صررها وبادرت تلهث:-

- كيف تعيش في الانتفاضة، لم يبق بيت الا ودخلوه.
- بيتي لن يدخلوه فدعائك سنة ١٩٨٢ [رح يا بني الله يرضى عليك] يعمي عيونهم عن بيتي. هل ستستمرين بترديده كما اتفقنا؟
- دائماً ادعي لك، ليل مع نهار. قالت ذلك وكادت دمعة تفلت من قيدها.
- بيتك هذا غير مناسب، الامعري بجانبك يلزمك بيت اخر. انت لا ترى ما يجري الشارع؟
- اعرف تفاصيل التفاصيل، الرفاق يروون لي. قاطعها.
- الحكي ليس مثل الشوف. الشباب شيبوا الجيش. المحلات عند الحادية عشرة تماماً تغلق، الجيش يفتحها والشباب يغلقونها ثم يعودوا لفتحها، تبقى مفتوحة ولا احد يقترب منها. المصيبة في غزة، وما يجري في غزة لا يجري في أي مكان. الضفة جيدة ولكن غزة -وصمتت برهة- غزة مصيبة.
- هو الفقر والمعاناة يخلق التمرد وهذا ينتج شعباً شديد البأس انظري من يناضل ويضحي في الشارع، ليس ابناء الذوات المدللين بل العمال في المخيمات والقرى، في رام الله انشط الاحياء، البلدة القديمة، الامعري، قدورة، في البيره الحارة الشرقية .. هؤلاء العمال هم جماعتنا.

علق على "تقريرها الاخباري" فهزت راسها موافقة. كانت الانتفاضة علمتها بعض الاشياء، شأن الشعب باسره، فالناس تتعلم بتجربتها الخاصة اكثر بكثير مما تتعلمه من الدعاية و التحريض. ذلك اليوم ما طغى على حديثها كعادتها، اخبار العائلة، الجيران، الذين ما اهتم كثيراً باخبارهم، الذين من الطبيعي ان تهتم هي بهم [فلانه خطبت فلان، الجارة العلانية سافرت، القريب الفلاني اختلف مع العلاني]. ذلك اليوم كان حديثها سياسياً وهذا اراحه إلى حد ما من الاسئلة حول شؤون حياته، من استجواباتها، ملاحظاتها التوجيهية والزجرية، لكن حظه العاثر ابى الا ان يبعث التكدر في مزاجها ليتكدر هو الاخر ليخرج من دنيا السياسة والانتفاضة فيعود لعالمها، عالم اهتماماتها الأمومية التفصيلية. كان اتفق معها في الزيارة السابقة ان تصنع له "كبه". طلبت منه ان يحضر لها موادها واهمها البرغل وينقعه بالليمون من الليل.

- يا الله هات البرغل. هل نقعته بالليمون كما قلت لك؟. صمت خجلاً ثم قال آسفاً:
- نسيت ان انقعه. امس كنت مشغولاً وسهرت ولم اصح الا منذ نصف ساعة. النقع الآن سيؤخرك، لنؤجل المشروع للزيارة القادمة.

- لن نؤجل، هناك وقت. هات البرغل بسرعة. مثلما تتذكر الحزب وشغلك تذكر حالك واكلك.

وقررت ما هو متوقع! فحتى لو اضطرت ان تؤخر نفسها لساعات فيثار حول تاخرها أسئلة في البيت، فلن تترك وكره حتى تصنع له ما طلب. تناول كيساً من الخزانة وناوله لها؟

- خذي! ماذا الان؟ اللحم والصنوبر جاهز. هل افرم البصل؟
- ضع اللحمة على النار مع البصل المفروم وقلبها بالزيت. لا تكثر من الزيت فسنقليه به هكذا اخف على معدتك.

قالت وهي تفتح كيس البرغل. فجأة وضعته بحدة على الطاولة ووجهها يتفجر بملامح الغضب؟

- هذا سميد وليس برغل. سميد الكبه تحتاج لبرغل نسيت؟ شغلتنا طوال عمرنا في القمح، نسيت؟

ماذا ظل له ليقول، الغباء ركبه. لقد صنع برغل الكبه على ماكينه الجرش مئات المرات في حياته. أي ورطة وضع نفسه بها؟ ضحك من الموقف ولم يجد سوى المزاح للتغطية على خيبته امامها

- وهل انا طباخ في "شارع الحمراء" حتى اعرف ان "الكبة اللبنانية" تحتاج لبرغل وليس سميد؟ كله قمح والسلام.
- برغل، برغل يا بني برغل. وضربت كفاً بكف!.
- لن اموت قريباً، على الاقل حتى زيارتك القادمة بعد اسبوعين، ساحضر برغل.

تطلعت غاضبة لذكره الموت. ما ضيعت زيارتها سدى. اخذت السميد وصنعت منه "حلاوه بالسميد"، لم ياكلها منذ عشرين عاماً، فقد كان نسيها تماماً ونسي كيف كان وهو طفل يظل يلح على امه كلما رأى البائع ينادي عليها وهو يحمل طبقها الكبير فوق راسه، يلح طالباً قرش ليشتري قطعاً منها. اكل بلذة وعلمته كيف يصنعها فاضاف لخبرته خبرة جديدة.

- سهلة ولا تستغرق اكثر من ربع ساعة، دسمه وتملئ المعدة.

تغديا معاً مما كان يحتفظ في ثلاجته سمكاً مجمداً محشياً باللوز والثوم ... تحدثا عن الانتفاضة وسره حين قالت:

- والله انتم نشيطون، مسيراتكم كثيرة وشعاراتكم على كل الجدران.

عبث شعرها بيديه مداعباً كما ايام زمان حين لم يكن يطيب لها الا ان يعبث شعرها، ذكرته عند الباب وهو يودعها معانقاً:

- برغل وليس سميد. سجل على ورقة ولا تنسى. مثلما تذكر قضايا الحزب وتسجلها على قصاصات ورقك سجل معها برغل كي يحضروه لك.
- طيب ساسجل مع قضايا الحزب على ورقة برغل. اعتقدته يساير ها ولن يفعل.
- تضحك علي ها؟ قالت معاتبة.

- بشرفي الحزبي ساسجل مع قضايا الحزب على ورقة برغل، هذا وعد رجل!

فرحت وخرجت متلما اتت! دققت قبل ان تدلف من الباب ترتدي نظاراتها الشمسية وتلف راسها بالمنديل الغريب. راقبها وهي تعبر الشارع وتنهد.

آه يا حجه – تسحبينني سحباً لعالمك، لعالمي قبل ٦ سنوات!.

اغلق الباب وتوجه سريعاً ليبر بوعده لها. اخذ قصاصة ورق من قصاصاته العديدة، كان كتب عليها رؤوس اقلام تتعلق بعمله وتحت بند "قضايا لجان المقاومة الشعبية ل.م.ش" كتب: ٢ك برغل بلدي. فرضت باصرارها الذي يعكس رجاؤها منطقها. البرغل كقضية هامة مثلها مثل الانتفاضة، الحزب، العمل الثوري، بل لو تسلل احد إلى راسها ليقرا تفكيرها الاكثر صراحة وبدون رتوش لبقة، صراحة لا تصدر الا عن حنان ام طالما تعلق الامر بابنها لقرأ ان البرغل اهم من العالم حينها! للحياة منطقها وللام منطقها، اذ كان منطق الأولى يدوس مَنْ يقف امامه دون رحمه أو مراعاة، لكن في لحظة ما هناك مَنْ يعاند ولا يتزحزح ولا ينزاح من طريقة ذلك هو منطق الام الذي يبدو وكانه يعاند منطق الحياة، لكن بالنهاية تكتشف انه هو بالذات منطق الحياة.

بعد شهور على اندلاع الانتفاضة وعند التاسعة والنصف في يوم ما فيما كنعان يتابع التلفاز رن الجرس الكهربائي، تطلع لساعته بقلق. لم يعتد ان يستقبل احداً في الليل الا اذا كان قد رتب له موعداً سابق، اما غير ذلك فانه وضع طارئ: الله يستر. ماذا يكون جرى حتى ياتوا بهذه الساعة. فتح الباب فدخل رفيقه.

- مساء الخير. ازعجك رنين الجرس في هذه الساعة ها. اطمئن، القضية ليست خطيرة ولكن الاحسن رحيلك الليلة قبل الصباح.
- خير ماذا جرى حتى نضطر للتحرك في الليل وفي ظرف كهذا.
- هذا الحي كما تلحظ نشط ومعلوماتنا ان هناك معتقلين لتنظيمات تمتلك بيوتاً سرية قد ينكشف هذا في التحقيقات وبالتالي يزداد الخطر من حولك. لدينا بيت جيد لك في حي لن يعرف الانتفاضة حتى لو استمرت مائة عام.

كان فعلاً حياً نشطاً وما سكنه الا مؤقتاً لحين تجهيز بيت جديد. تكثر في الحي الحواجز الحجرية واشعال الاطارات وكتابة الشعارات كما تتكرر فيه الاجراءات الاحتلالية التي كانت تقترب منه ليفلت منها كل مرة بالصدفة وبالتأثير غير المرئي لدعاء امه سنة ١٩٨٢ كما كان يقول في كل مرة ينسل فيها من صدفة سيئة. في احدى الليالي وفي الاسابيع الأولى للانتفاضة التقطت اذناه الاصوات المألوفة المستفزة للاعصاب، اصوات السيارات العسكرية، كانت قريبة جداً من وكره لدرجة سمع فيها الطرق على الابواب ومناداة السكان بالزعيق والصياح

للخروج السريع من بيوتهم. كان الجيش يقوم بحملة مسح للشعارات من على الجدران وهي حملات اعتاد القيام بها اسبوعياً واحياناً يومياً. الصدفة وحدها جعلتهم لا يقتربون من وكره والا كانت ورطة حقيقية فهو لن يفتح بطبيعة الحال وهم نادراً ما يسلمون لحقيقة عدم فتح الباب، الا انه لم يكن يملك مفراً داخل وكره. بعد ساعتين نفذ الجنود مهمتهم ورحلوا. انسل من وكره ليرى جدرانه وقد مسحت شعارات عليها باللون الابيض فظهرت الشعارات باللون الاحمر تقريباً واضحة وتحتها الاحرف الأولى لتوقيع (ج.ن.ش.ف) أي جبهة النضال الشعبي الفلسطيني [هل ضاق الوطن وجدرانه حتى تكتب جبهة النضال على جدران بيتي!؟ من اين جاءت جبهة النضال هنا؟] كان غريباً حقاً ان يكون الشعار موقعاً باسم جبهة النضال فهي من الناحية الفعلية والرسمية غير موجودة كقوة في الوطن سوى أفراد مبعثرين هنا وهناك لا امل لهم بان يشكلوا قوة سياسية نتيجة ثقل التنظيمات العريقة. بعد ذلك اشترى دهاناً ابيضاً وكان كل ليلة ينسل فيتطلع لجدار وكره؟ ما ان يكتب عليه شعاراً يمسحه وما ردعه عن سلوكه هذا (المعادي) الشعار التحذيري الذي كتب مرة [الويل لمن يمسح الشعار الوطني]!!

خلال ربع ساعة وصل وكره الجديد. وفي اليوم التالي ليلاً كانت قوة عسكرية تدهم عدة بيوت في الحي لنشطاء في حركة فتح والحزب الشيوعي. من يقنعه بعد ذلك ان ليس دعاء امه سنة ١٩٨٢ مع "القواعد، الاجراءات، التطلبات، والتحوطات" هو الذي انقذه مما كان يمكن ان يقع به .... بل الصدفة؟!!

وكره الجديد كان يجمع مواصفات استجدت فيما يجب أن يتوفر في بيوت التخفي بعد الانتفاضة؟ غير قريب من خطوط المستوطنات التي تشكل هدفاً لمجموعات الشباب. بعيد عن الانشطة الشبابية ما امكن. لا يفطن بقربه نشطاء لتنظيمات سياسية أو قريب من بيوت سرية لمطاردين بعيداً عن اماكن تصلح كمائن ينصبها الشباب للدوريات وسيارات المستوطنين. كانت الانتفاضة تضيف شروطها لقواعد الحياة السرية وعليه ان يستجيب سريعاً دون تباطؤ فالتطور لا يرحم بل يدوس من لا يتطبع وفق منطقه.

عند الساعة السادسة مساءاً كان انهى عمله ذلك اليوم لقاءً سريعاً، عمل كتابي لساعتين أو اكثر قليلاً، قراءة بعض الاوراق والتعليق عليها بسرعة تمهيداً لمعالجتها لاحقاً. اتلاف ما يجب اتلافه من الاوراق حرقاً. سمع نشرة للانباء عند الخامسة مساءاً، كان الحدث الابرز هو النقاشات المستفيضة في اروقة المجلس الوطني المنعقد في الجزائر حول وثيقتين اساسيتين كانتا تشغلان تفكير واهتمام شعب الانتفاضة وتنظيماته منذ اسابيع. الأولى سميت [مبادرة السلام الفلسطينية]

والمتضمنة الاعتراف بالقرار ٢٤٢ والذي لا يعترف بقضية فلسطين كقضية سيادية بل كنزاع حدودي لا غير بين الدول العربية واسرائيل اما الثانية فهي وثيقة اعلان الاستقلال التي نظر لها باجماع شعبي كاستثمار للانتفاضة لتاكيد الحقوق السيادية للشعب فوق وطنه امام العالم وان خدمت كتحصيل حاصل ملء الفراغ القانوني والاداري الذي خلقه القرار الاردني المفاجئ دونما تنسيق مسبق مع م.ت.ف بفك الارتباط القانوني والاداري بالضفة الغربية. كان الحزب صوّت ضد "مبادرة السلام" وسعى بالحد الادنى لتشكيل اقلية كبيرة ضدها معتبراً اياها تتضمن تنازلات مجانية ومثابة استثمار سريع للانتفاضة فيما دعم اعلان وثيقة الاستقلال وان قبل على مضض ان يكون قرار التقسيم ١٨١ الاساس القانوني لاعلانها اضافة للاسس الشرعية والتاريخية والوطنية. ادار مفتاح تشغيل التلفاز، بحث عن المحطات، المختلفة، لم يجد شيئاً يستحق المشاهدة في تلك الساعة من البث. ادار مفتاح المذياع فما عثر على ما يفرغ توتراً في داخله. استقر رايه على سماع مارسيل خليفه فوضع في المسجلة شريط واصغى:

منتصب القامة امشي مرفوع الهامة امشي
في كفي قصفة زيتون وعلى كتفي نعشي!

صدح المغني بانشودة سميح القاسم الحماسية وهو عند النافذة يتامل الحي الذي يقيم فيه. ما عرف ذلك الحي الذي يقطنه منذ خمسة شهور، الانتفاضة بالمعنى الحقيقي المباشر للكلمة. انه حي تقطنه عائلات ثرية، الانتفاضة بالنسبة لها كما اعتقد من مراقبة سلوكها هو اغتنام ايام الاضراب الشامل بعد ظهر كل يوم للالتقاء في حدائق منازلهم الفخمة، امام مواقد اللحم المشوي يكرعون الخمر. [حتماً يريدون وطناً]! كان يؤكد وهو يتطلع لهم من نوافذ منزله، [ولكنهم يريدون من غيرهم ان يناضل ويضحي لانتزاعه ليستلموه هم، وان لم يستلموه سلماً سيمتشقون السلاح للتسيّد فيه]. نادراً ما كان شارع الحي يغلق أو يسده اطار مشتعل لذلك كانت الدوريات العسكرية لا تعبره لذا اعتبره كنعان حياً نموذجياً للحياة فيه لرجل التخفي فلا سكان يحشرون انفسهم ولا تحركات انتفاضية تخلق جوّاً من المصادمة. بجانب المبنى الذي يقطن شقة فيه على الطبقة الرابعة وسط الحي، كان هناك حقل واسع تعود فلاح بسيط ان يزرعه صيفاً وشتاءً. لم يكن نشيطاً فحسب بل عنيداً لا يقيم وزناً لتطلبات ملاصقة حقله لمنازل الاثرياء. في موسم الحصاد جمع سنابل قمحه حزماً حزماً ثم اخذ بمعاونة بغله الضخم "يدرس" القمح وسط مفترق الطرق المؤدي لمنازل الحي باكمله. بعد ان انهى "درس" ذرّاه واخذ يجمعه بالاكياس، كانت النتيجة انه قطع الطريق على السيارات الفاخرة التي تمتلكها تلك العائلات. راقبه كنعان حينها معجباً بتصرفه، متأملاً بتلك التركيبة الغريبة، من جهة حي

بورجوازي يسكنه كبار الرأسماليين في المدينة ومن جهة ثانية فلاح وسط الحي يعمل كأنه على بيدر القرية.

في ذلك اليوم صبت السماء جام غضبها منذ الصباح امطاراً وبرداً مصحوباً بومضات برق يتبعها رعود، كان الشتاء ما يزال يحبو في اواسط تشرين الثاني سنة ١٩٨٨ ومع ذلك لم تبخل السماء على سكان فلسطين خيراً، الامر الذي ادى لاكتساء الحقل والمفترق والشوارع الفرعية بالبَرَدْ الابيض كطبقة جميلة فيما شجرة تين هرمة تنصب وسط الحقل وحيدة عارية من اوراقها تقاوم برد الشتاء ورياحه لكن جذعها الصلب كالطود يقف ولا يتحرك اذ ان شروشه تمتد عميقاً في الارض. **[لو كنت رساماً لرسمت لوحة طبيعية للحقل الابيض وشجرة التين] حدث نفسه متاملاً جمال الطبيعة امامه مركزاً ناظريه على الشجرة [حالنا مثل حالك. تضربين جذورك في الارض، تمتصين الماء منذ الآن حتى الربيع فيحن أوان اوراقك لتظهر وثمارك لتطرح. يجب ان تنتظرين فعل الزمن كي ياخذ مداه ويفعل فعله. نحن كذلك منذ سنين وسنين نضرب جذورنا في تربة الشعب نمتص منه تجربته الثرية، ثوريته. ستنبت اوراقنا يوماً وسنطرح ثمارنا. كل شيء في اوانه جيد. حكمتنا الشعبية قالت هذا، سياتي اوان قطف ثمار نضال شعبنا وها قد بدات اوراقنا بالظهور. سياتي اوان قطف ثمار عملنا الثوري، فيسود الكادحون والشغيلة فوق وطنهم. للزمن والتجربة منطقهما، ست سنين وانا في التجربة تتقاذفني من وكر لآخر كالخباز يلعب بقرص العجين بين يديه قذفاً يرققه ويدسه في بيت النار. سنين وسنين بشهورها واسابيعها وايامها، بدقائقها وثوانيها، وتناقضاتي تحسم في داخلي لخيار النضال المحترف، خيار التخفي. يا لهذا الزمن، يالهذه التجربة!! الا اشد ما يتحمل الانسان، الا ما اكثر ما تصنع منه التجربة بعدما يهبها نفسه دون تردد، يدير ظهره لما سبق ويصيح بملء فمه، هاك ذاتي وكياني وفكري ونفسيتي اعيدي التشكيل كيفما شئت فانا اهبك كل شيء ... انت رحم امي الثاني اطعميني، اسقيني، ضخي الدم لشرايييني والهواء لرئتي ...]**

تنبه للوقت فانقطع حبل تامله، تطلع لساعته فاذا بها تشير إلى دقائق قبل السابعة، موعد نشرة الاخبار التفصيلية من اذاعة مونت كارلو. اوقف المسجلة وادار المذياع موجهاً المؤشر ناحية الرقم ١٢٠٠. انتهى المقطع المخصص للاعلانات فجاء الصوت المألوف لعرفات هادراً:-

[اعلن باسم شعب فلسطين قيام دولة فلسطين فوق ارض فلسطين] فجأة وكان الصوت يؤذن ببدء طقس الفرح الشعبي المجنون بسعادته، انطلقت في السماء مئات الالعاب النارية، الزغاريد، الصيحات والهتافات وكل ما يمكن ان يصدر من حنجرة انسان. انطلق الشعب ذاك اليوم وما تخلف حي الاثرياء. احس بالبهجة

تغمره! لا يملك ان يصيح مثلهم، يهتف، ينادي بشعار، بهتاف، لا يملك العاباً نارية يطلقها تعانق السماء، مشتعلة، فرحة، كل ما يملكه، ان يقول بينه وبين نفسه: [انا معكم، فرحتي فرحتكم، انا منذ سنين اندس هنا واناضل مع الحزب والشعب من اجل يوم كهذا من اجل ايام اخرى ننتظرها. كيف احتفل معكم؟]

دون كثير تفكير توجه للمسجلة ووضعها عند حافة النافذة. أعاد الشريط إلى حيث توقع الاغنية. رفع الصوت إلى اعلى مدى ممكن.

منتصب القامة امشي مرفوع الهامة امشي
في كفي قصفة زيتون وعلى كتفي نعشي!

شارك بطريقته في فرحة شعبه. بَرَدُ يتساقط، ارضية مكسوة بحلة بيضاء، العاب نارية، ضجيج شعب فرح، مارسيل خليفة يغني وليلُ تزيّن بشرارات ملتهبة وبَرْدُ شتاء اخلى مكانه لدفء السعادة المجنونة، وهو هناك عند نافذته لا يبارح تفكيره سوى حقيقة ان نضاله، تعب سنيه بدأ يثمر، عمله المنمنم منذ سنين والاف المناضلين بدأ يؤتى ثماره. كان يحيا حقيقة ان خياره بالنضال المحترف من اجل الشعب كان صحيحاً بالمطلق. اتخذت الانتفاضة اندفاعة جديدة باعلان الاستقلال. كان الشعب يرى في اعلان الاستقلال ليس فقط استثماراً لنضاله البطولي منذ احد عشر شهراً وهذا صحيح وليس فقط الرد الطبيعي على فك الارتباط القانوني والاداري الاردني بالضفة، وهذا صحيح ايضاً بل وايضاً راى في اعلان الاستقلال كخطوة نحو قيام الدولة على الارض وعبر الانتفاضة بفاعلياتها وانشطتها انذاك دون تطلع كاف لاهمية تطويرها وتصعيدها جذرياً وهذا كان وهماً نشأ ليس بفعل التوق المشروع للتخلص من الاحتلال وجرائمه فقط بل وبالاساس نتيجة للتعبئة السياسية التي درجت عليها القوى التي اعتقدت ان انتفاضة بهذا المستوى وذاك المنسوب ستقود حتماً لدولة مستقلة فتقدمت بشعارها السياسي الخطابي، شعار [الدولة على مرمى حجر]! كان الفكر السياسي الفلسطيني يقع في اول منزلقاته ويعيد صياغة وعي الشعب بما يضعف استعداديته.

لم يكن الحزب في الوطن خارج النقاش الدائر حول هذه القضية. بادر منذ الشهر الثامن لرفع شعار [الحرية والاستقلال] كشعار – هدف ناظم لحركة الشعب كي لا يجري حرفها في منزلقات لا تقود الا لما تقدم به شامير "حكم ذاتي". واضاف الحزب للشعار فهمه بان الانتفاضة محطة نوعية حولت الدولة المستقلة من الامكانية التاريخية إلى الامكانية الواقعية ولكنه لم ير لا في تعبئة اعضائه ولا

في مخاطبته للشعب عبر بياناته أو صحيفته السرية ان الانتفاضة ضمن هكذا مستوى ستقود للدولة بل اشترط تصعيدها وتطويرها لايقاع الخسائر بكافة انواعها بالاحتلال ليتحول لمشروع خاسر, وحينها يصبح صحيحاً النظر للانتفاضة كرافعة لبناء الدولة. في نهاية سنة ١٩٨٨ اصدر المكتب السياسي تعميماً داخلياً حول ذات القضية "الانتفاضة والدولة" اثار خلافاً واسعاً معه بين كادرات الوطن الذين راوا انه لا يربط بشكل كاف وصريح بين الدولة والاشتراطات المطلوبة لتطوير وتصعيد الانتفاضة لتقود اليها، فدُعيّ لاجتماع اللجنة المركزية وقدم فرع الوطن ورقته للاجتماع مما صوب الموقف السياسي من القضية في اوائل سنة ١٩٨٩. وما زاد الطين بلة هو تقديم التنازلات كما اعتبرها الحزب عبر ما دعيّ "مبادرة السلام" والتي قدم فيها المجلس الوطني الاعتراف بقرار ٢٤٢ كاساس للحل دون كافة قرارات الامم المتحدة والتي تنص على حق الدولة والعودة وتفكيك المستوطنات والانسحاب من القدس والحماية الدولية. لم ينفع المبادرة الحاق جملة "تقرير المصير" بقرار ٢٤٢ فالقضية كانت في ان الانتفاضة لم تبلغ بعد مستوى تتطلب فيه استمرارها سياسياً بل كانت تتطلب معالجة مشكلاتها لتوفير مقومات تصعيدها اكثر. لقد وقعت القيادة الرسمية م.ت.ف اسيرة الدعاية الاسرائيلية من ان الفلسطينيين لا يتقدمون بمبادرات بل يرفضون دائماً ما يعرض عليهم، مع ان العقلية الاستعلائية الاسرائيلية ما كانت تطرح في اوج تعاطيها السياسي مع الانتفاضة سوى حكم ذاتي. كأن على الضحية ان تبادر لتقديم مشاريع لاقناع القاتل–المجرم بعقلانيتها، لا ان تجمع مقومات الرد على تعديه عليها ولانتزاع حقها من بين انيابه! هكذا رد الحزب على المبادرة.

كانت الانتفاضة في اوجها وافاق تطويرها وتصعيدها قائمة وبرنامج القيادة الموحدة للفعاليات يلتزم به حرفياً من الشعب. مقاطعة البضائع الاسرائيلية التي لها بديل محلي واستصلاح الارض والعودة للاقتصاد المنزلي التقشفي تسير على قدم وساق، امتداد شبكة اللجان الشعبية وكافة أشكال التنظيم الجديدة في كل مواقع الضفة والقطاع والقدس، ظاهرة المطاردين كظاهرة شعبية تتوسع اكثر فاكثر ومن رحمها تنشا ظاهرة المطاردين المسلحين ومجموعاتهم [مجموعات الصقور، الفهد الاسود، النسر الاحمر، كتائب عز الدين القسام، النجم الاحمر] عدم دفع الضرائب شبه كامل واخيراً فالاشتباك يومي وشامل في كافة مواقع الوطن، كانت الانتفاضة في عنفوانها فيما الخلاف السياسي بدأ يضعف جبهتها الداخلية حتى كانت نهاية سنة ١٩٨٩ فاذا به يتهددها نتيجة عزم م.ت.ف على الحوار المباشر مع الاسرائيليين بوساطة مصرية في القاهرة دون ان تقدم اسرائيل شيئاً سوى الحكم الذاتي.

الحزب في الوطن انهمك بمنظماته واعضائه في الانتفاضة وعبر كافة الاشكال والادوات التنظيمية التي افرزتها ابتداء من لجنة الحي وصولاً للقيادة الموحدة. لقد بذل جهد اساسي سنة ١٩٨٨ على الصعيد التنظيمي على ثلاث جبهات، الأولى في سرعة تشكيل الادوات التنظيمية الجديدة التي تتناسب والوضع الانتفاضي [لجان المقاومة الشعبية، كتائب الشهيد غسان كنفاني، مجموعات النسر الاحمر] والاخيرة نشطت شمال الوطن وفي قطاع غزة فلمعت سريعاً اسماء شهدائها مثل [علم الدين شاهين، أبو عرب ومصطفى جوابره وعلي سوالمه وايمن الرزه ....] لقد بُنيت تلك الهياكل على حساب المنظمات الديمقراطية للعمال والطلاب التي لم تعد كمنظمات للعمل النقابي تلائم متطلبات الانتفاضة. حُسم النقاش الداخلي مع الذي كان يرى في بناء هياكل جديدة، اضعاف للمنظمات الديمقراطية التي بُذلت جهود سنين لبنائها، كان موقفاً جمودياً لا يدرك ضرورة تغيير الشكل التنظيمي تبعاً لتغير ظرف النضال والمهام، لا يدرك ان شكل التنظيم يتبع المهام. على الجبهة الثانية التحرك بسرعة لمعالجة التقطعات في هيكل الحزب نتيجة اعتقال المئات من كادرات واعضاء الحزب ولجوء العشرات منهم للمطاردة. كان يجب ان لا يسمح الحزب بانقطاع الصلات الحزبية بما يؤثر سلباً على مهام الانتفاضة وبناء منظمات جديدة والتوسع الحزبي. اما على الجبهة الثالثة فهي التمدد في عشرات المواقع الجديدة التي لم يكن الحزب قد تواجد بها قبلاً، لا تنظيماً ولا جماهيرياً.

لقد كان من الاهمية بمكان معالجة القضايا الثلاثة للشروع بحل مهام التوسع التنظيمي والجماهيري ولتوظيف امكانيات اكبر في الفعل الانتفاضي. ما ان انتهى عام ١٩٨٨ حتى كان الحزب قد حل بنجاعة مهامه الثلاث وحقق توسعاً في الوطن يناهز ٧٠% من العضوية الحزبية فيما دور الحزب غدا دوراً رئيساً في الانتفاضة وعلى كافة مستوياتها، وقيادياً في العديد من المواقع. لقد كانت الانتفاضة قد شرعت تحول منظمات الوطن إلى ثقل سياسي وجماهيري وكفاحي ليس على مستوى الحركة الوطنية بل داخل الحزب عموماً مما سيكون له اثره على ثقل الارض المحتلة على قرار الحزب العام لاحقاً.

سنة ١٩٨٩ يتدخل تاريخه الشخصي كانسان باعتباره شهد حادثاً هاماً في حياته، سمع كنعان ان شقيقته الكبرى تزور البلاد، كان لمقدمها وقع خاص اذ لاول مرة منذ حوالي ثلاثين عاماً تطأ قدمها ارض الوطن. عمر هجرتها من عمره لذلك لم يرها ولم يعرفها مطلقاً فقط حفظ ملامحها من صورها. سمع عنها الكثير عن

طيبتها وبساطتها، عن كونها اماً ثانية لاشقائه، عن مخططاتها سنوياً لزيارة الوطن والتي كانت تتعثر اخر لحظة في كل مرة نتيجة حظها العاثر.

اختي الكبرى هنا، لا اعرفها اصلاً، سالتقيها فما رايكم؟ لا يمكنني الجزم في آن المستقبل قد يوفر فرصة كاليوم. خاطب الحزب وهاجس يسيطر عليه، قد لا يرى احدهما الاخر لسبب ما، فهل يعقل رغم كل حساباته السرية آن لا يلتقي ويتعارف اثنان حملهما نفس البطن وارضعهما ذات الثدي؟ جاء رد الحزب كما توقع [حسناً. طبيعي ان تراها. رتب المسالة والاهم ان تفهمها جيداً حقيقة حياتك كي تصون سرها. دقق هنا فهي غريبة عن عالمنا، ليست مثل امك!]. امي تتكفل بترتيب ذلك وهي خير من يقوم بافهامها حقيقة وضعي من جهتي، لن اضيع بضع ساعات منفعلة من اللقاء لشروحات حول السرية والتخفي وقواعدهما. علق كنعان وبعث لامه ان تحضرها.

عند التاسعة صباحاً رن الجرس حسب ما هو متفق عليه. علا وجيب قلبه وغزاه الاضطراب. منذ ايام لم يكف عن التفكير كيف سيكون اللقاء، كيف ستكون المشاعر. لم يفكر في حياته السرية حتى في تاملاته، في احلام يقظته انه سيلقاها في هكذا ظرف. تركته وهو ابن ٦ يتعلق بثدي امه – يلتقيها الآن وهو رجل صاحب تجربة عاشها بطولها وعرضها، نضالا وتحدياً. كانت دائما مهتمة باخيها –ابنها الصغير، تخصه بهداياها التي جعلته يتعلق بها بشكل خاص. كان يلح عليه سؤال [كيف ينادي عليها؟]. توجه للباب وفتحه فتلقفته بين ذراعيها قبل امه تقبله وتبكي وهو ينصاع لرغبتها الامومية. كانت ترتجف وشفتاها تلثمان خديه ويداها تتحسس راسه وكتفه وظهره وصدره كأنها ضريرة تكتشفه برؤوس اصابعها.

- آها هل تاكدت منه. انه هو بلحمه وشحمه. يكفيك اعطيني اياه؟

سالتها امه ساخرة وهي تلهث من اثر الصعود للطبقة الرابعة ثم وجهت حديثها اليه بعد ان مارست هي الاخرى رغبتها الامومية وبعد انتظار ثوان لتحقيقها.

- منذ ان بعثت اليّ لاتي بها وهي تنقر براسي. يعني رجل بطول وعرض؟ اخيراً ساراه واقبله.

تبسم كنعان. هي الاخرى قالت ذلك بينها وبين نفسها حتماً قبل لقائها الأول به، اما الآن فهي تظهر اعتياداً على حياته وتجربته بعد طول معاناه، اعتياداً للدرجة التي تسخر من اخته.

- الحياة التي اعيشها وقبلها تربيتك صنعت مني رجلاً بطوله وعرضه.

خاطب امه ولف ذراعه حول اخته محتضناً.

- هل تاكدت من ذلك؟ طولي مثل ابي ووجهي مثل امي يعني ليس عندي شيء من خارج العائلة الكريمة، انما ليس فيها من اصيب بالجنون مثلي!

كانت شقيقته نسخة طبق الاصل عن ابيه يراه برؤيتها وبعد سبع سنوات من وفاته، وجهها، دموعها التي تنساب سريعا بمناسبة وبدون مناسبة، طيبتها، جنانها، بساطتها وانصياعها دون تبرم. سالته عنه كل شيء انما دون استجواب شان امه، ربما لأنها لم تعد تمارس امومتها معه بعد أو لطبيعة غير مشاكسة فيها ولانها اخيراً ما تمكنت من هدم حاجز الاخوة بينه وبينها. امه مارست استجوابها التقليدي عبر سلسلة لا تنتهي من الاسئلة حول تفاصيل التفاصيل في حياته، مأكله، مشربه، نومه. تسأل كل مرة تأتيه وكل مرة تنال نفس الاجوبة لتعود من جديد لنفس الاسئلة. الام هي الوحيدة في العالم التي لا يمكنها ان تشعر بملل تكرارها لذات الاسئلة والملاحظات والزجريات والنصائح التي تتعلق عادة بحياة ابنها وان تخلت عن ذلك تتخلى عن امومتها وحينها يعادل هذا كما لو ان الشمس قررت فجأة ان لا تظهر صباحا أو تتوقف مكانها عند الظهر.

اتخذت شقيقته موقعها بجانبه طوال ساعات زيارتها. تنازلت امه عن حقها هذا مع تبرم داخلي ظهر في ملامحها وان لم تقله. كان اعد لهما طعاما للغذاء لكنهما كانتا خططتا لشيء اخر، احضرتا معهما ورق العنب لحشيه بالارز اما شقيقته التي ما كان يحتمل ان تاخذ موقعها في العمل في زيارتها الأولى فقد شرعت هي الاخرى بالعمل منصاعة بفرح تحت قيادة امه. اغرب طريقة للف ورق العنب رآها انذاك؟ كانت شقيقته ترتب الورق على كل الطاولة ثم بسرعة ملحوظة تضع الحشية على كل ورقة ثم تاخذ يداها المدربتين الاشبه بماكينة تعبئة بلف الاوراق بسرعة قياسية يصعب متابعتها:

- في لف الورق تجمعين بين الاصالة الشعبية وتقنية العمل الصناعي. هل عندكم مصانع للورق في امريكا؟. قال وضحك وهو يرقبها، معجباً بالماكنة البشرية.

بعد ساعات من مكوثهما رحلا بعد توديع اكثر حرارة من حرارة اللقاء وعقب حفنة توجيهات -ما انتبه لاكثرها- اعتيادية من امه على عتبة الباب.

كان شهر مضى على اعلان الاستقلال والنضال يشتد اكثر والفرحة لا زالت عارمة. عند الخامسة والنصف صباحا في احد الايام الكانونية، نهض من النوم على غير عادته في هكذا وقت، حاول ثم حاول فما استطاع ان ينام -جفونه لم تطاوعه. تناول قطعة من الخبز المغموس بالزيت والزعتر ثم حمل كاس الشاي والسيجارة ووقف عند النافذة يتأمل الفجر ويدخن فيما المذيع يتحدث دون ان يعيره انتباه. كانت فعاليات الحزب حينها في اوجها على شرف ذكرى انطلاقته. بذلت جهود تنظيمية هائلة لجعل المناسبة مناسبة نضال متنوع الاشكال، وما ساعد على ذلك هو الظرف الموضوعي الذي تمثل بان الانتفاضة كانت تعيش اوج فعالياتها

وان بدت بعض مظاهرها تخبو قليلاً [تراجع الحشد الجماهيري في الميدان، توقفت مقاطعة مكاتب السير، تراجع العصيان على دفع الضرائب] فيما من جهة اخرى تصاعدت بشكل خاص ظواهر المجموعات المسلحة، وخاصة مجموعات الفهود السود والصقور، والنسور الحمر.

حوالي السادسة لمح طفلاً صغيراً يعبر الشارع وتحت ابطه لفة جرائد موضوعة بكيس من النايلون اتقاء من المطر الذي يهطل رذاذاً. فتح النافذة وصفر، تطلع الطفل فأومأ له بالصعود. كان يقف عند الرصيف بهيئته البائسة.

- ادخل تشرب الشاي وتدفئ معدتك ثم تنزل.

كان يريد شراء جريدة "القدس" فحسب ولكن منظر الطفل بعث الشفقة في نفسه. يرتدي معطفاً رثاً لا يقيه من برد ولا من مطر وعلى رأسه كيساً من النايلون هو حمايته الوحيدة من طقس كانون الأول. يدس احدى يديه في جيبه والاخرى تحمل اللفة. ملابسه مبللة من كيس راسه حتى حذائه المهترئ فيما ارتعاشه البرد متأصلة في اطرافه كما لو كانت طبيعية فيه. اما نشاطه الباكر فما طرد بعد بقية من نعاس تظهر حول عينيه الصغيرتين.

- سأتاخر عن البيع. رد مترددا. فيما لاحظ كنعان في لهجته خشية من آن يخسر المنافسة على بيع بضعة جرائد في الصباح الباكر.
- لن اؤخرك تشرب الشاي وتخرج ثم انني اريد ان اتفق معك على صفقة ستنفعك، انا اريد الجريدة كل يوم. ادخل. ادخل.

كان رفاقه يؤمنون له الجريدة ولكن ليس يوم صدورها بل عندما يمر احدهم. كان يذكرهم غاضباً باهمية الجريدة له عندما ينسون احضارها ولكن دون اسهابات زائدة في الحديث. الآن اتيحت له فرصة ان ينهض من النوم ليبدأ بمطالعتها وذلك اعتبره مكسباً حقيقياً.

- ما اسمك؟.

بادره كنعان اذ جلس لطاولة المطبخ بعدما وضع ابريق الشاي على الطباخ واشعل المدفأة ووضعها بالقرب منه.

- محمود!
- من اين؟
- من الامعري.
- كم عمرك؟
- ٨ سنوات وثلاثة اشهر.

رد كعادة الاطفال! تطلع اليه كنعان اسفاً على طفولته التي تجوب الشوارع في السادسة صباحا وتلعب دور الرجولة!

- اتربح كثيراً من بيع الجرائد؟
- يعني ليس دائماً نفس المبلغ.

كان تحفظ البائع وخجله قد حول الحوار لاستجواب اشبه باستجواب متهم امام شرطي.

- يعني كم؟
- حسب البيع، ليس دائما نفس المبلغ.
- لا تخاف فانا لن ابيع الجرائد لازاحمك، كم تربح تقريباً؟
- ٣٥ شاقلاً، مرات ٤٠. لما اعلن أبو عمار الاستقلال الشهر الماضي ربحت ٥٠ شاقلاً في ساعتين، من الخامسة حتى السابعة ورجعت للبيت.
- يعني اعلان الاستقلال افادك مالياً؟
- علق كنعان فيما بدا على البائع وقد تنازل عن تحفظه وان احتفظ ببعض خجله.
- نعم.

نهض كنعان ليضع له الشاي.

- الا تذهب للمدرسة.
- تركتها من يوم ما صارت الانتفاضة.

ناوله الشاي. اعد فطوراً ليفطرا معاً، خبزاً وجبناً ابيضاً وزيتاً وزعتر ومربى ولبنه.

- كُلْ!
- انا افطرت. لست جائعاً. نطق ببعض خجله.
- ستفطر، انا لم افطر، نفطر معاً، كُلْ.

رد عليه وناوله الخبز دون ان يترك له مجالاً للمناقشة.

- قل لي؟ لماذا تركت المدرسة؟

اخذ يأكل ويحكي قصته. كان جائعاً بل حسبه كنعان لم يأكل منذ اسبوع أو ربما هو جوع الفقر تحول عنده لجوع مزمن فلا يشبع حتى لو ملأ معدته. أكل من طبق الجبن الابيض اكثر من الاطباق الاخرى. كانت قصته تعكس ظواهر عديدة سمع عنها كناتج للانتفاضة، انما الآن يرى تجسيدها في قصة هذا الطفل البائس؟ اغلاقات متكررة للمدرسة، ابوه كان ترك العمل في اسرائيل ظناً منه ان قرار الموحدة بمقاطعة العمل في المستوطنات الاسرائيلية يسري خارج نطاق الضفة والقطاع! لعله خشي من شبان الانتفاضة يقررون سحب الحظر على العمل في اسرائيل فبادر للتوقف عنه. لمّا اوضح له جيرانه حقيقة قرار الموحدة قال:

- عند اليهود لن اعمل. يوم وعشرة لا. ان هربنا من حاجز الجيش نصطدم بحاجز الملثمين فنسمع كلاماً يقلل قيمتنا.

وهكذا اضحى عاطلاً عن العمل. الاخ اكبر (١٧ عاماً) والذي كان يساعد اباه في نفقات البيت يقبع الآن في السجن بعدما القي القبض عليه متلبسا بالقاء زجاجة حارقة على دورية عسكرية وهو مصاب برصاصة في قدمه مكنتهم من اعتقاله. ثلاثة اخوة اصغر منه واخت عمرها ١٤ عاماً والنتيجة المنطقية ترك محمود للمدرسة وانقطع للعمل ليعيل العائلة. طفل في الثامنة يعيل عائلة! كانت تلك ظاهرة انتفاضية بارزة حين تحولت الطفولة لرجولة مبكرة.

- هناك مدارس للتعليم الشعبي، اليس عندكم في المخيم واحدة -هز راسه بالايجاب- طيب داوم على حضور دروسها بعد ان تبيع الجرائد.
- كانت واحدة ولكنهم اعتقلوا الاستاذ.
- اعتقلوه لانه يعلمكم فالاحتلال لا يريدكم ان تدرسوا وتتعلموا لانكم ان تعلمتم تستطيعون النضال ضده احسن. جرب مخيم قدورة هناك مدرسة ايضاً.

هز راسه موافقاً واكمل طعامه، طعام الافطار والشاي الساخن ودفء المطبخ والحديث جعله ينسى نفسه. سأل

- كم الساعة؟
- السابعة والربع. نهض سريعا.
- تاخرت. الاولاد الآن يسبقونني على البيع.
- طيب لنتفق قبل ان تذهب. انا لا اصحو باكراً مثل هذا اليوم، طالما انك تمر من الشارع فاصعد ومرر الجريدة من تحت الباب، وكل يوم خميس ادفع لك عن اسبوع، الجريدة ٨٠ اغورة، اعطيك شاقل. في الاسبوع ٦ شواقل ساعطيك عشرة. ما رايك؟ هذا لانك ستتعب، يعني اجر لك. اتفقنا.
- اتفقنا. نبدأ من الغد.

لم يستمر الاتفاق لاكثر من شهرين، ففي احدى المرات لم يجد كنعان شواقلاً معه، فاعطاه ٥ دنانير اردنية كانت تعادل ١٨ شاقلاً.

- بدّل الاردني باسرائيلي وخذ العشرة شواقل والخميس القادم نتفاهم.

ذهب ولم يعد. اعتبرها غنيمة؟ بضعة شواقل (اقتنصها) فخسر ذلك الطفل –التاجر الفاشل- زبوناً دائماً؟ ام يكون اعتقل وهو يلقي بالحجارة على الجيش كهواية طفولية لا كنضال فحسب، ادمن اطفال فلسطين ممارستها؟ ربما. بل ربما يكون وجد عملاً ثابتاً في كراج تصليح سيارات أو في سوق الخضار حمالاً يخدم العجائز، أو خادماً في مطعم يمسح الطاولات ...

كان سمع مراراً عن "التكتيكات الحربية" لبائعي الجرائد الصغار مع الجيش عند دوار المنارة، العديد منهم يتزاحمون على تصريف نسخ جرائدهم في فترة ازدحام السير في الصباح يتصايحون ويتقافزون بين الناس والسيارات ينادون على جريدة "القدس"؟ وما ان تظهر دورية للجيش حتى يبدأون برشقها بوابل من

حجارتهم الصغيرة المخبأة في اكياس جرائدهم، فيسارع الجنود لاطلاق زخات من رصاص بنادقهم الآلية فيثار الهرج والمرج بين الناس المتراكضين إلى غير اتجاه محدد فيما تتعالى اصوات ابواق السيارات والمحلات التجارية تغلق ابوابها فيبدأ الجنود باعتقال من تطاله ايديهم من الشبان. اما اولئك المنتفضين الصغار من بائعي الجرائد فينسحبون بهدوء يتصنعون الهلع والخوف، يضحكون على ذقون جنود الاحتلال المخدوعين! ام تراه اعتقل مضبوطاً بتوزيع بيان للحزب أو جريدته السرية مثلاً؟ فكر كنعان قلقاً وقد تذكر ما سمعه من ان احد اعضاء الحزب اتفق مع اولئك البائعين ان يدسّوا بياناً للحزب بين صفحات جرائدهم التي يبيعونها كاحدى الابداعات الغريبة والتوريطية لتوزيع بيان سريّ!!

١٩٨٩ شهد نقطة تحول جدية في العمل الحزبي فعلى ضوء معطيات التوسع -والتي بلغت ١٠٠% نهاية ٨٩-والامتداد ودخول العشرات من المواقع الجديدة وبناء العدد الجديد من الكادرات التي تعمدت في ميدان العمل في الشارع والابداعات العديدة لمنظمات حزبية عديدة ورفع منسوب توزيع نشراته (البيان – الجريدة) كل ذلك دفع الحزب إلى رفع شعار التحول إلى قوة اولى، عبر وثيقة خُصصّت لشرح الشعار ومستنداته السياسية والجماهيرية والكفاحية والتنظيمية. كان الطموح كبيراً وتاريخياً اذ ان التحول لقوة اولى يعني بداية الطريق لاحداث تغيير نوعي في ميزان القوى السياسي–الطبقي في الساحة بما يؤسس لانجاز هدف تاريخي بان يمثل اليسار الثوري موقع القائد للنضال. كان واضحاً للجميع كما سجلت الوثيقة ان العامل الاكثر اهمية – الرافعة الاكثر اساسية لانجاح المشروع- الشعار يكمن في النجاح بانطلاق الحركة العصابية السرية المسلحة التي جرى شرحها في الرسالة الجيفارية في ك٢ سنة ١٩٨٦ اذ بدون هذا الشكل الاكثر تطوراً للنضال السياسي يصعب مجرد تصور التفاف الشعب باغلبيته حول اليسار خاصة في ظل مزاج نضالي عال في ظروف الانتفاضة.

الاف الاعضاء والانصار عرفوا طريقهم للاسر، مئات منهم اصيبوا بجراح واكثر من ١٢٠ شهيد قدموا على مذبح الانتفاضة. كان الحزب يرى تضحياته تلك وقدرته ونفوذه المتنامي فيطرح التصورات التي تسعى بارادة ثورية لمعانقة السماء [حتى وان بدت المعانقة تلك بعيدة المنال أو حتى مستحيلة] في ذكرى استشهاد غسان كنفاني (٨٩/٧/٨) والمنظمات تنشط إحياء للذكرى سقط ياسر أبو غوش عضو الحزب، صاحب المكانة الاثيرة عند الحزب والشعب في رام الله.

صباحاً كان كنعان يكتب، رن الجرس بغير موعده، دخلت رفيقته وسارعت بالارتماء على الاريكة وهي تجهش بالبكاء الذي هو للنحيب اقرب.
- ماذا هناك؟ تحدثي ماذا هناك؟ اعصابي لا تحتمل.
سأل كنعان يستحثها والتوتر يتملكه متحسساً كارثة وقعت.
- استشهد الرفيق ياسر، ياسر أبو غوش قبل ساعة، قتلوه عند المنارة.

القت بالنبأ كالصاعقة وعلا صوتها بالنحيب، كان واقفاً فقعد منهداً. لم ينطق بكلمة. رفيقته تبكي وهو صامت، ياسر الذي اتُخذ قراراً استثنائياً بضمه للحزب قبل بلوغه السن المحددة في النظام الداخلي (١٦سنه)، ما أن بلغ ١٥ عاماً حتى كان عضواً في خلية مرشحة تابعة للمنظمة الحزبية للطلبة الثانويين، كان ابرز نشطاء المنظمة الديمقراطية للثانويين "اتحاد اللجان" ووقف لاحقاً على رأس فرعها في رام الله، منظمة تشرفت بانها قدمت أول شهيد في الانتفاضة حاتم السيسي في قطاع غزة ، فيما بعد لمع اسمه بين رفاقه في المنظمة الحزبية للمدينة وما ان اندلعت الانتفاضة حتى غدا محور احاديث المدينة، ليس هناك كمين الا كان فيه، ليس من تظاهرة للثانويين الا وقادها. ياسر ذاك الشاب الطويل، الأشقر، الجريء سرق اعجاب الطالبات قبل الطلاب لجرأته وصداميته. بكته المدينة باكملها وما ان انتشر الخبر ان المخابرات اعدمته في الشارع حتى قامت المدينة ولم تقعد، سائقو السيارات اوقفوا سياراتهم واخذوا يبكون. فتيات اخذن ينحبن في الشوارع والمحال اغلقت سريعاً واندلعت الصدامات عنيفة جداً وبعد الظهر عند بيت الشهيد سقط رفيقه رجا محمد صالح في تظاهرات الاحتجاج. لقد فجعت المدينة مرتين! ■

الفصل التاسع

الفصل التاسع

أصواتهم

آتية من الغرفة المجاورة التي فيها ماكينات الطباعة. قيد يديه يؤلمه فالدم انحشر وكلما حرك يديه لسبب ما أو لقتل الرتابة والملل انعقد الحبل المطاطي الذي يقيد يديه فازداد الألم. **[اكتمل التشابه يا فيّاض يا رفيق التجربة! بماذا تفكر يا هشام، بماذا تتأمل، أيؤلمه القيد مثلي؟]** تذكر والقيد يؤلمه صيحة محمود درويش والتي غناها مارسيل خليفة بصوت ملحمي فريد "أنا مَنْ تحفر الاغلال في جلدي شكلاً للوطن!" ما سمع هذا الشعر الا وشعر بحافزه المعنوي ينمو بداخله [اين ستقودني أغلالي بعد الآن؟] أصوات كثيرة تبعثر الكلام في غرفة المكائن، أصوات أقدام تتحرك، صوت آمر من الغرفة التي بحذاء الباب؟

- هشام! لمن الماكينات هذه؟ لك ام لكنعان؟

عربيته ركيكة. انه ضابط مخابرات. فهم الذين يسألون – فقط رجال الأحذية الرياضية تسال، انما البساطير فلا تملك الا إطلاق الرصاص والضرب بأكعابها على الأبواب وبمقدمتها على كافة أنحاء الجسم.

- لا اعرف. لا شأن لي بأية ماكينات.

تضامني معك يا رفيق وأنت تواجه بارادة فولاذية. يحس بتضامنه ومحبته لرفيقة الأقرب في تجربته وتحضره بداياته.

- **صحيح**، صحيح، مطلبك مشروع. ينبغي فرز رفيق ثابت كمساعد لك. للقضايا الاجتماعية والحزبية، يكون سندك. لدينا اسم هشام ما رأيك؟ تعرفه أليس كذلك؟

كان انتقل مع بداية سنة ١٩٩٠ إلى بيته-وكره في المنطقة الصناعية في رام الله ومهامه باتت تتطلب رفيقاً مرافقاً له.

- لا يمكن القول أنني اعرفه. كنت أراه في الجامعة ولكنني لم أتحدث اليه. اذ كنت أتعمد حصر علاقاتي في حينها بحكم مهامي. لكني سمعت عنه وعن عمله في الانتفاضة - لديه روح عملية وذلك أهم ما اعوزه في مرافق.

فعلاً اكثر ما يميزه روحه العملية، الانتفاضة أظهرت طاقة هشام المحجوزة كما أظهرت طاقة غيره فالميدان كان وسيبقى التربة التي لا تنبت المناضلين فحسب بل وتكشف سجاياهم وتفجر طاقاتهم المختزنة وما على الحزب الا التقاطها سريعاً. عمل هشام مع وفود الصحافة الأجنبية التي كانت تزور الوطن

لتغطية أحداث الإنتفاضة، ومن غير هشام الجريء والماهر في السياقة يستطيع ايصال طاقم صحافة إلى قرية نائية عبر العديد من حواجز التفتيش والطرقات الخاضعة للرقابة واحياناً في ظل منع التجوال؟ ثم عمل في مجال العمل التعاوني فاتصل بالمزارعين في الارياف يزودهم بالاشتال والبذور في الوقت الذي عمل فيه مع اللجان الشعبية في المدينة.

كان مر وقت طويل على صلته بالحزب كصديق وكرفيق منذ التحق بجامعة بيرزيت مطلع الثمانينيات وعمل مع المنظمات الديمقراطية للطلبة لسنين مروراً بالانتفاضة وحتى عام ١٩٩٠ عندما اقترح رفاق كنعان اسمه كمرافق له. روح عملية عالية، جرأة وشجاعة خاصة في المواقف واللحظات الحرجة وما أكثرها في حياة رجل التخفي، انتماء راسخ للحزب واعتقال سابق اضاف لشخصيته ابعاد جديدة واخيراً قدرة ومهارة عالية على سياقة السيارة تقرر على ضوء ذلك ان يدخل هشام عالم التجربة المخفية الا عن نفر محدد وهيئات محددة في الحزب.

بعد اسبوع على القرار كان كنعان واقفاً ما بعد العصر عند نافذة غرفة نومه ينظر للشارع منتظراً وصول هشام، كل قادم لوكره يشكل بالنسبة له حادثاً هاماً في حياته السرية، اشبه بقدوم المولود الأول لزوجين، ينتظر عادة عند نافذة البيت يعد طعاماً دسماً لضيفه اذ كان دائماً يهتم بطعام من ياتي اليه جديداً كان ام قديماً، يحلق ذقنه ان كان لا يطلقها، يعتني بلباسه، وان تمكن يرتب بيته. كان يتصرف كمن يستقبل عروسه في بيته، كان يحتفي بتصرفاته تلك، بدخول "الجديد" على حياته الفقيرة بالجديد كقاعدة، فكيف به اذ ينتظر اليوم من يعوّل عليه ان يكون يديه ولسانه وقدميه– مرافقه الحزبي.

في الموعد المحدد ظهر هشام في الشارع المؤدي إلى بيته، كان يتلفت بذكاء دون ارتباك مدققاً ان كان مراقباً أو ملاحقاً، ملابسه على عداء مع الهندام والعناية الحسنة، بنطال من الجينز اهترى من كثرة ما لبس فاكتسب ملمحاً أمريكياً أصيلاً! بلوز صيفي خفيف وحذاء رياضي، شاب أمريكي على الطراز العصري – لباسه يعكس روحه العملية، كانت تلك من سمات هشام البارزة التي لاحظها كنعان. عندما اضطر لاعتبارات العمل ان يغيّر هندامه فلبس بنطالاً قماشياً وقميصاً وحذاء جلدياً بدا لكنعان مضحكاً بزيه التنكري. اما هشام فلم يتأخر كثيراً بعد إنجاز مهمته، سارع للتخلي عن زيه التنكري وعاد لطبيعته. لحظة ان دلف هشام للبيت تعانقا طويلاً عناقاً حاراً طويلاً، جلسا وتحدثا مطولاً عن الذكريات والجامعة وما آلت اليه الانتفاضة واوضاع الاتحاد السوفييتي. تناولا طعام الغذاء "مقلوبة الدجاج" مع لبن

النعاج وجلسا على الشرفة الشرقية يسمعان للشيخ أمام، يشربان الشاي، يتحدثان، ويتذكران. كان هشام مثله مصاباً بجنون الشيخ يلاحق أية أغنية له تتسرب للوطن كما كلب الأثر.

- أتدري؟ مشكلة تؤرقني، ايهما الأفضل لدي الشيخ إمام ام مارسيل خليفة؟ يصعب علي حتى اللحظة بعد عشرة استمرت خمسة عشر عاماً ان احسم موقفي.

كانا بدءا يتمشيان ويسمعان حينها أغنية "بلح ابريل يا سماره".

- ارح رأسك الاثنان معاً بنفس المستوى هما المفضلان معاً.

حسمها هشام ببساطة لا تدرك معاناته!

- لا يمكن يجب ان احدد موقفاً واضحاً.
- المسالة ليست حزبية وليست مثار خلاف مع القوى والتنظيمات!

قال هشام ساخراً، فضحك كنعان.

- المسالة مرتبطة بمزاجي وذوقي الفني، يجب ان اعرف اين اقف. هكذا انا والسلام. على اية حال بعد معاناة طويلة اعتقدني وجدت الحل في القول الإنجليزي The First Between Equals الاثنان متساويان والاول هو الشيخ امام، اعتقده حل معقول.

قرر كنعان واستمرا يتمشيان. كان الشيخ يغني:

مواكب مواكب رجال الطريقة الله
بيجوبوا الكواكب بنور الحقيقة الله

الشمس بدأت مسيرتها غاربة. لاحظ هشام غرابة التمشي هكذا على الشرفة فتلك لا يدرك أهميتها الا المتخفي وحده. التمشي هكذا عادة المتخفي، يتامل، يفكر، يفرغ احتقانه وينتظر. يمرن قدميه وظهره كي لا يتصلب مع الجلوس الطويل. منذ الصباح وحتى العصر وانا اجلس الى ان اهترأت عجيزتي، هذا ان وجد عليها ما يهترئ اصلاً. وضحك!

- هناك آخر يشاركك عادة التمشي هذه؟
- مَنْ؟
- القابع في زنزانته فأنت وهو تتفقان من هذه الزاوية.
- صحيح. صحيح. والان حدثني عن حياتك، عملك، زوجتك، صفها لي، أي نوع من النساء هي، كيف ارتبطتما قبل الزواج؟

كان كنعان يرشق هشام بأسئلته. يريد ان يقترب من عالمه، يتعرف عليه، يسعى لان يصبح جزء منه. لم يتردد هشام بالانفتاح في الحديث، حدثه مطولاً عن

زوجته، عائلته، عن عمله بما يكفي ليشعر كنعان معه انه يعرف عالمه معرفة جيدة بل ويحياه.

- والان - قال كنعان بلهجة لم يشأ لها ان تكون رسمية- دعني أوضح لك طبيعة مهامك الحزبية معي، وضعك الحزبي، ضوابط التعامل مع البيت، بعض قضايا حياتي السرية التي يجب ان تعرفها.

تحدث كنعان لساعة ونيف وهما يتمشيان احياناً كان يتوقف عن السير ليؤكد فكرة ما، يركز على توجيه ما، يحرك يديه. كعادته، لم يُغرق حديثه بالتفاصيل فتلك راى من الافضل ان يتكلما حولها مع تتالي العمل اليومي بدلاً من تكرارها كالمدرس يلقن تلميذه. كان يتحدث وهشام ينصت جيداً، يقاطع ليسأل عما يحتاج للاستفسار، أو يعلق ليؤكد ادراكه لفكرة ما.

- والان يا رفيق بعد كل ما سمعته عن مهامك، وضعك، ظروفك، السرية في العمل، هل تقبل العمل ضمن ما حُددَ؟
- مجنون مَنْ تسنح له فرصة العمل في تجربة من هذا النمط ويفوتها.

قال هشام دون تردد.

- جيد هذا يسعدني، توقعنا ان تقول ما قلت والاّ ما اخترناك. الاعتبارات الرسمية والصراحة الحزبية اوجبت ان أسأل. والان لصراحة اخرى، تعودت ان أسأل من يعمل معي سؤالا صريحاً. نظراً لخطورة الحياة التي اعيش، انت سجين سابق ومنذ سنين وأنت على صلة بالحزب لذا اتوقع ان تتفهم سؤالي وتتقبله دونما تحسس وان تجيبني عنه بصراحة.
- اسال. لا حساسيات لدي فيما يتعلق بالحزب.
- اذا حدث واعتقلت لأي سبب كان فهل اترك بيتي ام لا؟ يهمني ان اعرف موقفك بصراحة حتى اعرف اين اقف. لا تنحرج، اتفهم اجابتك بغض النظر عنها.
- لا تتركه.

لم يزد على كلمته كلمة. "لا تتركه" قالها بحسم ووضوح لا يقبل القسمة على اثنين. لم يشرح أو يعلل أو يبرر كما يفعل العديد لاقناع الآخرين بموقفهم، يتحدثون كثيراً ويكررون جملهم، يلوكونها لدرجة تجعلك تشك انهم بحديثهم على هذه الشاكلة انما يخفون عدم الثقة بذواتهم كمن يهرب للأمام مغطياً نفسه بضجيج الحديث. هشام لم يفعل ذلك، قال كلمته بطريقة أشعرت كنعان انه أمام رفيق يحترم كلمته، تسمعها منه ولا تناقشه بعدها، تثق به وانتهى. كانا ما يزالان يتمشيان والساعة قاربت التاسعة ليلاً.

- حان دوري لاسأل.

- اسال ما تريد؟
- كيف يمكن احتمال حياة كهذه وطوال كل تلك السنين الطويلة؟
- البداية صعبة وصعبة جداً، فيما بعد مع توالي الشهور والسنين تصبح هذه الحياة اعتيادية جداً بحكم التعود والقناعة لا بحكم اعتبارها جيدة فالتخفي خيار نضال لا خيار حياة، ليكن موقفي هذا واضحاً. ينبغي توفر عوامل تجعلها ناجحة ومستقرة، القناعة الأيديولوجية بأهميتها لعملنا الحزبي مسالة هامة للغاية فبدونها تتزعزع التجربة ليتزعزع ايمان صاحبها بها، تتغلب عناصر الضعف على عناصر القوة لدى من يخوضها. هناك ايضاً الانحياز الكامل للنضال أي التمسك بخيار الاحتراف الثوري ووضع كل ما يعيق ذلك على الرف – اخيراً هناك رعاية الحزب وتضامنه واسناده للتجربة لمن يخوضها وفوق ذلك دعاء امي "رحْ يا بنيّ الله يرضى عليك" ان توفر كل ذلك لا يبقى مجالا لتساؤل استهجاني!

الحبل المطاطي لا زال يؤلم يده. البسطار الذي يحمل كتلة من اللحم الخنازيري – فوقه يروح ويجيء بقرب كنعان فيلكزه بقدمه في خاصرته، في فخده، في قدمه .... اينما شاء. الحقد ينمو وينمو حتى ليكاد يطوق العالم ويحرقه!. **من ابتدع الأغنية الدارجة في الانتفاضة والتي تقول في احدى مقاطعها، السجن لي مرتبة والقيد لي خلخال]**؟ لم ترق له الاغنية عندما سمعها: **تلك أغنية تصلح لتحشيد معنوي لمعتقل يعيش وطأة الأسر وتخشى ضعفه في لحظة ان يتحول لانهيار وسقوط، انما ان يفتخر المعتقل بقيده واسره ويتغنى به فرحاً فذلك غريب، شاذ بل وسخيف لا يجب ان تكون مفاهيم كهذه مدخلاً لتربية ثوري متمرد، فالثوري يجب ان يخلع قيده لا ان يتغنى به كخلخال يتزين به، القيد اذلال ومهانة فهل نتغنى باذلالنا ومهانتنا؟ اما اذا اعتقل فيجب ان يقوم تنظيمه بمحاسبته بتخفيض مرتبته لا ان يعتبر سجنه مرتبة جديدة؟ أنها ذات الذهنية التي تحول الهزيمة إلى نصر بالصياح والضجيج والهروب إلى الامام!] يحدث تنفسه ويداه تؤلمانه ويتحفز لقدوم بسطار اللحم الخنازيري ليلكزه [أي خلخال هذا؟ ها هو ذا انسان مناضل من اجل شعبه قلبه يعمر بالتعاطف مع كل قضية عادلة في العالم، حلقي على الأرض مقيد اليدين والقدمين فهل عليه ان يشعر بالفخر؟! ما بين الفخر في هكذا حالة وبين الحقد فرق، الأول يزيف الحقيقة المرة، يزينها فيما الثاني يرى ما في الحقيقة من إذلال ومهانة فيحول كل ذلك إلى حقد على المضطهدين والظالمين]**. كان الحقد في داخله يتصاعد على البساطير – الأحذية الرياضية والمطاطية، على كل أنواع الأحذية والنعال في العالم.

صيف سنة ١٩٩٠ انذر بتطورات خطيرة على مستوى المنطقة العربية لم يستطع أحد ان يدرك بداياتها حينئذ. ففي الثاني من آب اجتاحت القوات العراقية الكويت لتسقط دون مقاومة جدية، وليعلن العراق بعدئذ ان الكويت ارض عراقية ويحتسبها المحافظة التاسعة عشرة. الأمريكان واتباعهم في العالم يحشدون قوة تناهز اكثر من نصف مليون جندي في السعودية منذرين العراق بالانسحاب حتى الخامس عشر من كانون الثاني سنة ١٩٩١ والا فالهجوم العسكري والسحق. لقد هب الرأسماليون في العالم قاطبة عندما أحسوا ان بحر البترول في منطقة الخليج سيكف عن ان يكون نهباً لشركاتهم، يشترونه بثمن بخس ليدير عجلة صناعاتهم التي يروجون منتجاتها السلعية في العالم الثالث ومنه العالم العربي، وما يدفعه الرأسماليون ثمناً للبترول يعودون فيستردونه اما ثمناً لبضائعهم أو على شكل ودائع نقدية يضعها العرب في بنوك الرأسماليين في لندن، طوكيو، نيويورك... حتى بلغت حين الاجتياح العراقي ٧٥٠ مليار دولار يستثمرها الرأسماليون لذلك فلا عجب ان تحوز خطوة العراق على تأييد شعبي لدى العرب. ما اهتم أحد حينها بمصير الكويت التي جرى بلعها في اقل من ٢٤ ساعة ولا برأي الكويتيين أنفسهم بطريقة تحويلهم إلى عراقيين أيضاً في ٢٤ ساعة، بل تصدر الوعي الشعبي آنذاك حقيقتين فقط، الأولى ان العراق سيعيد البترول للعرب من جهة والنقمة على الدول الغربية التي تحشد جيوشها في السعودية لحماية عروش شيوخ القبائل الخليجية المسماة دولاً على سبيل المجاز السياسي. لقد جاء البيان السياسي الذي أصدره الحزب في الوطن ليعكس هذا المزاج -بغض النظر عن صوابية أو عدم صوابية خطوة العراق في اجتياح الكويت- كما أشار، فالجهود كلها، كما أكد البيان، يجب صبها لمواجهة الغزو الإمبريالي للمنطقة العربية، اما "الثورة مستمرة" جريدة الحزب السرية في الوطن فركزت تحريضها وتعبئتها على جملة عناوين أساسية لعل أهمها الدعوة لان تكون المجابهة في الخليج لا تعتمد فقط على الحرب التقليدية بل والمتحركة والعصابية لمواجهة الالة العسكرية الهائلة المحتشدة ضد العراق، كما دعت شعبنا لضرورة ان يتمسك بسياسة الاعتماد على نفسه دون رهانات أخرى، فالعراق سند للانتفاضة لا بديل عنها، كما أكدت مراراً.

كانت التطورات في الخليج لا تهيمن فقط على التفكير الشعبي اليومي واهتماماته ورهاناته بل ايضاً على وسائل الإعلام العالمي فأضحت تلك التطورات هي محور اهتمام العالم وشعب فلسطين منه، لا الانتفاضة التي كانت اصلاً قد فقدت كثيرا من طابعها الشعبي الذي ميزها في سنتي ١٩٨٨-١٩٨٩ فيما نشطت اكثر فاكثر المجموعات المسلحة التابعة لفصائل فتح، الشعبية وحركة حماس والمشكلة أساسا من مطاردي الانتفاضة وتحديدا في قطاع غزة. اما العراقيون وفي

لفتة سياسية وطنية فقد ربطوا قضية الخليج وقضية فلسطين ودعوا لحل الاثنتين وعلى قاعدة الشرعية الدولية التي لا يجب تجزئتها اذ ان النفاق الأمريكي الإسرائيلي كان فاضحاً:- في الخليج يذرفون دموع التماسيح على حق تقرير المصير للكويتيين وحقوق الإنسان وهتك الشرعية الدولية فيما القضية برمتها عربية، اما في فلسطين فيدللون إسرائيل التي تدوس حقوق الإنسان ولا تعترف بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني ولا تعترف بقرارات الشرعية الدولية والتي منحته حقه في الدولة والعودة لوطنه. لقد اكتسب ربط العراقيين بين القضيتين مغزاه الصريح الحازم عندما اكد طارق عزيز وزير الخارجية عليه بطريقة لا تقبل القسمة على اثنين ففي معرض رده على سؤال لاحد الصحفيين في مؤتمر صحفي عن جدية العراق في حديثه عن ضرب إسرائيل ان هوجمت قواته في الكويت فجاء رد عزيز صاعقاً اسر كل من سمعه من مؤيدي العراق [Absolutely Yes] – قطعاً نعم! هلل الفلسطينيون لهذا الرد–التأكيد القطعي وان وجد بينهم الكثيرون ممن تشككوا بان هذا سيقع اذ كثيراً ما سمعوا تهديدات عربية ذهبت ادراج الرياح ولم يبق منها سوى الطنين الاعلامي يطن في الاذن العربية لا اكثر. اما السؤال التحدي الاكبر فقد بقي قائماً: كيف سيرد الفلسطينيون على ربط العراقيين لقضيته بقضيتهم؟ هل سيؤكدون الربط بين القضيتين بالقتال على الأرض؟؟

- لازلت اعتقد ان الأمور لم تصل لطريق مسدود من الناحية العقلانية الصرف، يجب ان يكون هناك مخرج ما، حل ما، لا أتصور حرباً بهذه الفخامة من الحشود، ان ما يجري محض جنون أو بصورة أدق مخطط أمريكي – إمبريالي.
- لم يبق الا ساعات على انتهاء الإنذار الأمريكي الأطلسي للعراق، فالحرب والحال هكذا تبدو واقعة انما السؤال هل يضربونه منذ غد صباحاً ام متى؟ لماذا لا يعلن عن الانسحاب؟ أكد بالاجتياح حقه بالكويت فلينسحب ويستثمر الحالة التي نشأت للمطالبة بالكويت ويستمر بتقوية وتعزيز قوته الاقتصادية والعسكرية.

كان كنعان يتحدث مؤملاً بان تتخذ القيادة العراقية قراراً بالانسحاب وتتجنب مواجهة عسكرية كان يراها مدمرة للعراق.

- اعتقد ان العراق يراهن على خيارات عسكرية غير معروفة لنا، ربما أسلحة ما فبالنهاية للدول أسرارها الحربية. وربما يفكر بما يكون عليه موقف السوفييت خاصة وان له معهم معاهدة دفاع مع انني اعتقد ان هذا المرتد غورباتشوف لن يفعل سوى ان يطعنه من الخلف لصالح أمريكا.

- في رأس صدام "موال" وهذا ما يجب فهمه ومن ثم تفهم تكتيكاته، الانسحاب أو عدمه يبقى تكتيك. المهم ما حقيقة هذا الموال، موال إقليمي خليجي لبلع نفط محميات المشايخ وهذا بالمناسبة جيد في المنظور الاقتصادي التاريخي، ام موال قومي نهضوي تحرري ووحدوي؟ هل يمكن اعتباره اذن ان كان الموال قومي بيسمارك العرب؟ محمد علي باشا وقد ارتدى البدلة العسكرية نهاية القرن العشرين؟
- ان كان موالـه هكذا فهو حقاً بيسمارك، يطرح شعارات قومية نهضوية ووحدوية، يبني بشكل جدي ومركز صناعة جيدة حسب مقاييس الصناعة في العالم الثالث. يبدو لي انه يسعى لتحقيق ما عجزت عنه البورجوازية العربية أي التصنيع وفك التبعية مع الغرب وان لم يفكها بالمطلق، فيحسن موقعه، يشاركها بعض الشيء، كما يسعى لنهضة شاملة في التعليم وجلب التقنية وتطويرها....
- اما ان تكون حركته باتجاه الكويت مدخل مشروع قومي شامل، ان يكون بيسمارك، فانا أتمنى ذلك وهل افضل من زعيم يوحد العرب ولو بالدم؟ في التاريخ هذا افضل من التشرذم إلى ٢٢ دولة معظمها لا يملك حتى مقومات مدن عصرية. ولكن اعتقد آن هناك سيناريو آخر كان يمكن آن تتخذه حركته القومية: يدخل قواته للاردن والملك يرحب بذلك اذ إنه يخشى اكثر ما يخشاه الوطن البديل وله الحق بالحماية والعراق كفيل بذلك بحكم المعاهدة التي تجيز له، وبعدها ليفتح جبهة حرب مع إسرائيل، عسكرياً وبشرياً يستطيع آن يخوض حرباً طويلة مع إسرائيل، حرباً لا يحتملها جيش مثل إسرائيل تعود على الحرب الخاطفة، ومجتمع مثل إسرائيل قليل السكان ومحاصر لا يحتمل الاستنزاف، ناهيك آن التقنية العسكرية للعراق بالنسبة لإسرائيل لا باس بها، المهم لا يستطيع شيخ قبيلة في الخليج آن يطالبه بديونه عن فترة الحرب مع ايران ولا تستطيع جيبوتي آن تتطاول فترسل جيشها ليشارك في حرب ضد العراق. كما آن الموقف الدولي سيتغير فالعرب في حالة حرب اصلا مع إسرائيل.

- هذا السيناريو كفيل بتحويل العراق كقائد للامة العربية دون منازع وسيتمكن من فرض منطقه عليها، فالموقع القيادي للعرب كان وسيبقى مدخله الصراع العربي الإسرائيلي قبل كل شيء. تلك كانت تجربة عبد الناصر حين احتل مكانته المرموقة، وتلك هي سبب مكانة الثورة الفلسطينية ايام عزها. السؤال الملح هو هو. ما آفاق الاجتياح العراقي للكويت في التفكير الاستراتيجي العراقي، اضافة للسؤال السابق، متى سيضرب العراق؟ اسئلة كثيرة تنتظر تطورات الاحداث لتجيب عنها.

لم يكن رفيقه وهو قيادياً وصاحب تجربة طويلة في النضال ويمتلك القدرة على التحليل، لم يكن غافلاً عن حقيقة ان الحرب قادمة لا محالة، ولكنه لم يكن ليتقبل اخلاقياً ان مئات الالوف من الجنود المزودين بتكنولوجيا عسكرية متقدمة للابادة وصلت مرحلة الليزر والاشعة تحت الحمراء والكمبيوتر.

- سيشتبكون بحمله تقتيل باحدث الوسائل العصرية، انه الجنون البشري الذي تخلقه وتغذيه نزعة الاستعباد والاستئثار المستشرية. على العراقيين ان يحسبوها جيداً. لا يمكن لشعب في العالم الثالث ان يهزم دولة عظمى في حرب تقليدية بل في حرب عصابات، حرب شعبية وعصابية فهي وحدها القادرة على لجم التكنولوجيا العسكرية ووقف استخدامها. الانتفاضة ايضاً قدمت درس فالطائرة الحربية والدبابة والمدفعية لا تصلح مع الحجارة وزجاجات المولوتوف والمسدس.

علق رفيقه وهما يتناقشان منذ الصباح دون توقف، يفطران ويتناقشان، يسمعان نشرات الاخبار فيعلقان قبل ان ينهي المذيع من قراءة الخبر، يعدان طعام الغداء والموضوع الحاضر هو ذاته.

- ولكن لدى العراق اسلحة متطورة كيماوية ونووية كما يقال وهذا يعدل الميزان وقد يردع مهاجميه. قال كنعان
- تلك اسلحة ان وجدت فاستخدامها ليس من السهولة بمكان، فالعراق يعلم انه ان اخرجها من مخازنها فيمكن ان تمسحه امريكا عن وجه الارض. تلك اسلحة للمقاومة، للضغط لكن لا يسهل استخدامها، الوضع الدولي لا يحتمل السلاح النووي.

لم يكونا وحدهما اللذان يخوضان هذا النوع من النقاش، بل العالم باكمله وشعب الوطن ايضاً، وكالعادة الكل اصبح محللا سياسيا ومعلقا عسكريا ولم تكن التطورات ليتوقف تاثيرها على استثارة النقاش بل اثرت على حياة شعب باكمله. الشعب ومحتلوه تعاملوا مع الوطن كساحة حرب محتملة، الناس منهمكة بشراء المواد التموينية للتخزين والمواد اللازمة لتجهيز غرف حماية من هجوم كيماوي عراقي محتمل. اما التجار هذا الصنف من البشر المخلصين لدورهم التقليدي كلصوص الظرف الصعب، رفعوا اسعار كل شيء ابتداءً من كيس الطحين حتى الشريط اللاصق لغرف الحماية، فطحن الكادح المطحون اصلاً واعتصر جيبه لاخر قطرة. عربات الباعة تنتشر اينما توجهت، تبيع كل شيء باسعار خيالية. البلدية توزع الكمامات الواقية من الغاز ومن نظر لقضيتها باستخفاف في البداية، فما ان اقترب موعد الانذار الامريكي حتى بدأ يفكر ان ليس بنفسه فبأطفاله.

في الايام الأولى من العام الجديد، سنة ١٩٩١، وزع الحزب تعميماً توجيهياً داعياً اعضاءه للعمل باتجاهين أساسيين، الأول تصعيد النضال في الشارع ضد الاحتلال والثاني تقديم الخدمات للناس كل في موقعه، ولتسهيل العمل في ظروف الحرب فقد تقرر وبغض النظر عن التركيب الحزبي ان يعمل جميع الاعضاء في مواقعهم معاً كآلية استثنائية في زمن الحرب بحيث يتحول الجميع للميدان!

يتحول الجميع للميدان فأين سيكون كنعان والحال هكذا. النشاط ضمن هذا التصور لا يتسع لمن يندس بين الجدران فهو منذ ثمانية سنين لا يعتبر كمناضل ميدان.

- ان اتخذت الحرب مساراً جديداً من نوع دخول إسرائيل فيها أو حملات تهجير جماعي لشعبنا فلن اظل في وكري بل سأنزل للشارع مع الرفاق والارجح ان تكون وجهتي إلى رفاق الريف.

قرر وابلغ. ووُفق على ترتيبه. وكره ايضاً عرف الاستعدادات للحرب. هشام يقوم بحملة تموين لوكره تكفي عائلة ممتدة لشهور! عشرات العلب من الاطعمة المعلبة، لحوم واسماك، فول، حمص، ارز، سكر، ملح، زيت ..... ولما جاءت سيارة البلدية توزع الكمامات الواقية على سكان المنطقة التي يقطن بها، لم يخاطر بالنزول لاستلام كمامته، فوجد هشام طريقة لاستحصال واحدة له، اما تجهيز غرفة ضد الغاز الكيماوي فظل حتى قبل ايام من انتهاء موعد الانذار لا يابه بالموضوع رغم قناعته انه يمكن ان تتخذ الحرب مساراً خطيراً. بعد ان جهز غرفته دخل مرة وجرب إغلاق بابها بالشريط اللاصق فضولاً لمعرفة كيف وهو مندس فيها مع زجاجة ماء وعلبة طعام محفوظ وارغفة خبز. أحس بسخافة موقفه ولم يعد لغرفته بعد ذلك.

منذ الحادية عشرة ليلاً من السادس عشر من كانون الثاني سنة ١٩٩١ اندس كنعان في فراشه وتوتر الاعصاب بلغ منه اشده فقد مضى يوم بعد انتهاء موعد الانذار الامريكي والترقب قائم. لم يكن الوحيد المتوتر فالشعب كله يعيش التوتر والترقب لكن حظه العاثر اضاف له توتراً اخر واعده بايام عصيبة ما عاش مثلها منذ ثماني سنوات. ازداد الالتهاب القديم في قدمه، حدة وبات لا يستطيع السير عليها الا بصعوبة. ما زاد الطين بله ان الالتهاب يكون مصحوباً بارتفاع درجة حرارة الجسم. راسه مثقل بالحرارة المرتفعة والهلوسات والافكار والتحليلات. ما ان غفا حتى صحا دونما مناسبة عند الساعة الواحدة وخمس واربعون دقيقة صباحاً. دون تفكير شغل المذياع بقربه، كان المؤشر على اذاعة الاحتلال والمذيعة بصوتها

المألوف تقرأ نشرة الأخبار في وقت لا بث فيه. جلس وأصغى بصعوبة والنعاس يغالبه. كان الهجوم الدموي الهائل على العراق قد بدا فجر السابع عشر من الشهر لهجة المذيعة التي تزعم الاستناد لمعطيات المعركة واثقة بطريقة ملفتة للنظر، تم تدمير المطارات و الطائرات، تجمعات الدبابات، منصات إطلاق الصواريخ، نقاط تجمع القوات العسكرية، القواعد المضادة للطائرات... باختصار لم يبق شيء لم يتم تدميره!! احس بالغضب يغلي بداخله **[معقول؟ هل يضعون طيرانهم، دباباتهم، ومنصات صواريخهم على رؤوس الأشجار ليتم اقتناصها وتدميرها من اول ساعة؟ هل تَصْدُقْ بنت الكلب فتنهزم في ساعات؟ يكون العراق مصر ٦٧؟ صدام كعبد الناصر]**

كان يتحدث بصوت مسموع وهو يسير متحاملاً على قدميه تجاه المطبخ [لماذا لم يضرب إسرائيل؟ [Absolutely Yes] هكذا قال طارق عزيز، متى يفعلونها؟ مصيبة ان كانت كلمته مجرد حرب نفسية!] اكل موزتين، صب حليباً في كاسه وعاد لفراشه ليستمع لنشرات الأخبار. يدخن بنهم. كل الاذاعات تعزف نفس اللحن الإسرائيلي باستثناء الاذاعة الاردنية التي بثت بعضاً من امل. عند الساعة الرابعة صباحاً كانت الدوريات العسكرية تجوب الشوارع وصوتها يعلن ذلك الامر الاحتلالي المألوف [إلى جميع سكان رام الله يفرض حظر التجوال حتى اشعار اخر]! كان الوطن قد فرض عليه خطراً شاملاً تحسباً لاية أنشطة جماهيرية أو عسكرية ضد الاحتلال وتضامناً مع العراق. الاحتلال هو الاخر تعامل مع الوطن كساحة حرب محتملة.

غيرت الحرب حياة كنعان داخل وكره! ليس هناك مهام يقوم بها ولا لقاءات يعقدها، المهام ميدانية والرفاق كل في موقعه ينفذ مهام مساعدة السكان والتعبئة رداً على الدعاية الإسرائيلية وتاكيدا للشعب ان العراق سيكون عند وعده، وقد ضرب فعلاً فجر الثامن عشر من كانون الثاني ثلاثة صواريخ من نوع الحسين المطورّة عن سكود على القدس الغربية. اصبح ينام نهاراً ويقضي ليله امام التلفاز يتابع نشرات الاخبار منتظراً سماع صفارة الانذار، فرشة على الارض وبجانبه المذياع والتلفاز وسجائره وادويته، ما ان يسمع الصفارة حتى ينهض بصعوبة فيركض احياناً على قدم واحدة واحياناً أخرى يتحامل على قدمه المريضة، يسارع ليصعد الدرجات الستة عشر من باب وكره حتى السطح مستنداً بيديه على الحائط. يتطلع جهة الشرق وهو يفرك يديه انتظاراً وفرحاً وبرْداً، بعد حوالي ٤-٥ دقائق كانت تظهر من جهة الشرق تلك الكتلة الحمراء المشتعلة اللامعة داخلة فلسطين قادمة من العراق عبر الاردن متوجهة للعمق الإسرائيلي. يتابعها بعينيه فرحاً كمن ينظر لمحبوبته تعبر الشارع بعد طول انتظار. ما ان يتجاوز الصاروخ مدى الرؤية

العمودية متجهاً للغرب حتى يظهر ذاك الفاشل المسمّى (باتريوت) ليعترض الصاروخ – المحبوبة فيفشل باعتراضه فياخذ الصاروخ بالنزول المنحني وما هي الا ثوان حتى يسمع صوت الانفجار الرهيب في تل ابيب، حيفا، رمات غان... ينزل سريعاً قفزاً على قدمه كما صعد ليفتح التلفاز والمذياع معاً ليسمع اين وقع بالضبط وما الخسائر التي الحقها والاهم هل حمل غازاً كيماوياً ام لا.

لقد اعتاد الشعب مع الصاروخ العزيز على قلب كل فلسطيني ان يمارس طقسه الخاص به من البهجة والنشوة. شعب باكمله يصعد لاسطح المنازل ياخذ بتحية الصاروخ بالصفير والصياح والهتاف كانه متسابق في ملعب والشعب جمهوره الذي يحفزه للتقدم وما ان يصيب هدفه ويسمع دوي الانفجار ويرى الضوء اللامع حتى يبلغ الطقس مداه:- زعيق وصياح يهتك صمت الليل ويطغى على صوت المطر المنهمر احياناً مصحوباً بالرعود والبَرَدْ. حقّ للشعب ان يفرح فالمغزى السياسي لضرب العمق الإسرائيلي كان ذا اهمية تاريخية وسياسية كبيرة فمنذ ٤٥ عاماً من الصراع العربي - الإسرائيلي وإسرائيل بمنأى عن اليد العربية فيما عواصم العرب، القاهرة، دمشق، بيروت، بغداد وحتى تونس اصابتها اليد الإسرائيلية المعربدة. حقّ للشعب ان ينتشي فرحاً وهو يرى الهلع رسمياً وشعبياً في إسرائيل مزاجاً موحداً ابتداءً من ديفيد ليفي وزير خارجيتها الذي اصابه الارتباك وهو يتحدث في بثٍ حي في التلفاز، عندما سمع صوت الصفارة [مازي مازي ازعقوت]* ؟ وانقطع البث، مروراً بمذيعة التلفاز التي لطمت على خدها عندما سمعت صوت صفارة الانذار وهي تقرا نشرة الاخبار فغنى لها الشبان لاحقاً:

مذيعة ع سلامتك	**كون نسيتي كمامتك**
يا حسرة يا ندامتك	**لو عالاذاعة يفوت**
توت توت توت توت	**ما نفع الباتريوت**

وانتهاءً بالمواطنين العاديين يندسون في ملاجئهم وغرفهم المجهزة يرتدون كماماتهم، لذلك لم يعبا الشعب بصاروخ محمل برؤوس كيماوية! لا أحد يدخل غرفته ويتناول كمامته الكل على الاسطح يصفر، يزعق، يهتف ويوجه الصاروخ كانه سائقه! يلّه يلّه شد حيلك، اسرع دير بالك، طلع الباتريوت، رح إلى اليمين، إلى تل ابيب، اسرع اسرع. اما تلك العجوز البيراوية فقد قالت لشبكة تلفزيونية عالمية ما كان يقوله شعب باكمله، سالت الصحفي ومشاهدوها يسمعون: ان حكيت يسمعني صدّام؟ – يسمعك! تحدثي يا حجة!– هيه يا صدام اضرب ولا يهمك ان صابتنا معهم، اضربهم واضربنا.

لكن مقاومة الشعب شُلت ولم يقو على ممارسة فرحه نضالاً فظهر عجز فصائل المقاومة ومحدودية امكاناتها قياساً بمتطلبات الظرف. [منع التجوال قيد اية امكانية لنشوء نضال حقيقي مسلح وغير مسلح] هكذا قيل!! فلم ترتق جميع الفصائل لمستوى شعاراتها ودعواتها قبل اندلاع الحرب. الثوري لا يبحث عن ظرف مناسب لنضاله فالظروف دائما مجافية على حد التعبير الصائب للثوري الاممي ارنستوتشي جيفارا] هكذا علق المناضلون. في لبنان قام مقاتلو الحزب والفصائل الاخرى وخلال اليومين الأولين لنشوب الحرب بفتح جبهة جديدة في الشمال باطلاق رشقات مكثفة من صواريخ الكاتيوشا، لكن تلك الهجمة لم تستمر اكثر من ٤٨ ساعة وتم اسكاتها من الجميع بما فيهم الحركة الوطنية اللبنانية!

وما ضربت المصالح الأمريكية اينما وجدت!!! فظهر انه شعار خطابي لا يمت للامكانية بصلة، اما زجاجة حارقة على مبنى السفارة الأمريكية في روما اعلن الحزب مسؤوليته عنها فلا يمكن اعتبارها كضرب للمصالح الأمريكية الا من باب التندر!

وحده المندس في وكره كان لعجزه فترة الحرب نكهته. فالعجز سيد الموقف عجز عن المشاركة باي مجهود حزبي وعجز عن السير القويم. كانت قدمه قد ضاقت بصديدها فانفجر الجرح القديم ونزت ما بها. عالجها كل يوم كما تعود منذ سنين؟ يعتصرها، ينظفها ويلفها بالشاش الطبي وعندما ترتفع درجة حرارة جسمه لفوق ٣٩ درجة مئوية ينزع ملابسه سريعا ويأخذ حماماً بارداً لتتدنى حرارته ساعات لتعود فترتفع من جديد فيعالجها من جديد بالماء البارد ... وهكذا دواليك. كان يجب ان يزوره طبيب اختصاصي.

- يجب ان تجري عملية جراحية في اسرع وقت ممكن، الركبة بحاجة لتنظيف.

قرر الطبيب دون ان يستهلك كبير وقت في الفحص، سمع تاريخ المرض ففهم سريعاً.

- لا يمكنني الذهاب للمستشفى فانا مطارد انتفاضة جد حلاً لها دون عملية جراحية.

قطع كنعان بلهجته الحازمة أي ترددات من الطبيب. كان يعلم بصعوبة ذهابه للمستشفى بالسرعة التي يريدها الطبيب، على الأقل يلزم ترتيبات أمنية لضمانة سرية الجراحة، وهذا يصعب تنظيمه بسرعة فما بالك بظروف كظروف الحرب ومنع التجوال والآفاق المفتوحة لتطور الحرب في المنطقة. لم يحاجج الطبيب، تفهم كما بدا لكنعان فأضاف:

- لا خطورة على قدمك الان ولا لاحقا، انما يجب تنظيفها جيدا. اخرج منها ما تستطيع من الصديد ونظف الجرح جيداً. سأصف لك دواءاً لمدة ٦ شهور وفق نظام محدد فهو دواء قوي عله يحاصر الالتهاب، خلال ذلك يجب ان تكون جهزت نفسك لعملية جراحية، حسنا؟

اقعده مرضه ليس عن السير فحسب بل وعن القيام بابسط واجبات الحياة، تجهيز طعامه وغسل الاطباق، كان اذ اراد تجهيز طعامه يختاره بحيث لا يحتاج الا لدقائق عمل فيعود للتمدد فالسير الكثير أو الوقوف لفترة طويلة قد يحرك الصديد وهذا سيخلق ازعاجات اضافية. هشام المرافق والسند كان هناك، كلما رفع حظر التجول بعد يومين أو ثلاثة ايام لساعتين أو ثلاثة، يسارع للقدوم اليه يساعده بان ينظف ما يجب تنظيفه، يجلب له طعاماً جاهزاً أو طعاماً أعدته زوجته لطلبة بائسين يشتاقون لطعام بيتي!! كان رفيق لحظة تتطلب الرفيق فتجده هو في الأوقات تلك يقوم مقام عائلة بأكملها! شعر كنعان بالاعتزاز به، بالنقمة على ظرفه، الحقد على عجزه. عاش في أيامه تلك صعوبة المرض اذ يدهم المتخفي الذي يعيش وحيدا، يصبح ليس فقط الماً في عضو ما بل خنجرا في ظهره، يحمله عدوه.

لا يكفي ما أصابه من وحدة الوكر ووحدة غياب اقنومه الثالث، حتى يعانده جسده ايضاً. كان يتذمر وقد تعكّر مزاجه فيهدئ نفسه بمتابعة فيلم سينمائي. ما ان يحتاج للتحرك لسبب ما حتى يعود مزاجه السابق تذمره وتكدره. ما فكّر يوماً باقنومه الثالث كصانع لكاس من الشاي أو طاه لوجبة طعام يتناولها ساخنة، ما فكرّ به يجهز له خرق الماء البارد يضعها على جبينه أو يذكره بساعة تناول الدواء عند الفجر أو تنظيف أرضية مطبخ يتسخ دون ان يجد مَنْ ينظفه.

كان حتى ولوجه سنته التاسعة يرى اقنومه كما اراده كثوري، انساناً ممسوساً مثله بجنون الثورة والحياة والحب، انسانا يكتشف فيه نفسه، تتلذذ ذاته بمعاشرته، لصورة طيفٍ شعري هو أقرب، كما لو ان الموسيقى صنعته له خصيصاً... انما الحرب وهو يسير مستنداً لحائط أو كرسي تلعب حرارة رأسه باتزانه فيهذي، كان ينزل باقنومه من ذرى الثورة والحب والشعر والموسيقى إلى دنيا الحياة اليومية المملة، يتمناه يساعده في وظائف البيت التي ملها، يسأله شيئاً يحتاجه، يراه مثل أي امراةٍ يجدها الرجل المريض امامه. ما فرح لتحويل صورة اقنومه في خياله من لوحة رسمها بريشته متاملاً، راغباً ومحتاجاً إلى امراة منزل، كان خلال عجزه لا يغيب عن ذهنه كلمات رفيقه ومعلمه محمد قطامش الذي قضى نحبه بعد شللٍ أقعده سنين نتيجة التعذيب وظروف الأسر. عجز المرض قاتل، حتى لينين نفسه لو نام مثلما انا هكذا لمرت عليه لحظات كفر فيها بكل شيء. لم يفهم

تماماً مغزى هذا الكلام حين سمعه من الشهيد شهور قبل انتقاله لحياة التخفي. ان تسمع عن شيء غير ان تعيشه، تلك بدهية حياتية، الآن، في لحظات عجزه وهو يعيش العجز والألم حتى بأقل كثيراً من الشهيد يفهم تماماً ما عناه بكلامه. تدهمنا لحظات الضعف الإنساني فان صرعتنا كان الانهيار وان صرعناها نتفولذ اكثر فاكثر.

تتبز ذاته بين لحظة واخرى كعادتها منذ سنين وكعادته تمرّس على اسكاتها. وايضاً منذ سنين يشتم ويلعن ولكنه سرعان ما ينسى عندما يحين موعد نشرة اخبار أو تقرير اخباري لبيترارنت مراسل CNN أو ياتي هشام مظهراً تضامنه ورفاقيته أو ينهمك معه في نقاش سريع حول الوضع العسكري في الخليج، حينها يعود لحقيقته، مناضل العمل السري المتخفي.

شهر مضى على الحرب والوضع محيّر اذ لا معارك بالمعنى العسكري للكلمة، فقط غارات جوية وقصف مدفعي وصاروخي بعيد المدى، للتحصينات والمنشآت العسكرية العراقية في الكويت والعراق. سعد الدين الشاذلي يحلل وخبرة القائد العسكري المحنك تسنده فيبعث على التفاؤل اذ يقول [المعركة لم تبدأ بعد. هذا كله تمهيد امريكي للغزو] ولكن رويداً رويداً يتضح ان امريكا تحارب بتقنية أواخر القرن ٢٠ المطورة، يدوس طياروها على الازرار من ارتفاعات لا تصلها الصواريخ العراقية المضادة للطائرات ومن البحر الاحمر يدكون بصواريخ كروز الموجهة بالكمبيوتر والرموت اهدافهم بدقة وعندما تستدعي الحاجة فلا بأس عند حماة حقوق الانسان الامريكيين من قصف ملجأ العامرية بدقة متناهية محاولين زعزعة تماسك الجبهة الداخلية، اما الجنود فهم لا يقاتلون الا كتقنيين من خلف اجهزتهم المطورة فيما العراقيون المتحصنون في استحكاماتهم في الكويت وفي العراق فكانوا يتلقون الضربات منذ شهر ونصف دون ان يقووا على فرض منطقة المعركة بالمفهوم الذي تدربوا عليه، جيوش واسلحة ودبابات تتواجه في ساحة المعركة بالمفهوم الذي تدرب عليه الجيش، معركة مكشوفة على طريقة معارك الحرب العالمية الثانية ووفق نظرية السوفييت العسكرية في معارك الدبابات، اما على الصعيد السياسي فلا الشعوب تحركت لتزعزع استقرار النظم الرجعية ولا السوفييت تحت قيادة غورباتشوف تحركوا.

اما شعب الانتفاضة فقد سلم اوراقه للقدرة العسكرية العراقية مراهناً على انتصارها، ليدخل الفكر السياسي الفلسطيني مأزقه الثاني والقاضي باعتبار العراق بديلاً عن الانتفاضة. مر شهر على كنعان وقد بدا ان حياته في الحرب اخذت نسقها الاعتيادي الطبيعي الخاص بها، كل سلوك غريب ما ان تلوكه الايام يوماً بعد يوم،

اسبوعاً بعد اسبوع حتى يكون الزمن القصير احياناً قد حوله لنمط حياة روتينية، يصحو من النوم عند السادسة أو السابعة مساءاً فيفطر، عند الواحدة أو الثانية صباحاً يتغذى، وعند الثامنة صباحاً يتعشى وينام. مواعيد الصواريخ الموجهة لإسرائيل فرضت نظامه الجديد فهي تطلق ليلاً وعليه طبعاً ان يظل ينتظر حتى تزعق صفارة الانذار فيأخذ بالتقافز على قدم ونصف صعداً نحو السطح. هو من الشعب ولن يتنازل عن أي يفعل ما يفعلوه ولو صعد للسطح لا تقافزاً بل حبواً على اربع.

في احدى المساءات كانت السماء خيرة، امطارها غزيرة وايضاً ضبابها كثيف في اجتماع نادر بين المطر والضباب، صعد للسطح باقصى ما تمكن من سرعة بحيث لم يلحق ان يلبس كنزته الصوفية ووقف يتطلع للشرق ويداري نفسه عند باب السطح من المطر ودون جوارب تقي قدميه من السطح البارد. لم يظهر الصاروخ–المحبوبة في موعده: اين ذهب؟.كان يجب ان يظهر؟ هل يكون الانذار كاذب؟ وهل تاه عن طريقه؟] بعد فوات موعده بدقيقتين سمع دوي الانفجار فخرج تحت المطر يتلفت إلى مختلف الاتجاهات فلمح ومضة سريعة من جهة الجنوب. كان الحسين قد توجه هذه المرة للقدس وما لمحه! شتم كل ما تذكره حينها وعاد منكسراً واندس في فراشه بعدما بدل ملابسه المبتلة ورعشة البرد تلسعه.

كان يأكل وهو على فراشه على الارض وتقليلاً لتحركه عاش اسبوعاً يتغدى على السمك المملح الذي يمكن ازدراره بارداً فالتذ وارتاح! استمتع بفلمين للمخرج الايطالي العالمي فيليني واستعراضات بني هيل البريطاني الكوميدية وان لم يسعفه حظه مع التلفاز فيبعث بالمذياع محاولاً التقاط عبد الحليم، عبد الوهاب، فيروز ...

- يريدون بدخولهم من هذه الجبهة ان يقطعوا عليه خط الانسحاب الذي كان نفذه تحت ستار دخان النفط المشتعل قبل ان يعلن عن عزمه الشروع به. الهدف سحق القوات العراقية، في الكويت يلاحقون القوات المنسحبة من خلفها ويهاجمون مسيرتها من جهة السعودية، أنها الكماشة.

قال رفيقه الذي جاء لزيارته معلقاً على حركة القوات الامريكية القريبة من الحدود مع العراق.

- هل سيخاطر الامريكيون باجتياح العراق؟
- المسالة هنا تختلف فهذا احتلال حتى شيعة الجنوب بتقديري يتصدون للاجتياح، والمنطقة مناسبة لحرب عصابات سيغرق في وحلها الامريكيين. للارض العراقية في الجنوب طبيعة مناسبة. الامير حسن لمّح إلى ان تطورات الحرب

ستاخذ ابعاداً اخرى ان جرى اجتياح، ومضر بدران استخدم صراحة مصطلح حرب عصابات، لكن المهم هل تم تدريب الجيش الجمهوري المتمركز هناك على أشكال حرب العصابات والياتها، هل يجري تسليح وتعبئة الشعب بهذا الخيار؟ حرب الشعب سياسة شاملة على كل المستويات وعلى كل جبهات المجتمع.

- بتصوري ان الامور لن تاخذ هذا المنحنى والا لماذا لم يترك العراق بضعة الاف من مقاتلي القوات الخاصة مثلاً في الكويت العاصمة لممارسة حرب المدن ولو على سبيل ارباك الامريكيين وايقاع الخسائر بهم فهذا يضعف معنوياتهم ويحرك جبهتهم الداخلية. الكويت العاصمة، واسعة جداً، اوسع من بيروت فلماذا لم يترك فيها جيوب مقاومة؟ هل صعوبة القتال وسط شعب معادي مثلاً؟

كانت الافكار، الاسئلة، المجاهيل كثيرة لكن ما هو واضح، ان العراق تعرض لضربة عسكرية انهكت قواه واعادته سنيناً للوراء وستترك تاثيرها السياسي على مجمل المنطقة العربية لصالح زيادة العربدة الأمريكية – الإسرائيلية. هزم المشروع العراقي ولو إلى حين ويبدو للوهلة الأولى انه طويل.

انتهت الحرب فانسحبت من بيته تفاصيلها المرة كما ظهرت اخيراً وبقيت هزيمتها، انتهت وانسحب الفرح ليحل محله الاحباط وبكاء لحظة الانسحاب. الصاروخ القادم من الشرق، تقارير بيتر ارنت، تبادل الليل والنهار لمواقعهما ووظائفهما، المفردات العسكرية المرادفة للحرب، الحسين، باتريوت، صفارة الانذار، منصات الصواريخ ... ما بقي منها سوى التحدي العراقي لأعتى قوة عسكرية في العالم تجمعت ضده، وانكسار وتحطيم بنية لا باس بها جرى بناؤها خلال عشرين عاماً. بقيت ذكرى عزيزة، ذكرى ضرب العمق الإسرائيلي بالصواريخ بقي حفنة من الرهانات والتكتيكات السياسية الخاطئة، عجز الفصائل والشعب عن اسناد العراق في حربه. انسحبت مع الحرب التهابات قدمه وصديدها أو ضعفت كثيراً فعادت له حيويته، اما الشعب الذي وضع رهاناته كلها في العراق ونتيجة لتعلقه بروح التحدي وبالصواريخ تدك تل ابيب، حيفا، والقدس فقد انكسرت هو الاخر انتفاضته وبدات تتراجع بحدة في مظاهرها باستثناء المجموعات المسلحة.

يلتقط الامريكيون هزيمة تلك المحاولة العربية لتحسين شروط الموقع في السوق والخارطة الدولية فيسارعون ليس فقط لتاكيد سياديّة سياسيّة بعدما اكدوها بقوة الحرب والسلاح بل وليجنوا ثمار تلك السيادة مشروعاً لحل القضية الوطنية

مفصلاً على مقاس مصالحهم ووفق رغبات إسرائيل القديمة وبرنامجها، برنامج الحكم الذاتي. جاء جيمس بيكر وزير الخارجية الامريكي في آذار سنة ١٩٩١ يحمل مشروعه الذي يخترق به البرنامج الوطني والانتفاضة. تلقفت قيادة م.ت.ف المشروع واوعزت لرموزها في الوطن للقائه، فيما رفض الحزب ان يشارك فزادت هذه الخلافات من حدة الانقسامات داخل م.ت.ف والانتفاضة وبدا ان مرحلة تاريخية جديدة تلوح في الافق.

في الحزب كانت في صفوف الكادر والقيادة تزداد النقاشات اصطخاباً. التطورات ما بعد حرب الخليج، الازمة المستعصية في الاتحاد السوفييتي والتي باتت تهدد مستقبله وبعدها وقبلها انهيار الاشتراكية في اوروبا الشرقية، انهيار النظام الرسمي العربي وهزيمة العراق، اعلان قيادة م.ت.ف توافقها مع السياسة الأمريكية، ضعف وتراجع الانتفاضة المتزايد وتحديداً لجهة المشاركة الشعبية نتيجة ديناميكيتها الخاصة والاختراق السياسي، واخيراً عدم رغبة بعض الفصائل وعدم قدرة الاخرى، اليسارية تحديداً، على إعطائها الدفعة اللازمة بتصعيد فعالياتها ضد الاحتلال. كانت ككلها عناوين تنذر بان مرحلة جديدة اتية وصعبة، واليسار على اعتاب مهام وطنية وتاريخية ستختبر دوره وامكاناته وقدرته على لعب دور البديل لليمين السياسي.

كان الحزب يصطخب بالنقاش فيما اكتشف ان مشروع القوة الأولى الذي لعب دوراً هائلاً في تحفيز النشاط وزيادة العضوية [بلغت سنة ٩٠ ٨٠%] وبناء منظمات حزبية وجماهيرية جديدة واقتحام آفاق اخرى في العمل [اللجان السياسية، بناء منظمات للمهنيين، تطور اعلام الحزب، انتظام الجريدة السرية كنصف شهرية]، اكتشف ان هذا المشروع بعيدٌ عن ان يكون مشروعاً للتنفيذ العملي بعد اختباره لمدة ٣ سنوات من جهة ونتيجة مستوى التراكم من جهة اخرى، ناهيك عن جملة اسباب موضوعية اخرى، ولكن كل تطورات قوة الحزب رسمت التصنيف الجديد للوطن باعتباره جناحاً حزبياً فيما الخارج جناحاً اخر وهذا كان بطبيعة الحال/ أو لنقل من المفترض ان يلقي بثقله على الترتيبات لعقد المؤتمر الوطني الخامس والذي تقرر في نهاية سنة ١٩٩٢ سواء من ناحية مشاركة الوطن بمندوبيه أو بمشاريع القرارات أو بالتركيب القيادي الجديد للحزب الذي سيكون على جدول اعمال المؤتمر. ناقشت منظمات الحزب في الوطن مشروع البرنامج الذي يصاغ لاول مرة كما جرى طباعة مشروع التقرير العسكري وكان هذا يعكس الازمة التي يعيشها الحزب بشكل واضح، ازمة تعمقت اكثر نتيجة عدم القدرة على اطلاق حركة عصابية سرية مسلحة في الوطن نتيجة مستوى التركيم التنظيمي

والجماهيري غير الكافي من جهة ولطغيان الهم السياسي على نشاط الحزب من جهة ثانية، ولاعتبارات اخرى تتعلق بالحزب خارج الوطن ... كل ذلك افقد مشروع القوة الأولى ممكناته بل قل اظهر بعضاً من عدم دقته كشعار، كما كان واضحاً انه دون الحركة العصابية ليس هناك ما يمكن من تحويل المشروع إلى حقيقة سياسية.

كنعان كان جزءاً من الصخب الدائر. شرع يفكر بالترتيب الخاص لايفاده للمؤتمر كاحد مندوبيه، كان ينتظر بلهفة نجاح ترتيباته ونجاحه بالوصول، يشارك في المؤتمر، يحمل هم الوطن ونضاله وتجربته، يلتقي قيادة الحزب فيكتسب ابعاداً جديدة واخيراً ينال قسطاً من الراحة يمتد لشهور يعود بعدها لمواصلة الاندساس بين الجدران كمناضل محترف في مرحلة باتت صعوباتها تظهر منذ مطلع التسعينات.

احدى صعوباتها تلك كانت تكمن في انهيار وازمة نموذج الاشتراكية المحققة. منذ عرف طريقة لفكر اليسار الماركسي كان يلتهم كل ما يقع تحت يديه من كتب ودراسات ومجلات حول الاتحاد السوفييتي والاشتراكية. تأسس هذا النهم للمعرفة الاشتراكية في سنوات الشباب المبكر في اواسط السبعينات في السجن، وتنامى اكثر فاكثر في حياته السرية، اذ لا ينقص الوقت ولا التعلق بالقراءة كعادة – مرض منذ كان في المرحلة الاعدادية.

أما بعد تسلم غورباتشوف للامانة العامة للحزب وجملة مواقفه وتصريحاته وخطبه فقد اشتدت الرغبة بمتابعة ما يجري. لم يكن الحزب ليغلق باب النقاش أو حرية التفكير. برنامج الحزب ونهجه الايديولوجي واضح ولا ينبغي خرقه، ومن يختلف معه فليبحث عن خيار اخر، ومع ذلك فان كادر الحزب وان تربى على منشورات المدرسة السوفيتية بشكل كبير الا ان الحزب شجع في محاورات ثنائية وفي برنامجه، التثقيف المتنوع، قرا للكثيرين من المنظرين الذين اختلفوا مع المدرسة السوفييتية في الماركسية [جورج لوكاش، انطونيو غرامشي، ليون تروتسكي، ماوتس تونغ، جيفارا، مهدي عامل ...] وتابع بانتظام، تخدشه احياناً الحياة السرية وممكناتها، دوريات عديدة [كالنهج، اليسار العربي، الطريق، الثقافة الجديدة، قضايا السلم والاشتراكية ...]. لم تكن القناعة بالاشتراكية لتتزعزع من قلبه وعقله كخيار تاريخي للكادحين، ولكنه كان يرى نقد واقع الاشتراكية المحققة شيء والسير بخطى حثيثة من قبل قيادة غورباتشوف لاستبدالها بالرأسمالية شيء آخر.

تفهّم تشخيص غورباتشوف لواقع الحزب وعلاقته بالدولة، للديمقراطية، لتسيّد العامل في المصنع ولكنه لمحّ مغازلة غير مبدئية للرأسمالية في في شطب مقولات (الثورة) "الصراع الطبقي"! كان يقرأ ويقرأ كل ما يقع تحت يديه حول ما يجري في الاتحاد السوفييتي والمنظومة الاشتراكية. في سنة ١٩٨٩ قرأ كتاب تروتسكي الابرز "الثورة المغدورة" فوقف على العبقرية الفذة لهذا القائد والمنظر الشيوعي الذي كتب في الثلاثينيات توقعاته لمستقبل الاشتراكية بعد تحليل نشاتها ليحدث في الثمانينيات والتسعينات ما توقعه تماماً؟ اختلال العلاقة بين الثلاثي "الحزب، الدولة، الطبقة"، التركيم الاشتراكي، الحصار الرأسمالي وما سيقوده ذلك من مركزة شديدة، استشراء البيروقراطية، انتفاء ديمقراطية الشغيلة الامر الذي سيشعر العامل بانه غريب عن انتاجه لصالح سطوة بيروقراطي من راس الهرم "الدولة" حتى أسفله "مدير المصنع"، انه من امهر الكتاب الذين تمكنوا من آن يقرأوا المستقبل الاشتراكي عبر تحليل تناقضاته. ذات العام قرأ ثلاثية اسحق دويتشر حول بروتسكي (النبي الأعزل، النبي المسلح، النبي المنبوذ). كان يدرك ان اشتراكية مطوقة ومحاصرة في العشرينيات والثلاثينيات وتسعى لإحداث نقلة نوعية سريعة في الصناعة والزراعة تجعلها قادرة على مواجهة مخالب الوحوش الرأسمالية، اشتراكية كهذه لا يمكنها الا ان تمركز في يدها جهاز دولتها وكل شيء لتحقيق بناء سريع للقاعدة الاقتصادية للاشتراكية وهذا سيقود حتماً لنظام سياسي تتنعش فيه البيروقراطية بسرعة نتيجة المركزة وتهمش كذلك الديمقراطية فالدولة التي في حالة حرب وحصار لا أحد يطالبها بديمقراطية نموذجية. لذلك كان يحمل من جهة الإعجاب بشخصية ستالين رجل العمل السري والقائد واللاحق للتجربة الاشتراكية التي تمكنت ليس فقط من بناء نموذجها بل وهزمت الوحش النازي لكنه من جهة اخرى ما تقبل تسلطه وطغيانه الذي وصل حد إعدام قادة تاريخيين للثورة والحزب كتروتسكي وبوخارين ووصفهم كعملاء وتعليقهم على المشانق مع ثلثي أعضاء اللجنة المركزية ... كان يقرا ويقرا ويكون وجهة نظره الخاصة فيما جرى وقناعته تتعزز يوماً بعد يوم ان لا بديل عن الاشتراكية التي ستحدد التجربة التاريخية للبشرية نموذجها الأفضل.

كان الحزب في الوطن موحداً بالاجمال حول موقف موحد عكس نفسه على تعميم للمكتب السياسي صدر في كانون الأول سنة ١٩٨٩ خاص بمعالجة سريعة للازمة في الاتحاد السوفييتي فسجل التعميم نقده الصريح للسياسة الخارجية وتساؤلاته حول مدى خدمة إجراءات قيادة غورباتشوف للاشتراكية. ■

الفصل العاشر

الفصل العاشر

- انك تملك مزاجاً مرحاً، تغني مع شيخك طرباً، تدندن وتنقر على الطاولة فرحاً مع أغنية أجنبية، تمزح وتروي النكات، ذلك جيد، جيد جداً بعد دخول سنتك التاسعة متخفياً بين الجدران، بعد الصعوبات التي تكالبت علينا منذ فترة، يبدو عليك الارتياح.

قال رفيقه الذي زاره في أيار سنة ١٩٩١ يفتتح حديثاً فجائياً فيما كنعان يقطع حبة بندورة.

- ربما تلك طبيعتي فمزاجي بالاجمال يميل للمرح وربما بذلك اكتشف طريقي لهزيمة قسوة الحياة والتجربة وصعابها. اتدري احياناً استغرب من نفسي فكيف املك تلك الطاقة على ان أكون مرحاً رغم قسوة التجربة؟ أنا ملتزم بالقاعدة الذهبية للانتفاضة [الهجوم خير وسيلة للدفاع] اهجم بالمرح والمزاح على صعوباتي دفاعاً عن نفسي من ان تصرعني. أن نبتسم في وجه الصعوبات يعني ان نهزأ بها وذلك مقدمة لهزيمتها!
- معقول، معقول تلك وسيلة جيدة، قل لي هل تشتهي شيئا ما؟ ما اكثر ما تريد بعد سنواتك تلك؟
- ان اجلس على عتبة بيتنا وبصحبتي كأسا من الشاي، وسيجارة وفي حضني الصغيرة الحلوة [طبعاً لم تعد صغيرة للاسف، استدرك يحدث نفسه بصوت مسموع]. اجلس واراقب المارة، أي ان اجلس جلسة عجائزية نموذجية! هذه العادة الشعبية السيئة أتمناها فعلاً.
- مطالبك متواضعة جداً يا رفيق ولكنها مستحيلة، مستحيلة جداً. هكذا هو الاختفاء، يسجل المطالب الإنسانية البسيطة في خانة المستحيل. على العموم حسبتك ستتحدث عن شيء اخر، عن المطلب الاكثر انسانية. قالها وغمز بعينه مبتسماً ابتسامة ذي معنى ادركها كنعان.
- مطالبي الاكثر انسانية تلح عليها ذاتي وبصعوبة أخرسها فلا تذكرها بها، لا تدعها تتقوى عليّ، دعنا منها.

رد عليه وهو يتطلع لرفيقه بنظرة كانت تقول "دعك يا رفيق".

- اقنومك الثالث يصر أن لا يظهر.
- ديني انتصب على قائمين وانتهى. اقنومين وانتهى. انه عكس "دست" اللحم الذي يحتاج لثلاثة. دعنا من ذلك.
- هل تخطر منى على بالك أم انزاحت نهائياً.
- الماضي والتاريخ لا ينزاحان! بقيت لها صورة مشوشة، نتف من ذكريات، ضحكات ومشاحنات وهمسات... نبيذ في ساعات الخلوة وافطار الاثارة في

ساعات الصباح. لكنني لا احلم بها مثلما لا أتنازل عن مكونات تاريخي وشخصيتي وهي من هذه المكونات.

- هل خطر في ذهنك ... اعني هل تفكر بمستقبل التجربة.

تطلع كنعان لرفيقه باندهاش فيه حيره.

- هل قرر الحزب استجوابي؟ ما قصتك معي اليوم.

ضحك رفيقه ملء شدقيه وفتح الثلاجة وتناول حبة بندورة كبيرة

- كل ما هناك انني أريد ان اسمع ما يدور بخاطرك، هل فكرت بمستقبلك كمتخف؟

- وهل ينقصني الوقت كي افعل؟

كان أنهى تقطيع حبة البندورة، وضع السكين على الطاولة، وازاح الصحن جانباً وتطلع إلى رفيقه الذي يقف عند الثلاجة يقضم حبة البندورة الكبيرة بنهم، وتابع

- اسمع لا ارى سوى اربعة احتمالات، اما الاعتقال واما ان ننجح باقامة دولتنا وأنا حي فاتحرر من بين جدراني علماً ان الدولة ابتعدت كثيراً. واما ان اقول "تعبت تدبروا امركم معي"! أو تقولوا "احزم امتعتك سنرحلك لا نستطيع حماية تجربتك بعد" واخيراً يبقى احتمال ان اموت بين الجدران لسبب ما.

- الاحتمالات الثلاثة الأولى معقولة، دعك من الاحتمال الرابع.

- لماذا؟

- لا استطيع نقاشه بل لا استطيع حتى سماعه ولا تتحدث معي عنه. دعه جانباً.

- لكن كنعان كان ركب رأسه:

- انه احتمال ويجب ان تاخذه بعين الاعتبار.

كان رفيقه انتهى من قضم حبة البندورة فقال جازماً.

- لن اخذه وكفى!

- أنت حر ولكنني آخذه وافكر به. بالمناسبة كانت تملكته الرغبة بالمناكفة!- هل سأعامل معاملة الشهيد ان مت ميتة طبيعية في تجربتي هذه، ذبحة صدرية مثلاً أو بسرطان يغزو خلايا دماغي، هل تنشرون بين الجماهير ملصقاً وتكتبون تحته "المجد والخلود للرفيق الشهيد كنعان صبحي!".

- دعك من المزاح فمزاحك هذا يوتر اعصابي. كيف ترى تحملك لسنين قادمة في التجربة.

جلس كنعان على كرسي، اشعل سيجارة وظهرت الجدية على ملامحه.

- سأتحمل وبامكان الحزب ان يثق بذلك فقد اعتدت الانتماء للاختفاء كحياة مع انه خيار نضال لا خيار حياة. اخشى ان لا استطيع مفارقة الجدران يوماً - وابتسم- يعني تعودت على لعنه الوالدين هذه. بت اخشى انني اعشق حياتي هذه كما لو أنها امراة احلامي.

كان مزاجه يخفي جديته. ملامح وجهه قالت ذلك، رفيقه يعرفه ويعرف ما يقوله من خلال كلمات السخرية وجمل المزاح. واكمل:

- لا رومانسية في النضال ولا رومانسية في هكذا حياة بل حرمان وقسوة وتحدي، طبعاً الحياة هذه ضرورة لا متعة وتعرف موقفي هذا فقد سبق وتناقشنا به، انما لنقل وعبّ نفساً طويلاً من سيجارته- التجربة غدت جزءاً مني وأنا جزء منها، هي أنا وأنا هي بالضبط كما خاطب الصوفي الكبير، الحلاج خالقه! [أنا أنت وأنت أنا كلانا روحان حلا في جسدٍ واحدٍ]! لا اتخيل نفسي دون حياتي هذه اللعينة بكل ما في الكلمة من معنى. ربما تتعبني صحياً وربما تترك لدي تشققات نفسية لا اعرف ما هي ولكن ان اضطررت لتطليقها فلن افعل الا بحلول عام الالفين وبضعة ايام وليس قبل ذلك.

كان يتحدث عن تجربته الآن ناطقاً بمراس تسع سنوات من المعاناة والنضال والقسوة والمهام سنوات شكلته ومضت!! اين حديثه الآن عن حديثه في شهوره الأولى.

- **ستعتاد!**
- **كيف؟ انتم لا تعرفون عما تتحدثون، كسيف اعتاد على اللاحياه؟**
- **بل نعرف اكثر منك. تجربة الجماعة اكبر من تجربة الفرد. سيمضي ذلك ولن يبقى في الدار غير حجارة، ستذكر ما تقوله الآن وتضحك. كن رجلاً وتحمل.**

اعتاد وهو ينطق الان باسم ما حفرته في نفسيته وعلى جلده لا باسم ترددده وضعفه وذاته المهتاجة. كان الحزب يعرف الكثير والكثير، كل ما عاناه، كل ما ارتسم امامه في سنيه كان الحزب توقعه. الجماعة دائما تملك تجربة اكبر من الفرد. تحمل كنعان وتحمل اعواما ثمانية مرت وها هو يقتحم التاسعة متحدياً قسوتها ومنتمياً لساعاتها وايامها التي سيعيشها نضالا وتحد كما الاعوام التي قبلها.

وعامه التاسعة منذ مطلعه حافل، الازمة مستحكمة في بلد الاشتراكية الاول، حرب طاحنة وهزيمة عسكرية للعراق، عربدة امريكية على المنطقة، مشروع بيكر، م.ت.ف على اعتاب انشقاق... ضحك وضحك مراراً على نزقه وخفة سلوكه وتعبيراته المتوترة التي كان يقذفها بوجه من يحدثه، يخطها على صفحات رسائله المرفوعة للحزب، تحمل حتى بات يجزم انه لن يطلق حياته ان قدر له ان يطلقها الا بحلول عام الالفين وبضعة ايام وليس قبل ذلك.

- ولماذا الالفين؟ ولماذا بضعة الايام بعده؟.

سال رفيقه بدهشة وعلائم تساؤلاته بادية على وجهه.

- الالفين مناكفة بالشيوعي المزيّف غورباتشوف القائل "خطة التنمية الاجتماعية الاقتصادية الاستراتيجية حتى عام الالفين"، لانجاز ما اسماه اعادة بناء

الاشتراكية. النتيجة ما ان مضت خمس سنوات حتى دمّر الاشتراكية ومهد الطريق لعودة الراسمالية. أنا بالمقابل وتأسيّا به ولكن على النقيض منه وضعت خطتي الخاصة بي خطة التخفي والحياة السرية حتى عام الالفين وبضعة ايام، لتاكيد تجربة حزبية ثورية لبناء نموذج سري.

- ولماذا بضعة الايام بعد الالفين؟

سال رفيقه بتعجب وابتسامة على وجهه تشي بفرح داخلي لا محض سرور عابر.

- حتى اقول لمن يسأل "متى اختفيت؟"، اختفيت في القرن الماضي العشرين وانهيت الاختفاء في القرن الواحد والعشرين. اليس ذلك مغرياً ويستحق التضحية؟

كان عاد سريعاً لمزاحه الذي يخفي وراءه جديته. بدا منتشياً وهو يتحدث عن (قرنيه) كأنه ينطحها برأسه، بارادته. القى بالسيجارة بعد ان وصلت جمرتها كالعادة لعقبها فلسعته!

- ذلك مغرٍ ومغرٍ جداً، يعني ستكون امضيت ثمانية عشر عاماً فاية تجربة؟ ستكون عندها جاوزت الاربعين اليس كذلك؟ [هز رأسه كنعان موافقاً] ولكن اين اقنومك الثالث من خطتك؟

- لعنة الله على اقنومي الثالث وعلي عندما اعلنت ديني الثالوثي – ثالوثي المقدس. دعنا منه، الا تشتم رائحة الملوخية بالثوم المقلي تعبق؟ تذكر اقنومي الثالث يفقدني شهيتي وتلك كارثة، فالملوخية مع فلفل حريف يا رفيق زينة الحياة الدنيا خاصة عندما تكون من القطفات الأولى.

- ستحل قضيته، اعني اقنومك يوما ما. بعد الاكل نتحدث اذ لدي ما اقوله،

علق رفيقه بتعاطف ظاهر واكمل وهو يبتسم.

- وان لم تحل القضية تترهبن- اليس لديكم نظاماً للرهبنة؟

- الرهبنة تصلح لمسيحي تمتلك عليه الحياة الاخرة حياته فينتمي للمسيح، اما أنا فماركسي هل نسيت -وابتسم- تمتلك علي الحياة الدنيا حياتي، فانتمي للثورة. اما بخصوص المستقبل.-هز رأسه مع ابتسامة ساخرة لا مبالية- فالجملة قالها الحزب قبل تسع سنوات عندما اختارت مني صاحب المركز بديلاً لرجل النضال "لا تبتئس فالمستقبل امامك واسع!". لقد وجدته يا رفيق اضيق من ثقب الابرة. باختصار آن حُلت قضية اقنومي الثالث فساكون اكملت ديني -ومضى للطنجرة- واخذ يحرك الملوخية بمغرفة خشبية. وان لم تحل فساغني مع ام كلثوم ما نظمه أبو فراس الحمداني "اذا مت ظمآناً فلا نزل القطر"، وساعتبر كل الاقانيم الثالثة في العالم وكذا نون النسوة وتاء التانيث معادية ومتامرة ضدي وسالعنها ليوم القيامة وبالنهاية يمكن العيش مع دين غير مكتمل.

قال جملته الاخيرة باستسلام بادٍ لظرفه الذي حرمه من اقنومه الثالث وحمل الطنجرة قائلاً:-

- والان دعنا نتعشى اما بعد العشاء فساتحفك بعقباي المفضلة "تماري" مع "بلوظه" مقلية بزيت الزيتون البلدي. امي خير من يصنعها، علمتني اياها السنة الماضية.
- عظيم - قال رفيقه وهو يمط شفتيه- ملوخية وبعدها تماري يعني "سنرتكب مجزرة" على حد تعبيرك! انسب شيء لك ان تحافظ على مزاجك المرح فأنت تحتاج اليه، كل ما يحيط بك، كل ما تعانيه يتطلبه فعلاً. دعنا نتعشى، لاساعدك!

لم ياكل بشهية ولم يرتكب مجزرة! لم يتلذذ بزينة الحياة الدنيا ولا بالتماري على طريقة والدته! حديث الاقنون الثالث طرد شهيته، كان مزاجه قد تعكّر.

موّهت على نفسها جيداً خشية ان تراها ساكنة البيت الملاصقة لوكره فقد كانت تعرفها وتعرفه ايضاً. ذات التمويه التقليدي، منديل يغطي الراس وبعضا من جنبات الوجه، ذات النظارة الشمسية الغامقة. ما ان نزلت من سيارة هشام وشبرعت بالسير في الممر المؤدي للباب الأول حتى خفضت رأسها زيادة في اخفاء وجهها.

منذ مطلع العام وهي تلح على هشام ان يرتب لها لقاء وهذا لا يرد الا بما اتفق عليه مع كنعان، كلمات صماء لاتراعي رغبة الام الجامحة لرؤية ابنها [مشغول ولا يستطيع استقبالك، يبعث بسلامه لك، ان اردت ارسال أي شيء ساخذه معي ...] تبعث بصررها ولا يكفيها، تطلب عناقه وقلبها شان قلب اية ام لا يعرف الا التوجس والخوف عليه، حتى عندما تفرح له لسببٍ ما فيسارع قلبها ليعود لطبيعته المتوجسه خوفاً من ان يزول فرحها بسرعة! [منذ اربع شهور لم اره قلتم الحرب وقلت معقول صعب في الحرب، الحرب انتهت منذ شهرين، الا يتوقف الحزب والشغل ٤-٥ ساعات؟؟؟] سؤال منطقي ودامع. لا تعلم انه لا يرغب ان تاتيه وقدمه لا زالت تعاني من بقايا الالتهاب ومشيته عرجاء. سريعاً ما تستسلم [طيب سلم عليه ومر بعد الظهر عندي بحجة انك تريد كتاب من المكتبة وساعطيك بعض الاغراض. ساعد له ورق عنب مع الدجاج فمنذ زمن لم ياكله، هل اجهز له زجاجة عصير جزر من اجل عينيه؟؟. السوق مليء بعصير الجزر، ساشتري له، قاطعها] [بلا سوق، بلا هم، عصير السوق لا ينفع] قررت والتزم.

دلفت الباب الثاني فتلقفت رأسه تشبع شفتيها تقبيلاً لخديه، هشام عبر خلفها يحمل كيساً.

- متى اعود اليك؟ عند الواحدة كالعادة؟.
- لا. تعال عند الثالثة، من زمان لم آت هنا.

خرج هشام وشرعت بالعمل. فتحت الكيس وبدأت باخراج محتوياته.

- خمسة شهور بدون لقاء؟ كل هذا شغل. يلعن الشغل ويومه. كان التوتر باديا عليها.
- كيف صحتك؟ قدمك كيف، وكيف معدتك؟ طبخت ورق عنب، منذ زمن لم تاكله ها؟ احضرت "ملاتيت" افطر عليها مع جبنة بيضاء وشاي، هذا نعناع بلدي من عندنا، المرة القادمة ساجلب لك اقراص زعتر بلدي. دع هشام يشتري لك زعتر بلدي وفته مع الجبنة وضع عليه زيت، قال لي هشام انك لم تشتر جبنة طازجة حتى اليوم، جلبت لك قرصين..

كعادته اما يهز رأسه مجاريا أو يبتسم متعجبا ومستمتعا أو يعلق تعليقا سريعا وهو يستمع إلى استجواباتها وتوجيهاتها وزجرياتها وتذمراتها من غذائه وحول غذائه، عمن ورطه في السياسة، من حياته بين الجدران وخلفها، من عدم زواجه ... تراجعت كثيرا في كل ذلك ولكنها لم تتوقف، في داخلها يستمر الغليان، تتقلب معها وهي تتقلب على فراشها كل ليلة، أو تتحرك معها في البيت فتذكره في غرفة نومه، مكتبه، عند الطعام... غدت هي الاخرى واحدة من مفردات وكره وحياته، مفردة لها كل المهام التي لا يضاهيها بديل في العالم! تسافر لامريكا شهور وتعود فتعود صلتها في حياته، فيحيا ما قبل سنة ٨٢ فينتعش قلبه ومزاجه عند لقائها ثم تسافر من جديد وتعود وهكذا منذ تسع سنين، كلما غابت عنه احس بوطأة الوحشية لافتقادها وما ان تدخل بيته حتى يخرج من حياته السرية لينتقل لمملكتها، بيتها القديم، ما ان تعود حتى يكتشف أنها كبرت سنوات في سنه أو بضعة شهور تروح وتجيء فتعود تمارس عاداتها السرية في لقائها معه، في اخفاء خروجها من البيت، في اخفاء امره عن اشقائه. اخذت تفهم قواعد السرية في حياته – اين مناسب ان يقيم؟ كيف يتحرك من بيت لاخر، ما الوسائل التي يستخدمها في تنكره عند ا لتنقل أو القيام باتصالات مع اناس لا يريدهم ان يعرفونه ...

البساطير والأحذية الرياضية لا تزال تجوس بيته، تعبث بمحتوياته الغرفة بجانبه، غرفة الماكينات وهو يتذكر رفاقه، امه. سمع فجأة الصوت الناتج عن تمزيق قماش بسكين حادة، ينغرس السكين ثم يسحب فيمزق فينتج ذلك الصوت الذي يوتر الأعصاب. الصوت قريبا منه، ادار رأسه يمينا للقدر الذي يمكنه من ان يرى ما يجري بقربه. كان بؤبؤ عينه اليمنى يجاهد ليرى ما يجري. البسطار الذي يقف عند رأسه لاحظ حركة راس كنعان، تحرك البسطار حتى لامست مقدمته خده الايمن فضغط ليعيد الراس لوضعه السابق كانت السكين لا زالت تعمل تمزيقا. [لانتظر ساكنا حتى يرحل، يجب ان ارى ماذا يفعل الحذاء بسكينه]. رحل البسطار

فعاد كنعان وادار رأسه لليمين من جديد. البؤبؤ بات يرى ما يجري، حذاء رياضي ينحني على الاريكة الطويلة في الغرفة، ويد مدربة تعمل تمزيقاً في قماشها وتنبش محتوياتها تفتيشاً وبحثاً امتعض وأحس بالسكين تمزق أحشائه، رآهم يمزقون بسكينهم الحادة يوميات حياته التي ما توقفت الا منذ ثلاث ساعات. هنا كان يجلس ويتابع التلفاز بعد العاشرة عندما يكون نقله لهذه الغرفة لا لسببٍ معين سوى الرغبة في تغيير نسق الحياة الروتينية التي يعيش. على هذه الاريكة كان "يعسل" بعد الغذاء يومياً لساعة واحدة بوضعية لم تتغير لسنين. عليها كان يجلس واوراقه معه ليقرأ ويكتب لساعتين أو ثلاثة دون ان يمل... هنا على هذه الاريكة الواسعة الطويلة والتي تمزق السكين قماشها... وتنهد! بدات ذكرياته ترشح، فعل التمزيق كان كدلو ينتشل ذكرياته من بئر ماضيه القريب، القريب جداً ويدلقها على حاضره المطوق بالبساطير والاحذية الرياضية والملوث بدماء تسيل من حاجبه ويديه المدميتين. لم تعتق احداث ماضيه هذا حتى تغدو ذكريات بمعنى الكلمة! لم يلحق ان يمر عليها الزمن عابراً فيسدل ستارته لينتزعها كنعان بين فترة واخرى ويسميها ذكريات! كان لا يزال يحيا احداث ماضيه القريب. قبل سويعات فقط قضمت اضراسه ولاك لسانه وازدرد اخر ما يذكره باسابيعه الماضية بذكرياته القريبة جداً جداً.

لماذا فعل التمزيق بالذات؟ اهذا وقت الاحساس بالتمزق؟!
انتحبت ذاته رفيقه تجربه وعدوته. تعتب وعتابها لاثم فلم يرد!

- **هنا التقيتما اول مرة وهنا التقيتما للمرة الاخيرة بين اللقائين تجربة قصيرة، ومضة فوسفورية، انه رشح الذكريات يحرقك كحامض كيماوي! افهم انك لا تملك ان تقرر ما يرشح من مخزون ذاكرتك، افهم ذلك، ولكن التمزيق، لماذا التمزيق، ما بك؟ لم يرد. تذكر كلمات اغنيتها، غنى مقطعها المحبب ودندنه في سره.**
- **كنعان يا حامل معاناتي لسنين، ما بك؟ هل نكأ الحذاء الرياضي جرحك جرحي؟!**
- **دعك من اغنيتها الان، دعك منها.**

قال واسبق كلامه بزفره هواء فتململ الحذاء الذي يمزق الاريكة ونظر اليه.

- **جرحك جرحي فأنا الآن ذاتك الثورية، أنا من يقول على طريقة الحلاج الشهيد [أنا أنت وأنت أنا كلانا زوجان ثوريان حلاّ في جسد واحدٍ يندس منذ سنين في وكره يحيا بين الجدران، يبتلع قسوة ايامه وحرماناتها ويناضل، يتامل ويتحدى]!**
- **اذن افهمي وتفهمّي ودعك من ذكرياتي القريبة.**

- يقولون الاغنية التي لا تنساها هي المرتبطة بمناسبة، بموقف، اغنيتها كانت موقفها!
ظهرت ملامح الامتعاض على وجهه مختلطة بالدم الذي ينساب من حاجبه ولا يتوقف. الملامح المدمية تنبئ بما يعتمر في داخله.
- موقف متردد شعاره (لكن)، وعد مزيف للهروب من حسم تحشاه. الحذاء الرياضي يطوقني وهو بقربي وسكنيه يمزق عالمي وذكرياتي، البسطار يخلع ابواب حياتي، يديرها، وبمقدمته يضغط على مخزن ذكرياتي القريبة المندلقة على حاضري. تريدين للحذاء ان يسجل افادتي، اعترافي عن صورتي ويطلب توقيعي؟ دعك منها.

تستمر ذاته تناكفه هو المطوق بالثكنة. عادت لتكون حرون مهتاجة كانها تعود في سنتها التاسعة لتؤكد سلوكها في سنتها الأولى.

- هل يمكنك أنت؟ بل هل يمكنني أنا؟ تذكرتها في الوكر قبل سويعات قليلة فهل ستنساها الآن؟ الزمن لم يلحق ان يجللها بستارته. جاءك البسطار يغزو ارضك المحررة – ارضنا المحررة وطعم قبلتها الاخيرة عند الباب على شفتيك لم يزل، فهل يمكنك نسيانها؟ كانت رغبتنا المشتركة منذ سنين فهل استطيع ان اشيح بوجهي عن ذاكرتها.]

(1)

صورته عيناها تضحكان بجرأة تشي سريعاً بثقة بالذات وقوة شخصية وانطلاق. ثغرها باسم دون تكلف وبطبيعية، كأن ابتسامتها ولدت معها، انطبعت عليها لحظة غدا وجهها جزءاً من راس الجنين. كانت عيناها متسعتي الحدقتين ودوما جحوظ، تكتشفانه. ابتسامة مندهشة رسمت على شفتين صغيرتين نديتين كحبيبات اللوز الربيعي الأخضر. ابتسامتها المندهشة وعيناها الضاحكتان اكسبا وجهها ملامح الفرح الطفولي. تصور كنعان رأسها يكاد ينفصل عن جسدها ليرقص بعيداً عنها فرحاً. ابتسم وهو ينظر اليها وتخيل رأسها لوحده منفصلاً عن جسدها، عيناه تتاملانها، تتفحصانها، تكتشفان تلك المنتصبة أمامه.

كان يحيا في وقفته تلك ولادة المرأة من الصورة. لذة لم تخلو من ارتباك داراه بابتسامة ليس فرحاً بولادتها امراة من الصورة فحسب، بل ولتخيله رأسها يرقص بعيداً عن جسدها.

- اكاد ارقص فرحاً، لماذا انا وليس غيري؟

قالت لاهثة، منفعلة، متعجبة تقذف كلماتها المتداخلة كقذائف سريعة.

- ولماذا لا تكوني أنت؟
- لانك أنت القصة، السنين، التجربة، الاسم، أنت، لا ادري؟
- أنت المرأة المولودة من الصورة في الخيال، صورتي منذ سنين وقد اكتست لحماً وعظماً، فغدت امراة.
- الم يكن قبلي امراة – صورة كما تسميها. عيناها تتضحان برغبة الكشف.
- كان لي ما تبقى من امراة، ما تبقى من صورتها، ضحكات ومشاحنات، همسات في ساعات الخلوة وافطار الشهية في الصباح، الإنسان طلبها والثوري رفض ضعفها، خاطبتني "بانتم" ولم تقدر ان تقول "نحن" فانتصر الثاني على الاول لتتحول المراة لتنف من صورة الإنسان في وكره. قبل ست سنين وقعت عيناي على فتاة الشمس والربيع، ولدتها الشمس من شعاعها الصباحي الاصفر وما تركت لها مكاناً تحتها، انبتتها الارض من حشائشها الخضراء اليانعة وحنونها الاحمر ثم دفنتها تحتها. ولادتها رائعة وحياتها بائسة، يدها مغلولة لا تقوى على دق جدران الخزان، خزان بؤسها وشقائها، طلبتني على صهوة حصان ابيض ولا تدري المسكينة انني لا املك حتى حماراً اعرجاً.
- أنا لست كفتاة الشمس والربيع. قالت بثقة.
- لذلك أنت في وكري. صورتي تخيلتها، رسمتها دائما امراة تحت الشمس لا تولد مع شعاعها فقط، امراة تقف فوق الارض ولا تدفن تحتها، تقدر ان تدق جدران الخزان، اما "الحريم" فجنس ثالث مآله الزوال شان الطربوش التركي وحجر الطحن اليدوي، لتبقى المراة تنتمي للعصر لا للتاريخ. المراة هي الكائن الوحيد الذي يجب ان يقطع صلاته بالتاريخ دون أسف فليس فيه ما يستحق نظرتها اليه.

خفضت عينيها المبحلقتين فبدت غريبة غير ما هي.

- **يجب ان تشيحي بوجهك لتساعديني ان افعل. يا من تدعّين ثوريتك ساندني كي امسح صورتها، انس ذكراها. أنا الثوري لا حاجة بي لها الآن.**
- **هل يمكنك مسح الصورة التي تجسدت للمرة الاولى والاخيرة في تجربتك ، حقيقة يتوسد رأسها كتفك وتداعب باصابع يدك التي تلتف حول عنقها خصلات شعرها؟ أنا لا يمكنني مسحها بل اطلبها. أنت لن تتمكن.**

كانت نبرة التحدي في لهجة ذاته تنم عن ثقتها بما تقول.

- **يجب ان اتمكن، لا بد لي. الصورة التي طلبتها فرحاً تمزقت نتفاً فغدت المأ].**

حذاء اخر يشارك الأول حمله التمزيق. ينتزعون محتويات الاريكة، يمزقونها نتفاً صغيرة وينثرونها على ارضية الغرفة. نتفاً من صورتها تتناثر هي الاخرى امام عينياه، ذكرى قريبة تحمل نتفاً من صورة فالتمزيق طالها هي الاخرى.

(٣)

نظرت بتعاطف حتى انهى شرحه.

- افهم افهم لماذا هذا الترتيب فانت لست كـأي انسـان، انـك لا تعيش فـي الحيـاة وهذا ما استوجب ما هو غير مـألوف لي. نلتق ونرى!! هذا غريب علي ولكنـي اتفهم، ظرفك، موافقة، موافقة ولكن ... سـأفكر.
- فكري!

الترتيب، لكن، اخشى، غريب عليّ] كلمـات عكسـت ترددهـا- حمـاس مـع عـزوف، اقبـال مـع خشـية. انجـذب لمـن تنتمـي للعصـر لا للتـاريخ، اذن فعليـه ان يتحمـل! ليسـت مثـل "الحريـم" تنتظـر الفـارس علـى الفـرس البيضـاء، تحتـار هـي فارسها وفرسه ايضاً، لها استقلاليتها التي اعتبرها دائمـا محـور شـخصية صورتـه التي تنتمي للعصر. اذن فعليه ان يتحمل! هـو بيـن الجـدران وليـس فـي الحيـاة. فـي الحياة لا صورة يحلم بها حتـى يلجـأ لترتيبـات وطـرق اتصـال ليـرى صـورتـه وقـد ولدت امراة! في الحياة لا يحتاج رجل وامراة للقرارات الحزبيـة وقواعـد وترتيبـات السرية كي يلتقيا!

تبالغ! تحب ان تمثل دور الشهيد. تاملت نفسك اكثر من مرة شهيداً، تحب دور الشهيد.

- **مرت سريعاً كوميضات برق يخْرق ظلمه نهار شتوي للحظـة لتختفـي سـريعاً. كسائحة كانت تزور بحراً تنتعش بنسيمه، بامواجه يوماً ثم عند الغروب ترحل مديرة ظهرها له هو الجاثم مكانه لا يـتزحزح، كمتعبـة ترحـل لجبلٍ تعّب مـن على قمته هواءاً عليـلاً لتـنزل بعد سـاعات لقطـاع حياتـها اليوميـة المرهقـة. صورتـها غدت نتفـاً، ابتسـامتها المندهشـة دائمـاً مصطنعـة، اغنيتـها موقـف متردد.**
- **تكابر! صورتها لم تتمزق نتفاً بل مكتملة هي، حاضرة بكل سطوعها، لمعانـها في ملايين خلاياك الدماغية، تسكر راسـك بحضورهـا. ابتسـامتها التـي تراهـا مصطنعة تنام وهي اخر ما يداعب خيالك الذي يرهقه تاملها. ابتسامتها تذكرك بكل ملامح وجهها، بعينيها المبحلقتين فيك بقـوة شـخصيتها وثقتـها بنفسـها، بانطلاقتها، بشفتيها الصغيرتين النديتين كحبيبـات اللـوز الربيعـي الاخضـر، اغنيتها تاخذك للحظاتها ساعة بساعة ودقيقـة بدقيقـة، لحظـات تلعب براسـك كالنبيذ البيتي المعتق].**

(٣)

- كيف تحيا؟ حدثني!
- وفق قانونين "لا تزر احداً، لا تستقبل احداً" اضفت لـه مـرة "ولا تفتـح شـراعة الباب لعجوز بيراوية" والاخر "اجراءات، تحوطات، تطلبات، وقواعد". وبين هذا وذاك أناضل واطهو، أنام واحلم اغني واتامل، اتقافز من وكر لاخر، اهرب من المصادفات السيئة بدعاء امي قبل تسع سنوات [رح يا بني الله يرضى عليك] اشعر بالملل واحدث الجدران احياناً، اعمل فاتعب، اضحك واشتم. قبل ذلك وبعده مهماتي تمتلك علي تفكيري ونضالي هو حياتي. ذاتي الامارة بالسوء قاتلتني فهزمتها فكتمت.
- والوحدة؟
- انتمائي للجماعي يمنعها ان تقتلني. منذ تسع سنين وهي رفيقتي.
- هل ستقنعني بانك لا تتضايق من الوحدة؟
- قلت لا تقتلني ولم اقل لا تضايقني.
- اذن كيف هي؟ كيف يمكن العيش معها طوال هذه السنين؟
- حسناً، الوحدة لا اراها بالعيش وحيداً بين الجردان، هي وحدة الإنسان الذي يفتقد الاخر والذي بافتقاده يفتقد انسانيته، يحس أنها غائبة فينطوي على ذاته يجادلها، يحاورها، يساومها، يخرسها، لتنهمد فيه، فيحيا وحيداً مع ذاته المنسحقة، الحرون في داخله. ليست الوحدة ان لا نجد من نتحدث معه بل ان لا يجد الإنسان فينا نفسه مع الاخر.

نطقت عيناها بالحيرة وان ظلت مبحلقة. كانت تفكر.

- أغياب المراة هي اذن! والنضال والمهام الحزبية، اين الحزب والرفاق؟
- موجودون ووجودهم يمنع الوحدة ان تقتلني!
- الا يعوضك ذلك؟ الا يعفيك؟
- لا شيء يغني عن نون النسوة! هي نقيضنا الذي به نكتشف نحن الرجال انفسنا. فهل يمكن ان استغني عن نفسي مثلا؟
- ورهبان الاديرة الا يحيون بدون المراة؟ هل استغنوا عن انفسهم؟. سالت باستنكار.
- انني اتحدث عن الاحياء لا عن الاموات!
- كنت ساجن لو ان اختيارك وقع على غيري.

اختتمت نقاشها بجملتها التي قالتها وهي تلقي برأسها على كتفه ...

الآن، منذ الآن لن اغني اغنيتها، لن اردد مقطعها، يعوزني شيء اخر، ساغني مع شيخي العزيز على قلبي:

حنغني ودايماً حنغني ونبشر بالخير ونمنّي
ونلف الدنيا الدوراة على صوت النغمة الهدارة
ومعانا المشرط والبلسم بالكلمة الصاحية النواره
هو احنا كده وحنبقى كهفاهمين عارفين، مع مين على مين
دايماً صاحيين مش من دا وده

- **لا تناقض بين الثوري والإنسان في الشخصية المتسقة، لا تناقض بين شيخك العجوز الثوري وبين فيروز. هل نسيت [الغزالة والبندقية، الصخر والتفاح]* الثوري يمحي الفارق بينهما**
- **اعلم اعلم. ولكن لكل لحظة اغنيتها، لكل مرحلة اغنيتها. اللحظة والمرحلة تتطلب الشيخ امام لا فيروز- لحظة الثكنة المحيطة بي ومرحلة مواجهة جديدة ادخلها.**
- **التمزيق والاريكة ذكرتك والذكرى أيضاً لها اغنيتها، تطلبها.**
- **ساجمد ذكراي ولو في هذا المناخ الصيفي الحار. اصر كنعان**
- **لن تستطيع. ان هربت من عينها قابلتك ابتسامتها، ان هربت من هذه وتلك فامامك اثار قدميها المبللتين الباقية على بلاط بيتك. اين المفر يا من اندسست بين الجدران حصوراً لسنين؟ عينان وابتسامة وقدمان مبللتان تطوقك كما الجند حول بيتك، كما البحر والعدو واليابسة لدى طارق بن زياد فاين المفر؟**

اينما توجه كانت اثارها باقية فاين المفر؟ في المطبخ تغذيا معاً ما تحب، لبناً كشكاً مع اللحم والارز. في الغرفة التي يلقى بها هشام مقيداً تناقشا طويلاً حول الحزب، الانتفاضة، الحياة، حرب الخليج، الاعلام والصحافة، الانتخابات البلدية والسياسية، تناقشا في كل شيء. على الشرفة الشرقية جلسا ليلاً يستمعان لشريط فيروز الجديد "كيفك أنت" ورأسها يتوسد كتفه. في كافة انحاء البيت اثار قدميها باقية وهي تسير حافية مبللة القديمين!! على هذه الاريكة نامت كالاطفال مرة عندما حضرت متعبة من يوم مرهق. اينما ذهب فاثارها تدق باب ذكرياته وتقتحمه.

- **لن تستطيع [كررت ذاته متحدية]!**
- **بل أستطيع [قال باصرار]**
- **إذن هو الخصام من جديد! عدنا لألاعيب السنة الأولى! حتى متى يظل التناقض بيني وبينك؟**
- **غدوت ثورية فتعلمي الدرس جيداً ولا تتحديني. لم تكن بيني وبينك ألاعيب بل متاريس قتال.**

- **لسنا الآن خلف متاريس متقابلين كما البدايات.**
- **أنا ثوري**
- **انا الانسان** ***فيك لذلك اطلب صورتي*** ***انا***
ن. اريد ان افرح.
- **لا يفرحني ذلك فاخرسي ولا ترهقي دماغي**

تململ كنعان تحركه صبغ وجهه بالدم المنساب للارض. تقزز من دمه وقد لامس شفته وخورنمته.

- **عدت لسلاطة لسانك ولفظاظتك معي. متى تكف عن ذلك؟ تدعو مصالحتي وتشتمني؟ أنت تشتم ذاتك وتشتم الإنسان فيك!. رد عليها وقد كاد يصيح.**
- **ذاتي ان حاولت طعني من الخلف اطلق النار عليها. أنت دائماً امارة بالسوء. انتزعه صوت من حواره مع ذاته. عدّل من وضع رأسه واختلس النظر للجهة التي صدر منها الصوت. كان الجنود انهوا فتح ثغرة بالدار الذي يفصله عن جيرانه [قلبي معكما ايتها الطفلتان الصغيرتان، لا باس، فالمنطقة المخصصة للذاكرة في راسيكما الصغير لا زالت تتسع للكثير من الذكريات. تذكرا هذه الليلة جيداً وتعلما الحقد، تشربا به.**
- **اعذرك فانت متوتر وتفرغ توترك وتلقيه عليّ، في وجهي [قالت ذاته بلهجة مصالحة] سنين وأنا أنازل امامك، أنا الإنسان، أنت الثوري ومع ذلك تريد ان تعدمني، تعدم الإنسان فيك؟ أنا أنت فهل ستعدم الإنسان فيك؟ انتنحر؟ هل تحجرت، تيبست لتقتل الإنسان فيك، هل تشققت نفسيتك ام ذوت مشاعرك؟ لم تكن هكذا معها، كنت رقيقاً، قالت هي ذلك فلماذا يظهر الآن تيبسك وتحجرك؟]**

(٤)

- **اتعرّف** يومياً على حياتك وعليك. منذ اسبوعين اكتشف فيك كل يوم شيئاً جديداً ودائماً سيظل السؤال يصرعني، كيف تتحمل قسوة الحياة؟ الا تشتاق للسير في الشارع، للاهل للرفاق، للاصدقاء .... كيف تحمّلت كل ذلك؟
- طبعاً اشتاق ولكنني اتحمل. ليست حياتي ممتعة ولكنني جبلت على تحمل القسوة. الإنسان لديه طاقة جبارة تنميّها القناعة الايديولوجية وعادة لا يكتشفها الإنسان الا حينما يقرر خوض المعركة، وهو في معمعانها، كل شيء يتوقف على قراره هو، ان قرر فعل المستحيل، ان تردد وتلعثمت عزيمته انهار، لا حل وسط! اما نكون بمستوى الثورة، أو لا نكون! العمل السري والاختفاء هما بمستوى الثورة. اما ان نخوض معركة الثورة اليومية كل في مجاله بحرارة أو ننهزم! ستهزمنا عزيمتنا المنهارة قبل ان يهزمنا عدونا.

- لكن الانتفاضة تراجعت كثيراً والثورة رحلت من لبنان وانتهت كظاهرة علنية مقاتلة... الدولة ابتعدت، والاشتراكية تنهار والعراق انكسر، والمنظمة ستذهب لمؤتمر اقليمي عنوانه حكم ذاتي ... فاين هذا مما تقوله؟
- تلك عناوين المرحلة – مرحلة التراجع والانهيار ولكننا موجودون قبل الانتفاضة وسنظل بعدها، الشعب الذي صنعها وصنع بعدها ثورته، قادر على ان يجددها بعنفوان اكبر والمنظمة ستذهب حيث تشاء انما نحن لن نذهب الا لمكان واحد:- اهدافنا الوطنية وحتى نصل اليها علينا التمسك بالمنطق الوحيد الصحيح والحقيقي، الثورة.
- اشعر احياناً ان الحزب وموقفه الثوري في واد والامور تسير تجاه واد اخر، تتحدث عن مشروع ثوري وكفاحي وقيادة م.ت.ف تتحدث لغة اخرى، التسوية السياسية والمؤتمر الاقليمي. أنت تتحدث عن عمل سري واختفاء فيما الساحة تتجه لتعزيز العلانية. شخصيات علنية تفرخ كل يوم كالفطر. قوى واتجاهات تتحول للعلنية، بعضها يدعو للعلنية في ظل الاحتلال، الا ينعزل الحزب؟ اننا نسير عكس الاتجاه، عكس التيار.
- ولكن ليس عكس التاريخ! ما تقولينه يؤكد تميزنا كحزب ثوري، تميز هويتنا، اقراي مهدي عامل تفهمين ما اعنيه بالضبط. تميزنا ليس برنامجي بل وعملي أيضاً، نناهض التسوية بالكفاح، نناهض العلنية وامراضها ببناء نماذج لتجارب سرية نعمل على تعزيزها وتطويرها. نناهض تفريخ وتلميع قيادات لا رصيد لها، ببناء قادة ثوريين تصقلهم التجربة وصعوبات النضال، نرفض القائم ونسعى لبناء البديل لاننا نحن في التاريخ نشكل بديل .
- لكننا ننطح رأسنا بالصخر ، نسبح عكس التيار.
- الثورية سباحة عكس التيار هي عدم التصالح مع ما هو قائم. إن فقدت الثورية هذه الروح النقدية التمردية تحولت لثورية مجهضة، مخصية. تماماً مثلها مثل الرجل العنّين يسعى ليجامع امرأة شبقة فتفضح رجولته المزيفة من الثانية الأولى. هكذا ثورية متصالحة مع الواقع ينكشف زيفها عند اول معركة فتهزم ، اما مناطحتنا الصخر فتلك وظيفتنا كثوريين منذ اجدادنا الاوائل، منذ سبارتاكوس قائد العبيد مروراً بقرامطة الدولة العباسية حتى جيفارا الراحل لبوليفيا ليصنع ثورة وصولاً لامتشاق شعبنا السلاح ليتحدى سادس قوة عسكرية في العالم .
- كل الثوريين ناطحوا الصخر وفتتوه رويداً رويداً بالجلد وطول النفس والصبر، وهذه كلمة السر هنا ، اما مثلنا الشعبي [الكف ما بناطح مخرز] فذلك شعار كل من يريد ان يسقط من النضال ويبحث عن مبرر . كفنا يجب ان يناطح المخرز حتى نكسر رأسه ، ستندمي الكف لا بأس فهل نبحث عن استقلال وتحرير ونتوقع طريقاً مفروشاً بالورود؟ المرحلة صعبة وصعبة جداً ولا مجال

فيها إلا للصمود . أما مرحلتنا فآتية ولا أعرف متى ، انما ستأتي وتعبنا لن يذهب سدى.

استمعت بانتباه شديد وان بدا عليها أنها لم تأخذ بكل ما قاله.

- أنت البديل لمن اراهم حولي ، السري مقابل العلني ، الثورية الصافية امام الدجل المستشري، ادخل وكرك فاترك عالماً لاحيا معك عالماً آخر.
- احذري ان تري عالمي برومانسية، ثوريتي ليست رومانسية، كما تجربتي ايضاً. تجربتي عمل ثوري يومي متعب ومنهك للاعصاب يؤسس شانه شان تجارب الالاف من الثوريين الفلسطينيين، اما انني كتجربة اشكل بديل عمن ترينهم فأنا صورة الحزب امامك. هكذا انظري للامور ومن ترينهم فصورة للانحطاط.
- افكر بذلك كثيرا، اعني مجيئي لهنا، مشروعك، لقاءنا، احتمالية ان نرتبط معاً، هناك اكون في عالم اخر، هناك عالم النجومية اللامعة.
- هل تريدين عالمي، ام العالم الاخر وما ينسجم وبعض متطلبات مهنتك وعالمك؟

تعمد ان يسالها مباشرة وبصراحة. هكذا دائماً يجب ان يطرح القضايا الحساسة، عيناه تنغرسان بعينيها وتوحيان بجدية سؤاله.

- اريد عالمك. اليوم وأنا قادمة اليك خطر بذهني احتمال ان لا اتى مجدداً لسبب ما، فاقشعر بدني ولم احتمل التفكير بهكذا احتمال.
- وهل تستطيعين تحمل التبعات؟ اعني تبعات الارتباط بعالمي وبمن يحياه؟ تلك قضية ليست سهلة. عاد ليسالها بصراحة جافة.
- استطيع الارتباط بك، بتجربتك، بحياتك، كل ذلك يجذبني ولكن هل سيؤثر ذلك على حياتي، مهنتي وعملي؟

سالت نفسها ولم تجب عن سؤالها. كانت تفكر بصوت مسموع لا اكثر. الحيرة ظاهرة في عينيها. لم يسال كنعان مزيداً من الاسئلة التي تتطلب اجوبة لا تقبل القسمة على اثنين. احترم حقها ومحاولتها للخلوص لاجابة. غرق في التفكير وهو يستشعر انكسارا ما، ساد الصمت على جلستيهما معا ...

- **[أنت لم تتنازلي بلك سحقتك، اخرستك، هزمتك! سحقت واخرست وهزمت الإنسان الذي كان يشدني عندما كانت ثوريتي رومانسية حالمة هشة كالزجاج! تذكري ذلك جيداً.**
- **كان مستمراً يتصدى لذاته حتى ساعاتيهما الاخيرة في الوكر.**
- **لا بل تنازلي أنا الإنسان امامك أنت الثوري هي العنوان الابرز لتجربتك. انما حسناً سمهما ما تشاء، سحقت، اخرست، انهزمت، اعدمت مرات عديدة،**

ولكن الا تنفذ اخر طلب لي في تجربتك التي تنتهي بين لحظة واخرى؟ استحضر الصورة، الاغنية، الابتسامة، أنا الإنسان اطالبك، لا تخذلني.

- **لن افعل، لا استطيع نزع ذكرياتي مهما كانت قريبة فأنا مطوق، أنت مطوقة، هشام ثالثنا والذكريات رابعنا، كل ما هو حولي مطوق. وقعت بين ايديهم وكلهم معي.**
- **انتزعت كل شيء من الطوق، من تحت بساطيرهم، من ثكنتهم العسكرية حول بيتك. حررت حوارات الحزب معك، الانتفاضة،حرب الخليج، المتباريس المتقابلة لي ولك حتى (افطار الاثارة) حررته تجاعيد خدود امك، صدرها الدافئ، استجواباتها، كاس نبيذها البلدي، قلمك، اوراقك، كتبك، فتاة الشمس والنافذة ... كل حياتك، فهل تستسلم الآن وتترك هند صورتها، اغنيتها، ابتسامتها بين ايديهم داخل الثكنة، تحت البساطير، استحضارك لها، تحريراً لها، استحضرها، حررها، قاتل لانتزاعها.]**

(٥)

عانقته وسقطت من عينها دمعة على خدها. مسح دمعتها وقبل عينيها.

- لماذا البكاء؟
- فرحة، فرحة بك!. جلست واسندت رأسها على صدره بوداعة.
- اجمل لحظات سنوات تجربتي كانسان اعيشها معك.

تساقطت كلماته منه، دون ان يقررها، كطفل يحدث امه.

- تلقائيتك تورطني، تضيعني!
- لن اتزيف واتصنع!
- حذار ان تفعل! ولكن مشاعرنا تتدفق سريعة، كل هذا في شهر!
- منذ متى يجدول الإنسان تدفق مشاعره وفق تقويم محدد؟
- ولكنني اخشى على نفسي منك، اخشى عليك مني. انني مجنونة!
- أنا أحيا الجنون منذ سنين، معك يكتمل جنوني – ديني الثالوثي.
- سأتعبك! من يحبني يتعب.
- اعتدت التعب!
- أنت لا تعرفني جيداً!
- لذلك أنت هنا، اصبحت من مفردات وكري!
- ماذا عرفت عني؟
- ما يكفيني لاقول [وجدت فيك صورتي التي كونها خيالي المتعب منذ سنين؟]
- وكيف وجدت صورتك؟

- مجنونة متعبة وجميلة، لـها مكـان تحـت الشـمس وتحسـن دق جـدران الخـزان، عيناها مبحلقتان وابتسامتها مندهشة وقبـل هـذا وذاك شـفتاها صغيرتـان نديتـان كحبات اللوز الربيعي الاخضر.

ان فعلـت اخشـى مـن الذكـرى والمـها. لا اريـد ان اتـرك وكـري وشـعور بالتمزق يتملكني. لا اريد ان اخرج من باب وكري والبسمة تفارق شفتي! لا مجال للالم، الآن فقط التحدي والمواجهة ما اريد، هذا فقط!

- **قد شرعت بـها منـذ طوقـوا بـاب بيتـك واخـذوا يمارسـون طقسـهم الوحشـي، معركـة الاوراق، مواجـهتك الأولـى. لا مكـان للتمـزق والالـم فيـهما. واجـهت وتحديت وطعم رسالتها في فمك، قوتك باديـة فمـاذا بعد؟ تسـلح بابتسـامتها ستمنحك القوة، ابتسامتها جميلة وستحتاج لمـا هـو جميـل تواجـه بـه بشـاعة وقبح مـا سـيواجهك. تذكـر مقطـع اغنيتـها وهـي تغنيـه فرحـة فذكـرى الفـرح ستعوزها في اقبية التحقيق أو في حافلـة تنقلـك خـارج الوطـن وحتـى بـالفرح تسخر من حبل يتدلى ليشنقوك ثـم يقولـون انتحـر! احمـل الفـرح، الابتسـامة، جمال اللحظات، الاغنية فوق كل ما تحمله وستنتصر في مواجهتك المقبلة. كل ذلك يبعث علـى التفـاؤل. الـم تقـل لرجـل المخـابرات قبـل سـاعات [أنـا ثـوري فلسـطيني متفـائل!] فتفـاءل تنتصـر، تشـاءم وابكـي ذكـراك وطوقـها بـالحزن تنهزم، هل تريد الهزيمة؟**
- **لن اهزم، تلك مسالة مفروغ منها منذ خمس سنين. سانتصر ذلـك متيقـن منـه مثلما أنا متيقن من انني كنعان صبحي، لكن لحظاتها الجميلة ، اجمـل لحظـات سنيواتي التسع حولتها للحظة الم في لحظة كان يمكن ان احملها معي كـاجمل لحظات حياتي. اتذكرين يا ذاتي، لم يلحق الزمن ان يهيل التراب على لحظتـي تلك، كيف استحضر اللحظة الاكثر ايلاماً في تجربتي؟**

كان يحادث ونبرته تشي بالم عميق، دفين في جوفه.

- **عدت للمبالغـة تتحسـس مـن كـل شـيء، تعيـش بحساسـية، تفكـر بحساسـية، وتشعر بحساسية. ستقتلك حساسيتك يوماً ان بقيت هكذا!**
- **تحسسي كان تعاطفـاً معك! السـت ذاتـي التـي طلبـت وطلبـت؟ حتـى سـاعاتي الاخيرة لا زلت تطلبين وتطلبين؟ كنت اريـدك ان تفرحـين أنـت التـي انسـحقت بين الجدران. كرهت ان تؤذيك فـي لحظـة مـا! رغبـت ان يخـرج الإنسـان فـي داخلي من وحدته، ان تكتشفي الذات الاخرى فتكتشفين نفسك. ما نسيت يومـا الثمن الذي دفعته ولا التضحية التي قدمت منذ سنين طويلـة. سـعيي لاقنومـي الثالث سعيٌ لفرحك أنت التي ما فرحت يوماً، سعيٌ للاخر الذي طالما طلبته.]**

(٦)

- هيا لنغني مع فيروز.

قالت فجأة كانها اكتشفت فيروز لتوها. مدت يدها فضغطت على مفتاح تشغيل المسجلة فانطلق الصوت الملائكي الساحر. كانت احضرت له الشريط الجديد "كيفك انت" واسمعته اياه مرات ومرات، غنت اغنياته مع فيروز مرات حتى تحول الشريط هو الاخر بالقوة لمفردة جديدة من مفردات حياته!! كانت تغني مع فيروز فرحة وهي تتطلع اليه وتحرك رأسها وعيناها تفيضان بالشهوة، مظهره انفعالاتها محاولة اتقان انفعالات المغنية ومخارج الحروف من حلقها، كانت في اوج انوثتها المتفجرة!

- غني معي، غني. ناشدته!
- احب ان اتطلع اليك وأنت تغنين. عيناك هما اللتان تغنيان لا أنت، عيناك اللتان اسرت بهما منذ اكثر من شهر!
- إنسَ عيناي!. زجرته بدلال وتابعت:
- غني، غني

بكره برجع بوقف معكنْ اذا مش بكره اللي بعده اكيد
انتو احكولي وأنا بسمعكنْ حتى لولا الصوت بعيد!

- اغنيتي غير هذه. اقنوني الثالث تناسبه اغنية اخرى.
- ما هي؟
- هي اغنية مارسيل خليفة صاحبك وكلماتها لدرويش صاحبي:

انني ارتشف القبلة
من حدّ السكاكين
تعالي ننتمي للمجزرة!

مدت يدها، ادارت مفتاح المسجلة فخمد صوت فيروز. قبلته بشهوة مندفعة وعيناها دامعتان، فرحاً، حزناً، تعاطفاً، شوقاً، حسرة ... لا يدري ... لا يدري...

من اجلي اذن تالمت وما زلت؟

هتفت ذاته وقد اكتشفت متاخرة ما اكتشفت وتابعت:-

- **اخيراً تصالحنا، تفهمت مطلبي وتعاطفت معي. آه كم اتعبتني ايها الثوري (كنعان) آه آه كم انزويت في جوف اعماق اعماقك، اكتم رغباتي، احتياجاتي، وصياحي. اتكور على نفسي واخبيء راسي لكيلا يطل من عالم [القواعد، التطلبات، الاجراءات والتحوطات] والان فهمتك:- قبل وبعد الثوري أنت انسان ولم تتنازل عن الإنسان فيك، ستنتصر، حتماً تنتصر لانك انسان قبل وبعد الثوري! رغم لحظة لذة تحولت للحظة الم، ستنتصر!]**

(٧)

- قلت لك منذ البداية اخشى على نفسي واخشى عليك مني ولم تسمعني.

قالت تعتذر، مقدمة لقرارها! كانت لهجتها غيرها. التوتر لا الصفاء كان يخيم على الاسبوع السادس لالتقائهما. يتذكر أغنيتها، اقبالها وابتعادها، تقدمها وتراجعها، كبندول ساعة كانت صورته، تتقافز يميناً ويساراً وهو في حيرة وترقب!

- اكذب ان قلت لك ان لدي مشاعر تجاهك! أنا لست اقنومك الثالث، لا تعذب نفسك معي، اشفق عليك!. تابعت قائلة:
- لست ابحث عن شفقة لانني قوي. تضامن، تعاطف نعم، لكن شفقة لا. فهذه تليق بالضعفاء وأنا لست منهم!
- أنا اسفة لم اعن ذلك. أنها مشاعري. وسكتت.
- مشاعرك أنت تقررين حقيقتها. بالعموم حتى تلتقي المشاعر ينبغي ان تلتقي العوالم. نحن ننتمي لعالمين مختلفين [قال صادقاً وتابع بصوت خفيض مستسلم!] لا يهم هنا ما رايته واحسست به وعشته معك على مدى شهر ونصف!

نطق كلماته منهياً لا نقاشاً فحسب بل ومضات برقٍ سريع فوسفوري لمع سريعاً وانطفأ سريعاً في وكره بعد سنينه التسعة فيما احتفظ من لمعانه سوى بجرح التجربة، الومضة.

نهضت عن الاريكة الطويلة في الغرفة الواسعة، حملت حقيبتها الجلدية وعلقتها على كتفها، متوجهة للباب وعنده توقفت. دمعت عيناها، تعانقا بحرارة وقالت:

- رغم اننا لن نلتقي بعد اليوم لكن تاكد ان لك صديقة مقربة جداً ومتضامنة جداً هي هند وأنا اعتبر ان لي صديقاً رائعاً اسمعه كنعان يحيا بين الجدران في مكان ما ويهب حياته للثورة! أنا سعيدة انني تعرفت اليك. لنكتف بصداقة طالما اننا لا نرتبط بحب يجمعنا.

نطقت بكلماتها واعقبتها بقبلة طبعتها على شفتيه بسرعة. ابتسم ابتسامة لا تخلو من مرارة، أسى رغم مجاهدته الا تلحظه. قبلها وهي دامعة، خرجت مسرعة، اغلق الباب خلفها مستشعراً طعم مرارة قبلتها الاخيرة على شفتيه متسائلاً بينه وبين نفسه متشككاً، تاركاً للزمن ان **يجيب [هل هي من الطراز الذي يخلص للصداقة التي تنشا بين الجدران؟ هل تستطيع فعلاً ان تقدر عظمة صداقة تنشا بين الجدران؟** تساءل ولا يستطيع ان يغالب شعوره بان ابتسامتها، رقتها، دمع عينيها،

كلماتها كانت كشان.طريقتها الارستقراطية في تناول الطعام، تصنف كلها في خانة اللباقة (والاتيكيت) وحسن التصرف!

جلس على طاولة عمله في المطبخ وامامه الاوراق والاقلام يخاطبها: **انت وبقية مفردات بيتي وحياتي من يمكن التعويل على صداقتها. كل ما عداكن مزيف ومتصنع!!]** اشعل سيجارة وسحب منها نفساً طويلاً فاحس بالدخان يحرق رئتيه، يلسعها. ما شعر مرة هكذا طوال سبعة عشر عاماً من التدخين. ظل على جلسته تلك ساعة أو يزيد وما انطفأت السيجارة من يده خلالها، مرة يتطلع لاوراقه ومرة يمعن النظر بالحائط امامه وثالثة بقارورة الزيت على الطاولة. مشاعر كثيرة كانت تنتابه، كل مفردات مشاعر الاحتقان في تلك اللحظة يمكن ايجادها تنزوي داخله. مفردة واحدة تطغى على غيرها: التمزق! كان يشعر ان شيئاً ما تمزق داخله مرة وللابد!! يريد ان يصيح فلا يعرف بوجه من، ان يشتم فلا يعرف من، فقط يعرف ان شيئاً ما تمزق في داخله مرة وللابد!.

[بائس انت يا كنعان، انتظرت اقنومك الثالث لتلتذ معه وبه فتمخض المآ!] حدثته ذاته وهو يجاهد ليبعد نقطة دم مست انفه. [للمرة الثانية تودع المراة عند باب البيت السري، تقبلها، تفتح الباب، تخرج هي وتبقى انت مع صورة في الخيال والذاكرة. للمرة الثانية تحشر احتياجاتك بين الجدران، تدفن رغبتك في جوف بيتك – وكرك! في المرة الأولى كانت منى حياة ما اكتملت، تحولت لشظايا صورة وذكريات. في الثانية كانت هند لحظة عابرة، ومضة فوسفورية اورثتك ذكرى جرح. ما بين الاثنتين حياتك السرية تسع سنين. قبلت الأولى مودعاً بداية حياتك، اياماً على بدئها وها انت تقبل الثانية مودعاً قبل نهاية حياتك السرية، اياماً على انتهائها. ما بين الأولى والثانية سنوات الرغبة والاحتياج غير المحققين، سنوات الحرمان والقسوة والنضال ايضاً. هل هو قانون حياتك كمناضل سري، تبدا بوداع امراة بالحرمان منها لتنهيها بتاكيد هذا الحرمان وذاك الوداع؟ هل هي المتطلبات الحتمية للحياة السرية آن تضع الإنسان فيك على الرف، لتقتحم حياتك كثوري لا يجد انسانيته في الاخر؟ هل هو الظرف ام هي الصدفة ام تراه بؤس الاختيار في الحالتين؟ ام تراه اضاعة المشاعر لاتجاهها، السبب في ان عليك ان تبقي الاقنوم الثالث في حياتك ذكرى صورة لا حياة تعيشها، لا حقيقة تتلمسها، خيال لا رغبة متحققه؟ آه يا (كنعان) يا من روضتني كثيراً فتصالحنا في الساعات الاخيرة.

هل تآمر عليك "الجنس اللطيف" ام تامرت عليك قسوة التجربة فمنعتك من ان تجمع بني اقانيمك الثلاثة (الحياة، الثورة، المراة)! هل ادمنت الوداع والتقبيل عند الباب؟ كانك تصر على ان تضيف لباب بيتك السري وظيفة اخرى ودوراً اخر؟ ان يسمح للمراة بان تنسل منه، من حياتك! فاي باب هذا الذي اخذ على عاتقه كل هذه الوظائف والادوار لسنين وسنين؟؟] كان مشغولاً يحاول جاهداً طرد نقطة الدم التي تلامس خورنمته! [وماذا بعد يا ذاتي الثورية المطوقة معي بالبساطير والاحذية الرياضية والمطاطية. اما زلت ترين في ابتسامتها قوة لي ومقطع اغنيتها فرح، في لحظاتها جمال ساعوزه اواجه به بشاعة الذين يطوقونني؟؟ تفهمي وافهمي قوتي استقيها من حزبي ونضالي، تضامن رفاقي ومحبة شعبي وليس من لمعان ومضة فوسفورية، جرح مؤلم، لحظة لذة تحولت للحظة الم ... ان لم تدركي ذلك فأنت لم تنصقل بعد جيداً ! حسناً امامي وامامك تجربة جديدة ستبدأ بعد ساعات وعبرها ستنصقلين اكثر. ولكن احذري ان تطلي برأسك منذ الآن فصاعداً وتطالبيني بصورتها باستحضارها لك. يكفيني انني احمل عبء انهيار تجربتي ووقوعي بين براثنهم وفوق ذلك احمل لحظة الألم والاغنية المترددة والابتسامة المصطنعة! فاحذري ان تطلبي شيئاً بعد الآن!]

- اتفقنا. سأدعك وشانك!

كان استعد لدخول المواجهة الجديدة، المرحلة الجديدة بتعزيز حلفه مع ذاته الثورية ■

الفصل الحادي عشر

الفصل الحادي عشر

ساعات وكنعان ملق على أرضية الغرفة الواسعة ممداً على بطنه مقيد اليدين والقدمين معصوب العينين وذكرياته تتدفق من شرايين دماغه فتختلط بالدم يسيل من حاجبه الأيسر فتبقع الأرض بالذكريات الراشحة والدماء تلتحم بذكريات الوكر الصغير في لحظات الانتظار والترقب والأمل الواهي بان يفلت.

تعبت شرايينه من كثرة ما رشحت من ذكريات في ساعاته القليلة الماضية!! الا ما أطول ذلك الشريط السينمائي الذي يحمل ذكريات سنينه الماضية! يبدو كشريط السكة الحديدية، طويل وطويل. تسع سنين عاشها بالطول والعرض، كانت عمر شبابه وثباته ونضوجه، كانت سنوات تشكله كرجل. كان متيقناً الآن وهو على عتبة حياته الجديدة بعد ان ودع حياته الماضية انه ما عاش حياته عبثاً. فقط كان على مقاعد الدراسة الاعدادية يتمسك بهدف كان يبدو ضبابياً غير واضح المعالم، فبدأ يتضح رويداً رويداً حتى تعززت قناعته به يوماً اثر يوم. عاش جزءاً من حركة ثورية نبيلة التحق بصفوفها مبكراً ورأى تلك الصفوف تتسع سنة تلو اخرى، كان يرى ثمرة عمله يانعة تزين مع ثمرات رفاقه كلهم شجرة تعلو وتعلو، تطول وتطول ورأسها يتجه لمعانقة السماء!

الاعتزاز والفخر يمتلكان عليه كيانه اذ اختار لنفسه موقعاً في معسكر العمال والكادحين يتمسك بقيمهم ويرفع رايتهم، لذلك كان شعور بالرضى يلفه في اللحظة تلك من رأسه مدمى الحاجب حتى أخمص قدميه المقيدتين، رغم الغصة من انتهاء تجربته، رغم المرارة العالقة في جوفه من رشح الومضة الفوسفورية لصورة هند، مرارة لم تثنه عن خطته [الاختفاء حتى عام الفين وبضعة ايام]! شعور بالرضى يزيح غصة الحلق ومرارة الجوف جانباً. لم يتبق الا الحقيقة الساطعة سطوع الدم الاحمر القاني الذي يسيل من حاجبه منذ ساعات، حقيقة تختصر به كنعان وبهم البساطير والأحذية الرياضية المطاطية. هو–هم ذات المعادلة لذات طرفي الصراع. ما عدا تلك الحقيقة يبدو كل شيء تافهاً، ثانوياً وليس ذو معنى خاص في لحظة تازم الصراع بين طرفي معادلة هو–هم عندما يأخذ الصراع شكل دم ِ احمر قان يسيل ومواجهة حتمية!!

كان يدرك تناقضاته! كثيراً ما سبر غورها، كشفها، تاملها، فاخضعها ليتحرر من التوتر الناشئ عن صراعها في رأسه وبأقصى سرعة ممكنة فيشيع الاستقرار في حياته، ليحافظ على مزاجه فرحاً. حينها كانت قدمه تعرف قبل الخطو موضعها! عاد و اخذ بنصيحة نجيب محفوظ، كان ذلك استقراره الذي عاشه عبر سنينه الطويلة مندساً بين الجدران، استقراراً ما انتهك لحظة الا ليظهر من جديد. كان يدرك تناقضاته! منذ أقام متراسه يستحكم خلفه دفاعاً عن تجربته- خياره امام ذاته المهتاجة، الامارة بالسوء تتسلح خلف متراسها باحتياجاتها ورغباتها وتطلق رصاصها، شكوى، أنين وصياح وحتى تناقضات تجربته المتوترة القصيرة المنفغلة مع صورته. عاش تناقضاته تلك بالطول والعرض وما صرعته ليخون قيمه التي ناضل سنين على شرف التمسك بها، وما ان أخضعها حتى كان يستطيع القول وهو ملقى على الأرض [أنا راض عن حياتي وخياراتي] ليس للإنسان – وللمناضل الثوري اكثر – ان ينتزع نفسه من تناقضاته الداخلية، أنها جوهرة، تتساءل تباعاً مع سنينه وأيامه وحياته ... ما ان ينتهي من واحدة حتى تنبز اخرى برأسها! يتزوج الإنسان تناقضاته زواجاً كاثوليكياً لا فكاك منه! يحملها المناضل الثوري كما يحمل صليبه، سينطرح أمامه ذات السؤال عن تناقضاته:- كيف كانت نتيجة تصارعها داخله – في حياته، بالاندحار أمامها مهزوماً، متقوقعاً كالفأر يدخل جحره ام بالتقدم للأمام شامخاً، منتصباً؟

لا صوت من الغرفة الملقى فيها هشام. كان مثله، منذ ساعات يحيا ذكرياته، تاملاته، هواجسه، انتظاراته وتناقضاته! مثله كان مطوقاً بالبساطير والأحذية الرياضية والمطاطية مقيداً ومعصوباً. صوتٌ يأتي من الغرفة المجاورة للغرفة الواسعة. ازدحام وضجيج وأحذية من كل الأنواع تدخل وتخرج، أصوات تنادي، أخرى تحذر ثالثة غاضبة ورابعة محذرة! [**مرة أخرى يا فياض تلتقي تجربتنا. اختلفت في البدايات واتفقت في تناقض القوة والضعف يتصارع طرفاه فينا، جمعتنا فتاة النافذة فسنت ذئاب وحدتنا ورغبتنا أنيابها تنهشنا فيما في النهاية نفترق ونلتق، لم اعد أدراجي لوطن لم اهجره أصلاً، وما شعرت ببرد الغربة يلسع عظامي بل دفء رام الله احتضني منذ يومي الأول حتى ليلتي الأخيرة. الآن عدنا فالتقينا يا فياض يا رفيق التجربة، اعتقل مع مطبعة الحزب في وكر جحري. هل سيقود اعتقالي لضجة في الإعلام والصحافة مثلك، فتروى القصص والحكايات وتسري الشائعات لتمضي العجائز ساعات يومهن الرتيب بلوكها؟؟**]

آخر ما كتبه ودفعه للطابعة رسالة داخلية سريعة للأعضاء يحذر فيها من تصاعد هجمة المخابرات على منظمات الحزب ارتباطاً بسعي الاحتلال المتوقع

لتجهيز الشارع لنجاح "المؤتمر الإقليمي" الذي حدد موعده في نهاية تشرين الأول، بعد شهر ونصف من مداهمة وكره ... فأصابته الهجمة هو الذي حذر منها! كتب آخر الرسالة [لا تسمحوا لهم ان يحشروكم في الأكياس! تمردوا على قرار الاعتقال ولا تسلموا أنفسكم!] سيجدون النسخة الأصلية لا زالت ملصقة على دولاب المطبعة.

قبل تسع سنين اندس بين الجدران رافضاً تسليم نفسه وها هو الآن قبل نهاية حياته السرية بين الجدران بيومين، يومين فقط، يكتب اخر ما يكتب فيها داعياً رفاقه للاندساس مثله بين الجدران، إلى عدم تسليمهم أنفسهم! [لا احملكم ما لا احتمل. لا أطالبكم بما لست اهلاً للقيام به. أدعوكم لتمرد أعيشه واحتكم على حياة اخترتها فأنا من السابقين وانتم من اللاحقين، فهيا الحقوا!!]

كان في خياله المتأمل يخاطب رفاقه جميعاً وهو يكتب اخر ما كتب في حياته السرية ولا يدري انه لن يحمل القلم بين الجدران بعد ذلك اليوم. قرأ روايتين مؤخرا. أخيراً حصل على الجزء الرابع من رواية "الدون الهادئ" ترك ما بين يديه من عمل حزبي وعاد لعالم القوزاق. غريغوري بعد ان تقلب بين الثورة واعدائها- استقر مع أعدائها كفلاح نموذجي، ولما انتصرت الثورة ركب رأسه، ولم يسلم نفسه للثورة ويطوي صفحة الماضي فالدم بينه وبين البلاشفة غدا بحراً، فركب حصانه وتحول لقاطع طريق لتقتله الميليشيا. أما اكسينيا فقد ماتت بالحمى بعدما حزمت أمرها وهجرت زوجها ولحقت بعشيقها غريغوري. اما الرواية الثانية فكانت "غير المرغوب فيه" لريجيس دوبريه الذي ارتبط في شبابه بجيفارا والثورة في أمريكا اللاتينية ليعود شان العديد من مثقفي البرجوازية ليلتحق بطبقته فيعين مستشاراً لميتران!

ما ان وصل صفحة ٨١ من الرواية حتى استوقفه مقطع فيها [لا يمكن التحقق مما اذا كان أحدهم من طينه المناضلين الا بعد سن الثلاثين: حين ينبغي له ان يتخلى عن ان يكون له عائلة واسم ومهنة وطموح إلى الأبد. الحيرة الدائمة – الفصلية مدى الحياة، الجو الكئيب للأيام الروتينية، رؤية الأصدقاء الذين يتزوجون ويؤسسون عائلة، رفاق الدراسة الذين يصبحون شخصيات مهمة ينجحون في المهنة كما يقال والذين يعرف المرء انهم أشخاص تافهون وان بإمكانه ان يتفوق عليهم عشر مرات لو كان مكانهم. يشبه الأمر ان يغلق أحدهم على نفسه برضاه الكامل في قبو ويرى الحياة تمر أمامه عبر المنفذ ولا يمكنه الا ان يتأمل سعادة الآخرين وهو يعرف ان هذا ليس له، في حين معه مفتاح وكره في جيبه ويمكنه ان

يصعد مجدداً فيختلط بالجمهور ساعة يشاء. يجهل صباحاً أين سينام مساءاً ولا يعرف اذ ينام في المساء، اذا كان سيبقى حيث هو حتى الصباح. هذا ممكن ستة اشهر لكن ليس عشر سنوات دفعة واحدة.

وضع الكتاب اذ قرا الفقرة وقام يتمشى، كان هو الآخر تجاوز الثلاثين واقترب من ولوج سنته العاشرة في وكره. "المناضل المحترف، رجل الغمل السري هو هو أينما ناضل، في بوليفيا، فلسطين، السودان، فنزويلا ... يحمل صليبه، وزر نضاله ويسير" فكر. اشد ما أسرته شخصية مانـاويل ذلك الفوضوي الذي وهب نفسه للعمال في العالم، حيثما وُجد نضالهم وُجد مع حروف مطبعته يطبع مناشيرهم!!

صوت المؤذن يعلن أن بدا ظهور الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. مع انبلاج الفجر بدأ يسمع أصوات زقزقة العصافير تأتيه من جهة شرفة المطبخ التي اعتادت العصافير ان تبني أعشاشها بين الماسورة النازلة من السطح وجدار المنزل بالقرب من سطح الشرفة.

عندما كان أحياناً يطلع عليه الصبح وهو يقرا أو يكتب أو بسبب ارق ما فقد كان يجلس على الشرفة تلك يشرب الشاي ويدخن حتى السادسة أو السابعة صباحاً يرقب العصافير اذ تبدأ رحلتها من أعشاشها بحثاً عن الطعام فتظل تروح وتجيء بهمة ونشاط وحركة دائبة. كانت غدت ببنائها لأعشاشها بقرب شرفته، صديقته التي تعشش عنده فتنعم بالأمان وترعى فراخها حتى يتحول زغبها الطري إلى ريش فتطير لتشرع من جديد بتفريخ جديد.

الأصوات لا زالت تطرق مسامعه آتية من الغرفة المجاورة. من قربه تمر العديد من الأحذية والبساطير تتجه نحو الباب الحديدي ويسمعها تنزل الدرجات لتعود فتخرج من جديد. كانوا يخرجون غنائمهم من وكره: كتبه، ماكيناته، أشرطته الموسيقية والغنائية وكل ما يعتقدونه يستحق الفحص والدراسة والمصادرة لسبب ما. بدأ الآن يلمح من خلال عصبة عينيه ليس فقط حركة البساطير والأحذية قربه تروح وتجيء بل يرى شعاع الشمس الباهت الضعيف يتسلل لبيته – لوكره. [الآن سيبدأ عمال معمل الطوب المجاور بالتوافد على عملهم، برهة قصيرة ويبدأ ضجيج الماكنات الهاتك لسكون الحي بأكمله بالإعلان عن نفسه!!.

كثيراً ما نقم على المعمل وماكيناته وصاحبه وعماله وعلى اليوم الذي اخترع فيه الإنسان حجر الطوب! كان عمله يفرض عليه أحياناً ان يسهر لما بعد منتصف الليل، للثانية أو للثالثة صباحاً، وما ان ينام ساعتين أو ثلاثة مجهداً حتى يصحو من اثر الضجيج العالي للماكاينات وكأنها مطارق تهوي على رأسه! بل أحياناً كان عمال المعمل الذين يعملون بنظام "المقاولة" يبدأون عملهم الساعة الواحدة أو الثانية صباحاً لينهوه الساعة العاشرة صباحاً قبل ان تلفحهم الشمس اللاهبة صيفاً، هم المنهكون من عملهم كان ذاك ترتيبهم الذكي! ولكن اتى له أن يفهم ترتيبات العمال واحتياجاتهم! كان يريد ان ينام اذ لديه هو الآخر عمله وترتيباته واحتياجاته. ما كان يملك حينها الا ان يشتم ويلعن بعصبية أو يخاطب العمال ساخراً والتوتر يسيطر عليه [أناضل من أجلكم! أفلا تقدرّون وتدعونني أنام قليلاً!] ويرحل من غرفته إلى الغرفة المقابلة لينام، لكنه يكون كمن يستجير بالرمضاء من النار! ما هي الا لحظات حتى يبدأ عمال البلاط عملهم، ولهم هم الآخرين نظام ازعاج فريد من نوعه تفرضه طبيعة عملهم، يبدأون بمجرفة حديدية بغرف مختلف أنواع الحصى المتنوعة الأحجام وتجميعها في عربة نقل حديدية تسير على أرصفة مليئة بالحصى متجهة لداخل المعمل، يعني حفلة من الأصوات الاستفزازية!

حذاءان رياضيان يتوقفان عند رأسه. مقدمتا الحذاءين تتجهان لوجهه.

- زي هو، زي كنعان صبحي*. تحدث أحدهم.
- ها إذن أنت كنعان صبحي نحن مشتاقون لمعرفتك منذ سنين!. قال الثاني
- ليس عندي رغبة كرغبتك. رد كنعان.
- يبدو عليك عنيد!
- ستتعرف علي جيدا، لا تتعجل.

كان ذلك آخر ما تحدثوا به في وكره. سمع صوت الشاحنات العسكرية تعلن تهيؤها للرحيل. أحدهم ينهضه، يفك وثاق قدميه، يسوقه نحو الباب الحديد [لماذا لا تشتغل مكائن معمل الطوب؟ ألا تودعني، تحملني ذكراها؟ أريد أن احمل صوتها معي، أريده!! وصل الباب.

بدأت رحلته الجديدة – حياته الجديدة، ها هو الآن يفتح باب مضى سنينه خلفه ليخرج منه فيقفل من جديد. تستقبله تجربة جديدة.. بين باب وباب قضى عمر شابه في اتون التجربة. هو هو كنعان صبحي دخل الباب، مكث خلفه وخرج ولكنه ما عاد نفسه! يخرج وهو يجر في اذياله تاريخ، يحمله على أكتافه، يطوي على تجربته شغاف قلبه.

أعود للحياة وقد خلقت من جديد! ماذا ستكون عليه حياتي الجديدة؟ سنين اسر، رحيل عن وطن، ام قتل بدم بارد؟ لا يهمني، يكفيني انني عشت قناعاتي وقيمي واهدافي. لا يهمني لا يهمني] استقبل الدرجة الأولى وهو يهتف في سريرته [لا يهمني، لا يهمني]!

احد الذين يسوقونه سواء لقصر قامته أو لرغبة باهانة المخرب بين يديه أو لاخفاء وجه كنعان عمن قد يلمحه كان يضغط على رأسه ليحنيه للاسفل وقد هبط درجات السلم **[لن تنال ذلك يابن العاهرة، لن اخرج من حياتي السرية محني الرأس، ولجتها متمرداً وساغادرها هكذا، سأرفع هامتي ولو هشّمت عظامي على درجات وكري. ليراني عمّال معمل حجر الطوب كيف نزلت، كيف كنت بين أيديهم، ليعرفوا أي نوع من المناضلين نحن، أبناء الحزب]!**

صمم بينه وبين نفسه ورفع رأسه رغماً عن يد البسطار الضاغط لاسفل. عاد البسطار ليضغط فعاد هو ليرفه، ينزلون درجات الوكر، الخفض والرفع مستمرين حتى وصلوا الدرجة الأخيرة فتوقف الجندي وما عاد يضغط. كان وصل الباب الحديدي وفي المسافة الفاصلة بينه وبين الدرجة الأخيرة انطلق صوت مكائن الطوب! تهلل قلبه فرحاً وصاح في سريرته [إنها تودعني هذه الحبيبة، إنها تودعني!] رد العمال يقولون له **[اعذرنا يا مَنْ اندسست بين الجدران على إزعاجنا لك! مهمتنا صناعة حجر الطوب للبناء مثلما هي مهمتك ان تبني مع رفاقك وطناً حراً. كلنا نبني فنحن أبناء معسكر واحد. ها نحن نلبي رغبتك ونودعك على طريقتنا، نحملك صوتنا، ذكرانا، أيها الجار يا رفيق المعسكر!]** لكم تمنى ان يرد للعمال تحيتهم، ان يقول لهم [صباح الخير يا شباب، يعطيكم العافية!] ولكن الشاحنات تنتظر لتحمل صيدها الثمين لمستقبله المجهول. سيره المستقيم مرفوع الرأس اعتبره تحية للعمال الذين كان يعرفهم واحداً واحداً وهم لم يروا وجهه يوماً. ما ان دلف الباب حتى تناهى له صوت الشيخ إمام من بعيد، بعيد، دافئاً شاعرياً:

طلع الصباح كل الجمال في طلعته
والنور سرح كحل عينينا بفتنته
والطير صدح للمولى جلّت قدرته
الحان جميلة تنعش القلب الحزين
يسعد صباحكم كلكم يا شغالين!

كان يحمل معه صوت زقزقة العصافير. صوت شيخه الضرير الثوري، صوت مكائن العمل وهو يدلف الباب الخارجي مطوقاً بالثكنة ليمر على الممر ...

نزل الدرجات الأربع فوطات قدمه الشارع، رفع رأسه اكثر. الآن يشاهده العمال جيداً! **[وداعاً يا سنوات العمل الأكثر قسوة ونضالاً!]**

ما ان أطلق صيحته تلك حتى شعر وكان سنينه الماضية تفلت من ذاكرته فجأة، كأنه بصقها! تركها خلفه وسار تسحبه البساطير لشاحنات. ترك سنة القوة والضعف، سني الحسم وصورة منى، سكينة وفتاة الشمس والربيع، هجمة سنة ١٩٨٥، مواجهات المنظمات والأعضاء، الرغبة والاحتياج، توتره، فرحه، غضبه، نوادره، انتظاراته، صورة هند وشفتيها النديتين، سني الانتفاضة وحرب الخليج، حزنه، انتعاشته، لحظة لذته، ألمه ... ما عادت كلها تستوطن شريط ذكرياته ولم يكن سوى كلمات تطن في رأسه، وتندلق على لسانه:

- مرحلة جديدة تتطلب مواجهة جديدة وتحدّياً جديداً.

ألقيّ به في الشاحنة وسمع من خلفه صوت انصفاق الباب ■

معتقل النقب - انصار ٣

شباط/ ١٩٩٥.